عبقرية الإنتصار

في المعارك وفتح الأمصار



د. فهد خليل زايد



عبقريّة الإنتصار

في المعارك وفتح الأمصار

عبقريّة الإنــتصار

في الـمعارك وفتح الأمصار

الدكتور

فــهــد خـلـيـل زايـد

2013

دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

253.2
زائيد، فهد خليل
عبقرية الإنتصار في المعارك وفتح الأمصار/ فهد خليل زايد _. عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع 2013.
( )ص
ر.أ: 2013/1/2122
الواصفات: المسلمين//الفتوحات الإسلامية//
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
0

الطبعة الأولى ، 2013



دار يـــافـــا العلمية للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – تلفاكس 00962 6 4778770
ص.ب 520651 عمان 11152 الأردن
E-mail: dar_yafa @yahoo.com

فهرس المحتويات

الإهداء

إلى أبناء أمتي قاطبةً أهدي هذا الجهد البشري.

لقد وقفت أُمَنّي النفس بالأمل، وليل الأمةِ للأسف ثقيل، فأحوالنا تبكي القلوب، ولكن أحلامَ القوافي جعلتني أنسج من روحي كلمات تنجلي بحروفها شمس الخلاص، وما كتابي إلا صرخةٌ حرٍ تهتف في دنيا الأمة لينطلق صوت الحق مدوياً من جديد، ولنرمق بعين الأحرار صوت الضمير ينطلق نحو الغد بسيف الحق، فمتى نعود إلى ما كنا؟ فمتى يهتف مجروح الفؤاد حين يهزه حنين خير المسلمين؟ وإن عصفت الرياح بأمتي قروناً فلا بد من أن نرتقب التغيير في موكب الأمل . الأمل . الأمل.

د . فهد زايد

المقدمة

إن الحمد الـلـه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالـلـه من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الـلـه فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، ولن تجد من دون الـلـه من ولياً مرشداً.

والصلاة والسلام على رسول الـلـه الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، للبشرية جمعاء، لتخرجها من الظلمات إلى النور، فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة فتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ورضي الـلـه تعالى عن صحابته الغر الميامين، أسد الوغى، وأعلام الورى، جاهدوا في الـلـه حق جهاده، فأناروا قلوبنا بنور الإيمان، وأحيوا نفوسنا برسالة الإسلام، وحرروا شعوباً من دياجير الظلام إلى عدل الإسلام.

الـلـهم آت نفوسنا تقوها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها،

الـلـهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

فإن الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل دائم ما دامت الحياة، وهذا الصراع متعدد الأٍساليب والصور، يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، وقد يوجد ظرف تكون الجولة فيه لأهل الباطل فإن ذلك لا يزعج المسلمين، لأن العاقبة لهم، حيث النصر والتمكين.

يزخر التاريخ الإسلامي بإنجازات عسكرية عظيمة، وأعمال مجيدة، قامت بها الجيوش الإسلامية، ولا يوجد في تاريخ الحروب والمعارك حروباً فاقت في تألقها معارك المسلمين ولا يوجد قادة فاقوا في الشجاعة والمهارة الذهنية العسكرية قادة

المسلمين المبدعين ومع ذلك فلا يعرف إلا القليل في العالم عن العبقرية القيادية والعسكرية في المعارك والغزوات الإسلامية.

إن دراسة التاريخ العسكري القيادي تعتبر القاعدة الأساسية لتوسيع مدارك الأمة التي تستطيع أن تبني معلوماتها وتمكنها من الاستعداد لما هو قادم، كما أنها تنمي الجانب المعرفي في مهارات القيادة القائم على إبراز الحق والعدل.

يقع هذا الجهد على دراسة تحليلية للعبقرية القيادية في المعارك والغزوات الإسلامية في ماضينا المشرق، فكان القصد من هذا الكتاب بيان المهارة والعبقرية في الحروب وإيجاد ملكة التحليل لهذه المعارك والاستفادة منها.

لذا فقد اعتمدنا منهجية تحليل المعلومات وإبراز الدروس المستفادة مركزين على الوصف الدقيق لهذه المعارك الشهيرة في تاريخنا الإسلامي.

لقد اشتمل الكتاب على معظم المعارك والغزوات الإسلامية في ماضينا المجيد معتمدين الترتيب الزمني لهذه المعارك.

أسألُ اللـه أن يكون هذا الكتاب رافداً جديداً، وسنداً قوياً لمعرفة الحقائق وإدراك الدروس المستفادة، علّنا ندرك حقيقة المستقبل، ومفاتيح النصر.

والحمد اللـه.

غزوة بدر الكبرى

منذ أن ناصبت قريش الرسول الكريم صلى اللـه عليه وسلم العداء وأجبرته وصحبته على الهجرة إلى المدينة وهدروا دمه وخفروا ذمته، أصبح الطرفان في حالة حرب ضمنية تمليها الرسالة الإلهية وحق الدفاع عن النفس من قبل المسلمين للحصار السياسي والاقتصادي اللذين شنتهما قريش على الدعوة الإسلامية الفتية .وأخذ الطرفان يتهيئان عسكرياً وسياسياً واقتصادياً للقضاء على الطرف الآخر في حرب معلنة عندما يحين أوانها.

لم تجر عمليات عسكرية ذات شأن طيلة التسعة عشر شهراً وهي الفترة الممتدة بين هجرة الرسول صلى اللـه عليه وسلم ومعركة بدر الكبرى، بل تركزت معظم العمليات على القدرة الاستطلاعية سواء الخاصة منها في معرفة تفصيلات طبوغرافية ساحة العمليات المتوقعة أو التي كانت موجهة لمعرفة إمكانات الطرف الآخر ونشاطاته الاستطلاعيّة المقابلة، بالإضافة إلى محاولة كل طرف كسب المؤيدين وتهيئة أسباب النصر إلى الحد الممكن.

أهم تلك العمليات المحدودة هي:

1) دورية مقاتلة بقيادة حمزة بن عبد المطلب موجهة ضد قافلة قرشية ناحية العيص –على ساحل البحر الأحمر –بقيادة أبي جهل بن هشام، لم يحدث قتال بين الطرفين لتدخل مجد بن عمرو الجهني الذي قام بدوره حمامة السلام بينهما .كان ذلك في شهر رمضان من سنة 1هجرية.

2) دورية مقاتلة بقيادة عبيد بن الحارث بهدف تهديد تجارة قريش في وادي رابغ .تقابلت هذه الدورية بقوة للقرشيين بقيادة أبي سفيان إلا أن الطرفين لم يتقاتلا فيها أيضاً.

3) دورية استطلاع بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى منطقة الخرّار.

4) دورية قتال بقيادة الرسول صلى اللـه عليه وسلم إلى منطقة (ودان) أيضاً لم يحصل اشتباك خلالها ولكنها أسفرت عن عقد معاهدة عدم اعتداء مع قبائل بني ضمرة بن بكر.

5) غزوة بواط وغزوة العشيرة قادها الرسول الكريم صلى اللـه عليه وسلم إلى الموقعين المسميين وفي كلا الغزوتين تمكّن القرشين من الإفلات دون قتال.

6) غزوة بدر الأولى .قادها الرسول صلى اللـه عليه وسلم في جمادى الآخر من السنة الهجرية الثانية بهدف مطاردة قوات المشركين حيث أغارت على مراعي المدينة وقد تمكّن العدو من الإفلات.

7) دورية استطلاع صغيرة بقيادة عبد اللـه بـن جحـش في شـهر رجـب مـن السـنة الثانيـة وجهها الرسول صـلى اللــه عليـه وسـلم لرصـد طريـق مكـة الطـائف، إلا أن الدوريـة هاجمـت قافلـة للمشركـين وقتلــت أحــد عنــاصر حمايتهــا هــو عمــرو بــن الحضرمــي -أول مشرك يقتلـه المسلمون .غضب الرسول صلى اللـه عليه وسلم لـذلك لأن لا قتـال في الأشـهر الحـرم واسـتغلت قريش ذلك للتشهير بالمسلمين، إلى أن أنزل اللـه بآياتـه المحكـمات إباحـة قتـال المشركـين في أيِّ زمان ومكان.

تأزم الموقف:

أيقن مشركوا مكة بعد نشاطات الدعوة الإسلامية الجديدة سالفة الذكر، أيقنوا مدى الخطورة التي تتهدد شريان تجارتهم وحياتهم مع بلاد الشام نظراً لموقع يثرب وسيطرتها على تلك الطريق .وهكذا دنا موعد نزاع مسلح دام بين الخير والشر بين الكفر والإيمان بين الظلمات والنور، النزاع الذي بدأ منذ بدء الخليقة النزاع الحتمي في كل زمان ومكان.

مرت فترة جمود قصيرة في العلاقات بين مسلمي المدينة وبين مشركي مكة بعد الاشتباك الذي تم بين دورية عبد اللـه بن جحش والأعداء .مما أفسح المجال أمام المسلمين أنْ يبدؤوا في التخطيط للقضاء على نفوذ المشركين ليتيسر لهم نشر

الدعوة الربانية التي أوكلها اللـه لهم، ووضع حد للمعارضة الشرسة التي كانت قريش تقود لوائها في ربوع الجزيرة العربية لأسباب اقتصادية، ولأسباب سياسية ذلك أن الدعوى الجديدة ستقضي على مركزهم المسيطر على القبائل العربية والقضاء على أوثانهم التي كان لها الفضل الأكيد على سيادة قريش وغطرستها.

لهذا كان كل من الطرفين يستعد ويخطط للقضاء على خصمه وبدأت في هذه المرحلة سلسلة من المعارك كانت غزوة بدر الكبرى فاتحتها.

وردت معلومات للرسول الكريم صلى اللـه عليه وسلم عن قيام قافلة تجارية كبيرة لقريش برحلة إلى بلاد الشام تحت قيادة أبي سفيان زعيم قريش، وحين همّت القافلة بالعودة من غزة، أرسل الرسول الكريم صلى اللـه عليه وسلم دورية استطلاع مؤلفة من طلحة بن عبيد اللـه وسعيد بن زيد إلى الحوراء لرصد القافلة وتقصي أخبارها .كانت هذه القافلة من أكبر القوافل القريشية حيث كانت محملة ببضائع حمولة ألف بعير وقدرت قيمتها بخمسين ألف دينار يحرسها سبعون رجلاً .كانت الأموال مشتركة بين معظم رجالات قريش البارزين.

أدرك أبو سفيان، كما يبدو الخطر الذي ينتظر قافلته، وقبل وصوله إلى مواطن الخطر، وجه أحد رجاله إلى مكة طالبا الإسناد الكافي لحمايتها، وتمكّن أبو جهل من حشد 950مقاتلاً تقريباً لحماية تلك القافلة.

أما في المعسكر الإسلامي فقد أمر الرسول صلى اللـه عليه وسلم بالتطوع للقتال مبينا للمسلمين قيمة القافلة المادية وعدد قوة حمايتها، فلم يتطوع إلا عدد قليل ظناً منهم أن هذا العدد كافياً لمعالجة العدو، فقد تجمع 313رجلاً منهم 83 من المهاجرين و 61من الأوس و 170من الخزرج .ربما لم يصل للمسلمين نبأ الحشد القرشي وهذا ما يفسر ترك الرسول صلى اللـه عليه وسلم الخيار للتطوع بدلا من التعبئة العامة.

خرج المشركون من مكة بقيادة أبي جهل لمساندة أبي سفيان، وما كادوا يسيرون بضعة أيام حتى عرفوا أن القافلة استطاعت التملّص من قبضة المسلمين كما أن

الأخبار وصلتهم من أبي سفيان أنه ليس هناك ما يبرر خروجهم، إلا أن أبا جهل أبى العودة وقال والـلـه لا نرجع حتى نرد بدر فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا ويجمعنا، فلا يزالون يهأبوننا .وهذا القول يؤكد أن أبا جهل أراد استغلال المناسبة لضرب المسلمين ضربة قاصمة إلى الأبد.

مخطط القتال:

أما الرسول صلى الـلـه عليه وسلم وصحبه فقد خرج من المدينة في الثامن من رمضان من السنة الهجرية الثانية بعد أن أمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل، وقد تحركت القوة حسب الترتيب التالي:

1. حرس مقدّمة .تسبقه دورية استطلاع متقدّمة.
2. الجسم الرئيسي ويتألف من:
3. سرية المهاجرين ورايتها مع علي بن أبي طالب.
4. سرية الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ.
5. حرس المؤخرة.

عيّن الرسول الكريم صلى الـلـه عليه وسلم الزبير بن العوام قائداً للميمنة والمقداد بن عمرو الكندي قائداً للميسرة –وهما الفارسان الوحيدان في الحملة .أما راية المسلمين العامة فقد أعطيت إلى مصعب بن عمير بن هاشم القرشي.

سلك رتل القوة الإسلامية طريق القوافل التجاريـة بـين المدينـة وبـدر والبـالغ طولـه قرابـة 160كـم وقد وزّع الرسول صلى الـلـه عليه وسلم الإبل المتيسرة وعددها سبعون بعيراً على رجاله وكان نصيبه مـع علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي بعيراً واحداً يتعاقبونه .وهكـذا ضرب الرسـول الكـريم صـلى الـلـه عليه وسـلم المثـل الأعـلى للقائـد العسـكري الـذي يشـاطر جنـده التعـب والسـهر والسراء والضراء

مما له أكبر الأثر في رفع الروح المعنوية والاستعداد لافتداء قائدهم بالمهج والأرواح.([1])

انطلق الرتل مسرعاً للحيلولة دون تملّص قافلة قريش، فلما وصل الرتل (وادي ذفران) جاءهم خبر خروج جموع قريش لإنقاذ قافلتهم بقوة لم يسبق لمكة أن حشدت مثلها قبلا .طلب الرسول صلى الـلـه عليه وسلم مشورة صحبه كعادته دائما وكعادة القادة الواعين، فدعوه المهاجرون بالاستمرار بحملته، لكنه رغب سماع رأي الأنصار الذين آووه وآووا من هاجر من مكة معه فقام سعد بن معاذ سيد الأنصار وقال لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الـلـه لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك.

كان الرسول صلى الـلـه عليه وسلم طيلة مراحل تحركاته يبعث العيون أمام القوات بمسافات طويلة لتقصي المعلومات خوفاً من المفاجآت ووقع القوة في مهالك ومخاطر لم يحسب حسابها ولقناعة صلى الـلـه عليه وسلم بأهمية تأمين الحماية للقوة قبل القتال، وكثيراً ما كان هو نفسه يتقدّم القوات مع دوريات الاستطلاع لتقصي المعلومات تمهيداً لوضع خططه على أساسها .

بعد أن اطمأن القائد العظيم على متانة صفة وتماسك قواته –رغم قلتها –وأصبحت لديه المعلومات الكافية عن الخصم، توجه بقوته نحو بدر ونزل بها، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن تنتقل القوة إلى أدنى بئر ماء من معسكر قريش ثم تغوير ما سواه من الآبار لحرمان العدو من المياه بعد تأمين ما يحتاجه جيش المسلمين، ولقد نفذ الرسول صلى الـلـه عليه وسلم المشورة بعد أن راقت الخطة لجميع قادته.

أما جيش المشركين والـذي قـارب تعـداده الألـف فقـد تحـرك عـلى عجـل مـن مكـة سالكاً وادي عسفان ثم قديد ثم الجحفة ثم الأبواء ثـم بـدر .وبيـنما كـان هـذا الجـيش

[1] ابن هشام - جزء 1 - صفحة 420 -425.

مستمراً في حركته للشمال كان أبو سفيان وقافلته في طريقه إلى مكه بعد أن استشعر الخطر الذي يهدده والمستقي من المعلومات التي جمعتها دورياته الاستطلاعية واستطاع بذلك الإفلات من قبضة المسلمين لنباهته ومقدرته القيادية.

وصل ركب قريش بقيادة أبي جهل بدراً ونزلت القوة في ثنايا التلال الغربية من الوادي لإعادة التنظيم والتهيؤ للقتال المقبل .وكانت قوتهم مؤلفة من 950مقاتل تقريبا من بينهم 100فارس و 350بعيراً.

وصف موقع المعركة:

يقع موقع بدر في وادي بدر العريض المحاط بالهضاب والكثبان ومقاطعاً للطريق التجاري الغربي الواصل بين الحجاز وبلاد الشام .تكثر الآبار في تلك البقعة ويتجمع معظمها في موقع المعركة المنتخب لأهمية المياه في أداءه المعركة ومعظمها يقع على الضفة الشمالية للوادي.

تتصف الضفة الجنوبية بليونة أرضها وتعرضها للوحل خلال هطول الأمطار في حين أن طبيعة الضفة الشمالية تتصف بصلابة أكثر مما يسهل الحركة عليها وهذه ميّزة جيدة في صالح المعسكر الإسلامي.

انشقاق جيش المشركين:

على أثر تمكين أبي سفيان من الإفلات بقافلته سالمة وعودته إلى مكة حاول عدد من زعماء قريش العودة دون قتال ذلك لانتهاء سبب مجيئهم وهو حماية القافلة.

إلا أن أبا جهل عميد الكفار والحاقد على نبي الله صلى الله عليه وسلم أبى واستكبر وأراد استغلال حشد تلك القوة الهائلة للقضاء على الدعوة المحمدية، كما مر معنا في مقدمة هذه السيرة، لكن الأخنس بن شريق الثقفي –قائد قبيلة

زهرة وعدد أتباعه ((300 كان رأس المعارضين لغطرسة وكبرياء أبي جهل انسحب وإتباعه من موقع رابغ عائداًَُ إلى مكة.

حاول أيضا عتبة بن ربيعة أحد زعماء قريش البارزين ثني أبي جهل عن غيّه إلى أن جهوده ذهبت أدراج الرياح .وهكذا أصبحت المعركة واقعة لا محالة.

خطة الانفتاح:

بعد تمركز المسلمون في موقع دفاعي على الضفة الشمالية للوادي –حيث تتواجد آبار المياه التي غوّر معظمها –دمرت –ما عدا ما يكفي لجيش المسلمين .قسّم الرسول صلى الـلـه عليه وسلم قوته إلى ثلاث أقسام وضع على رأس كل قسم قائداً ثم عبّأ الصفوف في كل قسم وجعل الجند متراصين متلاحمين للحيلولة دون إحداث خرق في صفوفهم من قبل المشركين ثم اختار مقر قيادته الثابت على تله مرتفعة تشرف على ميدان المعركة بمشورة سعد بن معاذ زعيم الأنصار الذي ترأس فصيلة الحرس الخاص حول الرسول صلى الـلـه عليه وسلم للدفاع عن نبي الـلـه وقائدهم العظيم.

وبعد أن عدّل الرسول صلى الـلـه عليه وسلم الصفوف وهيأها للقتال أصدر أوامر إلى جيشه بأن لا يبدأ القتال حتى تصدر الأوامر منه، وقال لهم :إنْ أكتنفكم العدو (أي أحاط بكم) فإنضحوهم بالنبل .يتضح هنا أن الرسول صلى الـلـه عليه وسلم اتخذ موقف الدفاع سلفاً نظراً للتفوق الساحق الذي يتمتع به العدو وهو 1:2في القوة البشرية فقط عدا عن عدد الفرسان القرشيين الـ 100مقابل فارسين فقط في صف المسلمين.

أما قريش، فقد اتخذت من ضفة الوادي الجنوبية وبطن الوادي نفسه موقعاً لانطلاق هجومها واقتحامها لمواقع المسلمين، وقد صممت المعركة بالنسبة إليهم كمعركة هجومية لتدمير قوة المسلمين والقضاء عليها .سببت الأمطار التي هطلت ليلة المعركة في وحولة تلك المنطقة مما أثر على قابلية حركة قواتهم في اليوم التالي وكذلك منعتهم من الانفتاح للأمام للسيطرة على آبار المياه.

زهرة وعدد أتباعه ((300 كان رأس المعارضين لغطرسة وكبرياء أبي جهل انسحب وإتباعه من موقع رابغ عائداًُ إلى مكة.

حاول أيضا عتبة بن ربيعة أحد زعماء قريش البارزين ثني أبي جهل عن غيّه إلى أن جهوده ذهبت أدراج الرياح .وهكذا أصبحت المعركة واقعة لا محالة.

خطة الانفتاح :

بعد تمركز المسلمون في موقع دفاعي على الضفة الشمالية للوادي –حيث تتواجد آبار المياه التي غوّر معظمها –دمرت –ما عدا ما يكفي لجيش المسلمين .قسّم الرسول صلى الله عليه وسلم قوته إلى ثلاث أقسام وضع على رأس كل قسم قائداً ثم عبّأ الصفوف في كل قسم وجعل الجند متراصين متلاحمين للحيلولة دون إحداث خرق في صفوفهم من قبل المشركين ثم اختار مقر قيادته الثابت على تله مرتفعة تشرف على ميدان المعركة بمشورة سعد بن معاذ زعيم الأنصار الذي ترأس فصيلة الحرس الخاص حول الرسول صلى الله عليه وسلم للدفاع عن نبي الله وقائدهم العظيم.

وبعد أن عدّل الرسول صلى الله عليه وسلم الصفوف وهيأها للقتال أصدر أوامر إلى جيشه بأن لا يبدأ القتال حتى تصدر الأوامر منه، وقال لهم :إنْ أكتنفكم العدو (أي أحاط بكم) فإنضحوهم بالنبل .يتضح هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ موقف الدفاع سلفاً نظراً للتفوق الساحق الذي يتمتع به العدو وهو 2:1في القوة البشرية فقط عدا عن عدد الفرسان القرشيين الـ 100مقابل فارسين فقط في صف المسلمين.

أما قريش، فقد اتخذت من ضفة الوادي الجنوبية وبطن الوادي نفسه موقعاً لانطلاق هجومها واقتحامها لمواقع المسلمين، وقد صممت المعركة بالنسبة إليهم كمعركة هجومية لتدمير قوة المسلمين والقضاء عليها .سببت الأمطار التي هطلت ليلة المعركة في وحولة تلك المنطقة مما أثر على قابلية حركة قواتهم في اليوم التالي وكذلك منعتهم من الانفتاح للأمام للسيطرة على آبار المياه.

التوجيه النهائي:

بعد أن تهيأ الطرفان استعداداً لبدء القتال وقف رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم خطيباً في المسلمين وقال :والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً، مقبلا غير مدبر إلا أدخله اللـه الجنة وهنا ظهر مثال حي للإيمان العميق فقد كان العمير بن الحمام –أحد جنود المسلمين –يهم في أكل تمرات كانت بيده، لكنه بعد سماع ذلك قال بخ بخ فما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء وهجم على المشركين وقاتل حتى أسلم الروح لبارئها.

عاد الرسول صلى اللـه عليه وسلم وبعد ذلك لمقر قيادته لإدارة المعركة وقال: اللـهم أنجز لي ما وعدتني، اللـهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لن تعبد في الأرض.

أما أبو جهل قبّحه اللـه فقد وقف يستحث قومه للقتال وقال: اللـهم اقطعنا للرجم وآتينا بما لا نعرف فأحنه الغداة (أي جعل حينه غدا).

سير القتال:

بدأت المعركة صباح يوم الجمعة 17رمضان سنة 2هـ الموافق 15كانون ثاني سنة 624م، وكان أول وقودها المشرك الأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي قدّم لهدم حوض ماء المسلمين فبرز من بين الصفوف ووجهته الحوض فتلقفه حمزة بن عبد المطلب وعاجله بضربة من سيفه قضت عليه.

بعد ذلك انبرى ثلاثة من صناديد قريش ومن عائلة واحدة وهم :شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابنه الوليد وكلهم من أبناء عبد مناف جد الرسول صلى اللـه عليه وسلم فسارع بالخروج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار إلا أن الكفرة الثلاثة أصروا على مبارزة ثلاثة من المهاجرين أندادا لهم، فأمر الرسول صلى اللـه عليه وسلم حمزة وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب وكلهم من أبناء عبد مناف، فخرج هؤلاء في الحال ونشب الصراع بينهم أزوجاً علي والوليد، وعبيدة وشيبة، وحمزة وعتبة،

وسرعان ما قضى حمزة وعلي على خصميهما، أما عبيدة وخصمه فقد تبادلا ضربتين مميتتين، أخلي عبيدة بعدها إلى معسكر المسلمين من قبل حمزة وعلي وما لبث أن فارق الحياة وعاد إلى جوار ربه.

استشاط المشركون غضبا لمقتل ثلاثة من خيرة قادتهم وشدوا على المسلمين شدة واحدة بعد أن مهدوا لهجوم برشق منهمر من السهام، تلقى المسلمون هجوم المشركون وهم مرابطون في مواقعهم كما أمر قائدهم الأعلى وأمطروا المهاجمين بسهامهم الصائبة على حشود العدو وألحقوا بهم خسائر جسيمة، تكررت هجمات المشركين مرات وفي كل مرة تتلقفهم سهام المسلمين حتى استنفذ العدو قوته وامتصتها بسالة المرابطين.

بعد أن فترت حدة هجمات المشركين أصدر الرسول صلى الـلـه عليه وسلم أمره ببدء الهجوم الإسلامي المعاكس الذي بدأ بعنف وتصميم، وبينما كانت المعركة محتدمة والمقاتلون يتلظون بنارها كان الرسول صلى الـلـه عليه وسلم يرقب بسالة جنوده في إشفاق ورجاء، وما هي إلا لحظات حتى التحم وحرسه بالمعركة وكان في مقدمتهم يثب وثبا وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ثم أخذ حفنة من الحصباء ورشق بها الكفار ويقول شاهت الوجوه وأمر رجاله بالانقضاض على الأعداء وهم يصيحون أحد ...أحد إيمانا بوحدانية الـلـه وجبروته وقوته، كما أن هذا القول كان كلمة التعارف بين المسلمين.

وجه المسلمون جل اهتمامهم إلى سادات قريش وقادتها يريدون استئصالهم فقتل منهم عتبة بن الوليد وأخوه وابنه وأميه بن خلف وغيرهم فاختلت صفوفهم وكسرت شوكتهم ودب الفزع بين صفوفهم بفعل ضرب جند الـلـه ولم يلبثوا أن بدأوا الهزيمة بذعر وفوضى تاركين قتلاهم ومعداتهم طالبين النجاة لأنفسهم، وهي صفات ملازمة لجند الشيطان الذين لا تربطهم رابطة العقيدة القوية بل مصالح مادية دنيوية سرعان ما يطمس بريقها عند رؤية الأهوال والموت الزؤام.

أما زعيم المشركين أبو جهل فقد بقي مصراً على مكابرته وعناده يقاتل بشراسة وشجاعة نادرتين محاولا وزمرة من أتباعه الصمود وإرجاع من انهزم من جنده وكان ابنه عكرمة ملازماً له، وعندما اشتدت العاصفة من حوله أخذ حرسه يذودون عنه ويضربون من حوله سياجاً واقياً من الرماح والسيوف إلى أن شرّف الـلـه معاذ بن عمير الأنصاري بقتل عدو الـلـه وعدو محمد صلى الـلـه عليه وسلم بأن وجه له ضربة بترت ساقه فخر صريعا يتخبط بدمه يصارع الموت، لكن عكرمة ولده وجه ضربة إلى معاذ بترت يده فظل الشهيد يقاتل بيد واحدة حتى لحق بالرفيق الأعلى .تلقى أبو جهل وهو يعاني سكرات الموت ضربة ثانية من معوذ بن عفراء وأخيراً مر به عبد الـلـه بن مسعود فوضع رجله على عنقه.

وقال له :أخزاك الـلـه يا عدو الـلـه فأجابه أبو جهل وهو في آخر رمق من حياته لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم وما هي إلا بعض اللحظات حتى فارق الحياة إلى جهنم مثوى المتكبرين، فاحتز عبد الـلـه بن مسعود رأس أبي جهل وأخذه بين يدي الرسول صلى الـلـه عليه وسلم مبينا أن عمله ذلك هو لله وحده وليس لانتقام شخصي.

بعد موت أبي جهل تفرّق المشركون منهزمين لا يلوون على شيء .وبدأت مطاردة المسلمين لفلولهم وأخذوا يجمعون الغنائم والأسرى مع مساء ذلك اليوم .وهكذا دارت الدائرة على المشركين وجنت قريش ثمار حماقة زعيمهم أبي جهل ورعونته حيث هزيمة لم تعرف مثلها في تاريخها الطويل فتشتت فلولهم وتاهوا في الوديان والوهاد فراراً بأرواحهم، تاركين قتلاهم وأسراهم تحت رحمة المسلمين رغم كثرتهم وقلة المسلمين حتى بعد انتهاء المعركة.

نماذج نادرة:

أظهرت معركة بدر الكبرى نماذج من المواقف قلما كان لها مثيل في تاريخ الأمم دلّت على قوة عقيدة الإسلام في نفوس أولئك الرهط الصالح من أصحاب محمد صلى الـلـه عليه وسلم، دلّت على صدق تلك العقيدة الإلهية التي أرادها الـلـه لهذه الأمة.

من تلك أن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة دعا أباه عتبة للمبارزة في بدء معركة بدر .كذلك عمر بن الخطاب الذي قاتل خاله العاصي بن هشام، ثم أن أبا بكر طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن الذي كان آنذاك في جيش المشركين .الـلـه ...الـلـه، إلا أن رابطة الدين لأقوى من أية رابطة عرقية أو عنصرية أو مذهبية .لقد رسم يوم بدر أروع نموذج حي للثبات الصادق على العقيدة وآخى الإسلام بين الأبعدين وباعد الكفر بين الأِشقاء والأقربين.

كان المثل الأعلى لأولئك الأبطال قائدهم ونبيهم محمد صلى الـلـه عليه وسلم فقد ضمت بدر عدداً كبيراً من أهله وأقربائه وعلى رأسهم عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان على رأس الأسرى السبعين الذين اقتادهم جيش المسلمين مكبلين إلى يثرب معقل الإسلام الأول وقاعدة انطلاق.

نتائج المعركة:

هكذا انتهت معركة بدر التي خاضها المسلمون على غير استعداد غير عالمين بالجيش المكي الذي حشد للقضاء على كلمة الـلـه، انتهت بنصر مبين وهزيمة ساحقة لأعداء الدين.فقد خسر المشركون سبعين قتيلا بينهم أكثر من عشرين من قادتهم وزعمائهم، كما وقع في أسر المسلمين سبعين آخرين بينهم كثير من الزعماء والقادة .ولقد كان لعلي كرم الـلـه وجهه حصة الأٍسد في القتلى إذ قتل ما يقارب الثلاثة عشر كافراً عدا عما ساهم في قتلهم مع الآخرين.

أما المسلمون فكانت خسائرهم أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

كان للانتصار الحاسم الذي أحـرزه المسـلمون رغـم قلّـتهم آثـاراً بعيـدة مهـدت الطريق أمام حركة العقيدة الإلهية أن تتخذ طريقهـا في التوسـع والانتشـار، وأصـبح المسلمون في موقف كله مهابة ورهبة مـن قبـل القبائـل العربيـة عـلى امتـداد شـبه

جزيرتهم، وبذلك قوي موقفهم الديني والسياسي والعسكري والاقتصادي كما أن نتيجة خسارة قريش أتت أكلها وبالاً على معقل الكفر والإلحاد.

الدروس المستفادة:

هناك دروس كثيرة يمكن استخلاصها من هذه الغزوة أهمها:

أ–الروح المعنوية :للروح المعنوية العالية على مرّ الدهور أوفر نصيب في تقرير مصير المعركة بالإضافة إلى توفير أسباب النجاح الأخرى .لقد كانت الروح المعنوية في صفوف المسلمين في أعلى درجاتها وذلك لتمكن مبادئ الرسالة السماوية من قلوبهم وإيمانهم بأن مأواهم الجنة إن استشهدوا ونصيبهم العزة والسؤدد إن نجحوا.

كان المسلمون يشعرون نفس الشعور فقد ساوى بينهم الإسلام فلا سيد ولا مسود ولا غني ولا فقير فكأنهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، يداً واحدةً وقلباً واحداً على أعدائهم، الجهاد عندهم قمة الإيمان والتخاذل أدنى درجات الخسة .فكان أحدهم يقاتل بأقصى طاقاته لا يدخر جهدا ولا يهاب موتا، جهده جزءاً من طاقة المسلمين عليه ألا يدخره وإلا أثرت على تلك الطاقة الجماعية .ومن ناحية أخرى نجد أن الشجاعة والإقدام لم تنقص القرشيين بل كانوا محاربين أشداء كأفراد يعتبرون الشجاعة قمة الرجولة إلا أن جهدهم المشترك ضائع لعدم وضوح الهدف أو الطريق أمامهم لقد كانوا يقاتلون لعرض الدنيا وليس في سبيل الـلـه خالقهم.

ب–الهدف :وضوح الهدف والإيمان به يعتبر أحد المبادئ الأساسية للحرب .لقد كان هدف المسلمين نشر الدعوة الإسلامية وما التعرّض لقافلة القرشيين إلا وسيلة اتخذها الرسول صلى الـلـه عليه وسلم لإضعاف معاقل الشرك وتقوية قواعد الدعوة الحقة .أما قريش فكان هدفها حماية تجارتها، وما أن استطاع أبو سفيان من إنقاذ القافلة حتى بطل ذلك الهدف فتفرّقت كلمتهم وانقسمت صفوفهم ومثال آخر، موقف الأخنس بن شريق الثقفي في بدر وغيره الذين شاركوا بالقتال مكرهين وخاصة بنو هاشم.

ج–القيادة :كان المسلمين يأتمرون بأمرة رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ذلك الإنسان المرسل إليهم قائداً روحياً ودنيوياً عرفوا فيه الشجاعة والصدق والأمانة والتواضع –يبرز هذا في تعاقبه لركوب الجمل مع صاحبيه –عرفوا فيه الأب الحاني والمعلم الدؤوب والمرشد إلى الطريق السوي، البعيد عن الشبهات، العدل المستقيم، أما جيش قريش فكان متعدد القيادات ولم يتصف قائدهم أبو جهل بأية صفة من صفات رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم باستثناء شجاعته وهذه ليست كافية في مثل تلك المواقف.

د–المفاجئة :يعتبر عامل المفاجئة من العوامل الهامة في كسب نتيجة القتال وهي إما مفاجئة بالزمان أو المكان أو مفاجئة بالتسليح أو مفاجئة بالتكتيك .كانت المفاجئة في هذه المعركة في التكتيك الذي اتبعه الرسول صلى اللـه عليه وسلم وتجلى ذلك بانفتاح قواته في أثناء التقدّم من المدينة حتى بدر إذ أمنّ الحماية الأمامية والخلفية ووضع جسم قوته الرئيسة في الوسط للاحتفاظ به سليماً حتى موعد المعركة وليتسنى له الوقت الكافي للانفتاح دون تدخل العدو لخوض المعركة .كما أن انفتاح القوة الإسلامية في موقعها الدافعي في بدر بشكل صفوف متراصة متتالية شكَّلَ عمقا للخلف أدى إلى امتصاص زخم هجمات قريش تدريجياً وإيقاع خسائر كبيرة قبل الالتحام الأخير كما أن هذا الأسلوب يؤمن للقائد احتياطاً جاهزاً تحت تصرفه عند الحاجة وهو صالح للدفاع كما للهجوم .ولا يختلف هذا التكتيك جوهرياً سواء أسلوب الانفتاح في التقدّم أو الدفاع عن الأٍساليب المتطوّرة في العصور اللاحقة وحتى يومنا هذا.

هـ الطاعة والنظام :يعتبر هذان العاملين أهم دعامتين للجندية الحقـة، وقـد بـرز جـودة هـذين العاملين في صفوف المسلمين عندما أمرهم الرسول الكريم صلى اللـه عليه وسلم بعد انفتاحهم للدفاع لاتخاذ موقف الدافع ورشق الموجات المقتحمة بالسهام لكسر حدة الهجوم وألا يتحركـوا حركـة أخـرى إلا بـأمر قائـدهم وهـذا مـا تـم فعـلاً فقـد بقـوا محـافظين عـلى الأوامـر واسـتمروا مـدافعين حتـى أزفت اللحظة الحاسـمة وتحولـوا إلى الهجـوم المعـاكس وشـلوا فعاليـات العـدو وترابطـه ثـم تحولـوا

بعدها للمطاردة كل ذلك بأمر قائدهم الذي يرى ويقدر غير ما يرى الجند ويقدرون جهداً موحداً موقوتاً بإتقان متزن حتى أتى ذلك أُكله من نصر مبين.

و–التخطيط المشترك السليم :لم ينفرد الرسول صلى الـلـه عليه وسلم بالقرارات لوحده بل كان يتوصل للقرارات الأخيرة بعد الاستماع إلى مشورة هيئة ركنه ومن أبرز الأمثلة على ذلك ..مشورة الحباب بن المنذر بضرورة الانتقال إلى أدنى بئر من مواقع قريش وتدمير بقية الآبار لحرمان العدو من مطلب أساسي في الدعم الإداري، كذلك مشورة سعد بن معاذ بإقامة مقر قيادة ثابت يسيطر على أرض المعركة ليتسنى للرسول صلى الـلـه عليه وسلم إدارة المعركة منه الشيء الذي يصبح صعباً لو أن الرسول التحم بالمعركة بين المقاتلين منذ البداية .كذلك طلب الرسول المشورة من المهاجرين ثم الأنصار عن رأيهم في خوض المعركة عندما علموا لأول مرة وبعد خروجهم من المدينة عن حشد مكة بقوة كبيرة ولم يشأ أن ينفرد بالقرار حتى في إقرار المعركة وخوض غمارها.

غزوة أحد

فرح أهل مكة بوصول قافلتهم التجارية من فلسطين سالمة والتي كانت محفوفة بالمخاطر خلال الأيام الأخيرة من رحلتها على الطريق الساحلي الغربي للجزيرة العربية، وخاصة بالقرب من المدينة معقل العقيدة الإسلامية الجديدة وبعد أن شارفت على السقوط بأيدي المسلمين غنيمة دسمة.

يعود الفضل في إنقاذ تلك القافلة إلى مهارة أبي سفيان القيادية الذي كان على رأسها .كانت القافلة مؤلفة من 1000جمل تحمل من البضائع ما قيمتها 50ألف دينار، تعود كلها إلى عدد كبير من أهالي مكة الذين كانوا ينتظرونها على أحر من الجمر، كان ذلك في شهر آذار من عام 624ميلادية.

كان أبو سفيان قد أرسل إلى قريش يطلب تعزيزات عسكرية، لحماية القافلة عندما استشعر خطر المسلمين للاستيلاء على قافلتهم، إلا أنه وبعد أن أنقذها بسلام أرسل رسولاً لإعادة جيش التعزيزات إلى مكة، لكن أبا جهل الذي كان يقود تلك القوة لم يشأ أن يفقد الفرصة، بعد أن عانى خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مرارة فشله في معارضة ومحاربة الرسول الجديد صلى اللـه عليه وسلم.

فبدلا من العودة توجه أبو جهل متهوراً لخوض معركة مع المسلمين هي معركة بدر أول صدام كبير بين المسلمين وقريش، فكانت نتائجها وبالاً على الكفار وانتصاراً باهراً للمسلمين.

عاد جيش المشركين إلى مكة يرفل بأثواب الهزيمة والعار، وقبل دخوله مكة انفرد منه رسول يحث السير سريعاً، وحال دخوله ضواحي مكة أخذ يصيح وينعى القتلى والأسرى الذين سقطوا بأيدي المسلمين، فتجمع حوله عدد من أهالي مكة

وكان من بينهم أبو سفيان وزوجته هند .استمعت هند إلى النذير وقلبها يتمزق ألما على قتل أعزاء على قلبها، أخبرها النذير عن قتل أبيها عتبة على يد علي وحمزة، ومقتل عمها شيبة على يدي حمزة، ومقتل أخيها الوليد على يدي علي ومقتل ابنها حنظلة على يدي علي.

خلال معركة بدر استطاع المسلمون وعددهم ((313مقاتلاً الوقوف كصخرة عاتية تحطمت عليها قوة المشركين وعددهم ((1000مقاتل .أسفرت تلك المعركة، عن قتل ((70من الكفار وأسر ((70آخرين، وكان ثمن ذلك ((14شهيداً من المسلمين .من بين قتلى المشركين كان هناك ((17من بيني مخزوم معظمهم أبناء عمومة خالد بن الوليد .كما أن قائد المشركين أبا جهل من بين القتلى في تلك المعركة.

عندما كان النذير يعلن الخسائر لاحظ القرشيون مقدار ما أبلى علي في المعركة حيث وصل نصيبه من القتلى إلى ((18وشارك مع حمزة في قتل ((4آخرين أما حمزة فجندل وحده وشارك مع علي في قتل الأربعة الآخرين.

دعى أبو سفيان إلى اجتماع لقادة قريش، ولم يكن من بينهم من لم يفقد قريب له في معركة بدر .فمنهم من فقد أباه وأخاه أو ابنه أو ابن عم له، وكانوا في حالة هستيرية من الحقد والضغينة للأخذ بالثأر من المسلمين، ومن بينهم أشدهم حقداً، كان عكرمة بن أبي جهل الذي فقد أباه، والذي أصرَّ على الإسراع بأخذ الثأر نظراً لأن أباه كان قائداً لقريش في معركة بدر التي كانت وبالاً عليهم، مما زاد في شدة حقده على المسلمين .اتفق الجمع على تجريد حملة انتقامية ضد الرسول محمد (صلى اللـه عليه وسلم) وصحبه في المدينة، لم يسبق أن حشد مثلها في مكة، وقد خصص دخل تلك القافلة التجارية ومقداره ((50ألف دينار، لتمويل تلك الحملة، والتي دعي للاشتراك بها بالإضافة إلى أهل مكة، رجال القبائل المحيطة بها .اختير أبو سفيان بالإجماع ليكون قائداً لتلك الحملة.

حالما تسلم أبو سفيان المسؤولية، اتخذ قرارين، الأول منع البكاء والعويل على المفقودين في معركة بدر، وذلك للإبقاء على الحقد والضغينة في نفوس قريش لاعتقاده بأن البكاء يقضي على مرارة المصاب، والقرار الثاني كان يتعلق بالأٍسرى القريشيين الذين سقطوا بيد المسلمين.

أعلن أبو سفيان في هذا المجال، منعه لأي جهود لاستعادة أولئك الأٍسرى، خوفاً من طمع المسلمين في رفع قيمة الفدية عنهم .مع ذلك لم يتبع هذا الأمر من قبل الجميع، إذ سرعان ما ذهب عدد من القريشيين إلى المدينة لإطلاق سراح عزيزه أو قريبه، ولم يبق أمام أبو سفيان إلا الرضوخ للأمر الواقع .كانت الفدية متفاوتة حيث تراوحت بين ((4آلاف درهم حتى (ألف) درهم حسب مقدرة أهل الأسير المادية، أما الأسرى الفقراء والذين لم يكن لديهم ما يفتدونه بأنفسهم، فقد حصلوا على حريتهم، بتعليم عدد من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وأما الأميون منهم فأطلق الرسول صلى اللـه عليه وسلم سراحهم بعد مدة وبعد أن أخذ عليهم عهدا بعدم حمل السلاح في وجهة المسلمين مرة أخرى([1]).

من بين من ذهب لافتداء أقاربه كان خالد بن الوليد، الذي لم يشارك في بدر لغيابه عن الحجاز حينئذ وأخوه هشام، لافتداء أخيهما الثالث الوليد وقد تردد هشام في دفع ((4آلاف درهم، إلا أن خالداً دفع المبلغ وعاد الجميع بعد أن أخلدوا إلى النوم تسلل الوليد عائداً إلى المدينة وأعلن إسلامه، وأصبح فيما بعد مسلما حقا مما قرّبه كثيراً من قبل الرسول صلى اللـه عليه وسلم، ورغم ذلك ظلت العلاقات الأخوية جيدة بين الوليد وخالد قبل إسلام الأخير.

هناك سبب آخر، لتجريد القريشيين الحملة ضد المسلمين ذلك هو البقاء الاقتصادي، إذ أن الطريق الرئيسي لقوافل قريش المتجهة إلى سوريا وفلسطين تسير

[1]الواقدي: المغازي، صفحة 156-157.

على الساحل الغربي للجزيرة العربية وبعد معركة بدر، وازدياد قوة المسلمين أصبحت هذه الطريق محفوفة بالمخاطر.

في شهر تشرين ثاني من ذلك العام أرسل صفوان بن أمية قافلة تجارية إلى سوريا عبر طريق آخر اعتقاداً منه بأمان ذلك الطريق وهو يمتد بين مكة والعراق مباشرة ويمر شرقي المدينة .علم الرسول صلى الـلـه عليه وسلم بأمر تلك القافلة فأرسل قوة قوامها ((100رجل بقيادة زيد بن حارثة وسرعان ما عاد هذا غانماً القافلة بأكملها.

تدارس كل من صفوان وأبي سفيان الأمر، وتوصلوا إلى قرار مهاجمة المسلمين بأسرع ما يمكن .ذلك أن معيشتهم ورفاههم يتوقفان كلية على تجارتهم مع سوريا، ولم يكن عكرمة بأكثر منهم صبراً، الذي أخذ يحث أبا سفيان بالإسراع في قتال المسلمين .إلا أن أبا سفيان كقائد حكيم ولعلمه بأن ذلك يتطلب وقتاً كافياً، للتحضير للقتال من شراء للسلاح، وللخيول وللإبل ومن تجهيز للحملة ككل طمأنه ووعده بأن سيعمل أقصى جهده في هذا المجال.

بينما كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق في مكة للتحضير للقتال، وصل أحد المشركين من المدينة، هو أبو عامر الأوسي .كان موقف هذا المشرك عدائيا ضد الرسول صلى الـلـه عليه وسلم منذ هجرته إلى المدينة، ومما زاد في حقده، السرعة التي كانت يتم فيها احتضان قبيلته –الأوس –للإسلام .كان أبو عامر يدعي الناسك بين أهل المدينة، إلا أن الرسول صلى الـلـه عليه وسلم خلع عليه لقب أبو عامر المنافق، والذي عرف به فيما بعد .عرض أبو عامر خدماته على أبي سفيان، وكان معه خمسين رجلا من اتباعه .وطلب من أبي سفيان أن يسمح له بمخاطبة قبيلته –الأوس –قبل القتال، علّه يكسبهم إلى جانب المشركين، ولا شك أن هذا إذا تم، سيقلب الموازين في صالحهم، إذ يشكل رجالا الأوس، ثلث قوة الجيش الإسلامي، وهي أحدى أكبر وأهم قبيلتين في المدينة كما هو معروف .طرب أبو سفيان عند سماعه لأقوال أبي عامر ووعده بتلبية طلبه في حينه.

بدأت المفاوضات لحشد المقاتلين بين معظم القبائل المكيّة، وأخذ المحاربون يتواردون إلى مكة من كنانة وثقيف وغيرهما .وبدأت القوات تحتشد على ذلك النحو في بداية شهر آذار عام 625م .كانت الأخبار تتوارد تباعا إلى النبي صلى الـلـه عليه وسلم، ومن قبل عمه العباس، الذي ما زال حتى ذلك الوقت يقطن مكة.

وفي الأسبوع الثاني من آذار، بدأ الجيش القرشي حركته من مكة وكان قوامه ((3000مقاتل من بينهم ((700مقاتل مدرع، واحتوى على ((3آلاف جمل و((200حصان رافق هذا الجيش ((15امرأة قرشية، بهدف رفع معنويات المقاتلين، وتذكيرهم بمن سقطوا في بدر .كانت هند زوجة أبي سفيان –على رأس هذه المجموعة كزعيمة عليهن وكان من بين النسوة، زوجة عكرمة بن أبي جهل زوجة عمر بن العاص وأخت خالد بن الوليد وعمرة بنت علقمة[1]().

بينما كانت القافلة تسير باتجاه المدينة، نادى جبير بن معتم –أحد قادة قريش –عبده المدعو وحشي بن حرب والملقب بالمتوحش ووعده بمنحه حريته، إن قتل حمزة عم الرسول صلى الـلـه عليه وسلم، والذي قتل عم جبير في بدر .فرح وحشي لسماعه ذلك، وقد اشتهر بقوته البدنية، وسلاحه الذي لا يفارقه –الرمح –والذي يتقن استخدامه بمهارة فائقه .سمعت هند زوجة أبي سفيان ذلك، فاقتربت من المتوحش ووعدته بجميع حليها التي لبستها ذلك اليوم، إن هو قتل حمزة قاتل أبيها.

كان النبي الكريم صلى الـلـه عليه وسلم قد أنذر، من قبل عمه العباس، عن تحضيرات قريش كما مر معنا، كذلك كانت تصله الأخبار تباعاً عن سير الجيش، من قبل القبائل الصديقة في 20آذار وصل جيش المشركين إلى المدينة، وخيّم في منطقة مشجرة، تقع غربي جبل أحد، وعلى بعد أميال قليلة من المدينة .أرسل النبي صلى الـلـه

[1] ابن هشام، الجزء الثاني، صفحة 67.

عليه وسلم دورية استطلاع إلى ذلك المكان، وعادت بمعلومات دقيقة عن قوة الأعداء عدداً ونوعاً.

في يوم 21آذار، غادر الرسول صلى اللـه عليه وسلم المدينة على رأس ((1000مقاتل من بينهم ((100مدرع .وكان الجيش الإسلامي يملك حصانين، أحدهما امتطاه الرسول صلى اللـه عليه وسلم.

عسكروا ليلتهم بالقرب من تل صغير يسمى شيخين يزيد قليلا من الميل مسافة شمال المدينة.

وفي صباح اليوم التالي، وقبل بدء استمرار المسير، قام المنافقون بالانسحاب من جيشه وعددهم ((300بقيادة عبد اللـه بن سلول بحجة أن قتال قريش خارج المدينة سيؤدي على الفشل الذريع ولذلك سوف لن يشتركوا بقتال مصيره الفشل منذ البداية وعادوا إلى المدينة، وهكذا ترك الرسول صلى اللـه عليه وسلم ومعه ((700مقاتل فقط .والحقيقة أن الرسول صلى اللـه عليه وسلم لم ينو قتال المشركين خارج المدينة، بل كان رأيه أن ينتظر المشركين في المدينة، إلا أن معظم الآراء أجمعت على أن الأفضل للمسلمين هو مقابلة المشركين في العراء .وهكذا –رضخ الرسول صلى اللـه عليه وسلم إلى الرأي السائد وخرج وفي نيته مع ذلك، قتال المشركين في أرض يختارها هو وليس أعداؤه، واختار سفح جبل أحد ونشر قواته عليه لدحر المعتدين.

يقع جبل أحد على مسافة ((4أميال شمالي المدينة، وهو جبل كبير يرتفع ((1000قدم عن السهل المحيط به .يبلغ طول الجبل ((5أميال، وينتهي في طرفه الغربي بمقطع صخري حاد .على يمين هذا المقطع وبالنظر إليه من المدينة، هناك واد يرتفع تدريجيا نحو الشمال والشرق حتى يصل إلى مضيق، يبعد عن المقطع الصخري، مسافة ((1000ياردة .فتح الرسول صلى اللـه عليه وسلم قواته على فم ذلك الوادي وفي أسفل المقطع الصخري، وترك الوادي مفتوحاً خلفه.

نظم النبي الكريم صلى اللـه عليه وسلم جيشه بتشكيلة متراصة وبجبهة طولها ((1000ياردة، وأسند جناحه الأيمن على أسفل المقطع الصخري، وجناحة الأيسر

على تل صغير، يرتفع (40) قدماً عن السهل المحيط ويمتد طولا مسافة (500) قدم، ويدعي هذا التل باسم (عينين) وهكذا فإن ميمنة المسلمين كانت في أمان، أما ميسرتهم فكانت مفتوحة.

لمعالجة هذا الخلل، وضع الرسول صلى الـله عليه وسلم (50) من حملة الأقواس على تل عينين للسيطرة على المقتربين اللذين يهددون مؤخرة المسلمين، واللذين يمكن أن يسلكهما جيش قريش خلال القتال، أمرت هذه القوة والتي كانت بقيادة عبد الـله بن جبير، أمرت من قبل الرسول صلى الـله عليه وسلم بما يلي وجهوا سهامكم ضد فرسان الأعداء، أبعدوا الفرسان عن مؤخرتنا .ستبقى مؤخرتنا في مأمن طالما حافظتم على مكانكم هذا .يجب ألا تغادروه مهما كانت الظروف، إن رأيتمونا نربح القتال، لا تنضموا إلينا وإن رأيتمونا نخسر، لا تهبطوا لمساعدتنا وهكذا كانت الأوامر دقيقة وواضحة ومحددة .ولأن تل عينين يعتبر معلماً تعبوياً هاماً يسيطر على المناطق المحيطة به، كان لزما على تلك القوة أن تمنع سقوطه في أيدي قريش مهما كان الثمن.

كان يقف خلف جيش المسلمين (14) امرأة، من بينهم فاطمة ابنة رسول الـله صلى الـله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب .كان العمل المخصص لهؤلاء النسوة هو، معالجة الجرحى ونقلهم إلى الخلف وإرواء ظمأ المقاتلين.

انتخب الرسول صلى الـله عليه وسلم موقعه على الميسره، وهكذا كان انفتاح جيش المسلمين مصمم لخوض معركة ثابتة وجبهوية لمقابلة تفوق المرونة في جيش الأعداء –ولاستغلال أسباب القوة بين صفهوفهم –الشجاعة ومهارة القتال.

كان أبو سفيان يفضل خوض معركة متحركة لاستغلال تفوقه العددي وتفوقه بعنصر الفرسان، وهكذا خيّب الرسول صلى الـله عليه وسلم فاله، وأجبره على خوض معركة تناسب المسلمين أكثر، ومن الجدير بالملاحظة هنا أن المسلمين في انفتاحهم ذلك كانوا يواجهون المدينة مسندين ظهرهم على جبل أحد .ذلك لعدم توفر أرض ملائمة لذلك الانفتاح أفضل من جبل أحد.

أما انفتاح المشركين فقد نظم أبو سفيان جيشه للقتال على النحو التالي :كان معسكرهم الرئيسي يبعد مسافة ميل جنوب المقطع الصخري لأحد .ووضع مشاته في القلب والفرسان على الجناحين كقوتين متحركتين .عيّن خالداً قائداً للميمنة وعكرمة قائداً للميسرة على رأس ((100فارس لكل منهما، وعيّن عمرو بن العاص قائداً على قوة الفرسان كاملة كمنسق لمناورة الجناحين .أفرز أبو سفيان ((100حامل قوس، أمام الصف الأمامي لمشاته للاشتباك الأولي .كان يحمل رأيه قريش طلحة بن أبي طلحة أحد الناجين من بدر .وهكذا كان انفتاح قريش مواجهين إلى أحد وقد تركوا المدينة خلفهم –قاعدة المسلمين التي كانت معزولة عنهم.

بزغ نهار اليوم الثاني والعشرين من آذار عام (7 625 شوال عام 3هـ) بعد سنة وأسبوع من واقعة بدر –بزغ نهار ذلك اليوم، وقد اصطف الجيشان متقابلين، ينتظران بدأ القتال، (700م)سلم مقابل 3000 كافر .وهي المرة الأولى التي يقود أبو سفيان بها قوة بهذا الحجم ضد محمد رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم، وقد بدأ عليه الزهو والثقة بالنصر للتفوّق الساحق في صالحه لوجود قادة قادرين على رؤوس وحداته.

كان الحدث الأول الذي بدأ ذلك اليوم، هو ظهور المنافق ودعوته لقبيلته –الأوس –لترك النبي صلى الـلـه عليه وسلم والانضمام إليه، وقد أحاط به أتباعه الخمسون، وكان الجواب الذي تلقاه من الأوس هو، خسئت أيها المنافق وصحبك فهربوا إلى داخل صفوف قريش.

نشب القتال بين الطرفين بتبادل رشقات السهام، التي تشمل القصف المدفعي التمهيدي قبل القتال بين الرماة القرشيين المائة، ورماة المسلمين المتواجدين على تل عينين، أو المنتشرين في الصف الأمامي المسلم .وتحت ستر سهام الإسناد تقدم خالد

مهاجما جناح المسلمين الأيسر، لكنه اضطر للتراجع تحت تأثير رشقات السهام رماة المسلمين[1].

بعد أنت انتهت مرحلة التراشق بالسهام، بدأت المرحلة التالية من القتال، تلك كانت مرحلة المبارزة بين أبطال الجانبين المتحاربين .تقدم حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة متحدياً محاربي المسلمين، وسرعان ما برز له علي بن أبي طالب، الذي وجه إليه ضربة بالسيف قاصمة، جندلته أرضا يعاني آلام جراحه، فأراد علي أن يجهز عليه، إلا أنه عدل نتيجة توسُّل طلحة إليه بالإبقاء على حياته، فتركه علي وعاد .في تلك الأثناء كان المتوحش يرقب حمزة ويميّزه من خلف صفوف قريش، وقد سهل عليه التمييز لأن حمزة كان يرتدي[2] عمامه مزينة بريشة نعام .وبدأ بالتحرك خلسة إلى اليمين ليفاجئ حمزة من الجنب.

استمرت المبارزة وأخذ يزداد عدد المشتركين بها، وقد حاول عدد من أقارب طلحة ضم الراية، إلا أنهم كانوا يتساقطون تباعاً بفعل بتار علي .تقدم أبو سفيان للمبارزة فتصدى له حنظلة بن أبي عامر، الذي كان راجلاً فوجه حنظلة ضربته على أقدام راحلة أبي سفيان وأسقطه أرضا مما جعل أحد الكفار يتقدّم مسرعا لإنقاذه، فوجه هذا ضربة قاتلة إلى حنظلة الذي ارتقى شهيداً يتخبط بدماء الشهادة.

تقدّم أحد فرسان قريش متخطياً الصفوف الأمامية متحدياً للمبارزة، كان هذا عبد الرحمن بن أبي بكر، فما كان من أبيه –أبي بكر –إلا أن أشهر سيفه للإجهاز عليه، إلا أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منعه من ذلك وقال له أغمد سيفك يا أبا بكر .أبلى عبد الرحمن بن أبي بكر بلاء رائعا فيما بعد كأحد أبراز المحاربين المسلمين في سوريا .سرعان ما اشتد زخم القتال وأصبح قتالاً جماعياً في

---

[1] ابن هشام - الجزء الثاني - صفحة 65-67.

[2] الواقدي - المغازي: صفحة 175.

كل مكان، وقد ظهر تفوّق المسلمين بالشجاعة والمهارة في ضرب السيف إلا أن تفوّق المشركين في العدد والعدة، حدَّ من استثمار تلك الميزتين للمسلمين .حاول خالد للمرة الثانية أن يخترق جناح المسلمين الأيسر إلا انه ردّ على أعقابه أيضاً بتأثير سهل رماة تل عينين .وقد ساهم النبي صلى الله عليه وسلم في استخدام السهام التي كان يطلقها على كتل المشركين، وكان بجانبه سعد بن أبي وقاص، الذي كانت مهنته صناعة السهام وكان من أدق رماتها، وقد أبلى بلاء حسنا في ذلك القتال.

كان حمزة يقاتل المشركين وقد اتخذ موقعه في طرف جيش المسلمين الأيسر كان يقاتل المشركين بشراسة وشجاعة فائقة، وقد أجهز على عدد لا بأس به .شاهد حمزة أحد المشركين ويدعى سابا بن عبد العزى، الذي ارتعدت فرائصه عندما سمع حمزة يناديه باسمه متحديا إياه .بينما كان البطلان يقتتلان بالسيف والدرع، كان المتوحش يزحف متخفياً بين الصخور والشجيرات، حتى صار حمزة ضمن مرمى رمحه .وجه إلى حمزة في تلك اللحظة ضربة مميتة أودت بحياته، في تلك الآونة وجه المتوحش رمحه بضربة صائبة أتت حمزة مقتلا فالتفت حمزة إلى الوراء حيث شاهد المتوحش يقف خلف صخرة، فتقدّم نحوه للإجهاز عليه، إلا أن قواه خارت وسقط شهيداً على درب الجهاد والكفاح الطويل .بعد أن تأكد القاتل من سكون جسد حمزة الطاهر نزع رمحه من جسم فريسته عائداً إلى صوف المشركين، ليقاتل في معارك لاحقة فيما بعد إلا أن حمزة كانت تلك هي آخر معركة، آخر معارك أسد الله ونبيه

استمر القتال عنيفاً، وتساقطت الرؤوس، والتقطت الرايات الساقطة من حامليها من قبل آخرين وتضعضع صف المشركين واستمر ضغط المسلمين وما هي سويعات حتى ولّت قريش الأدبار .وقد تميّز تراجعهم بفوضى عارمة، وتملك قلوب معظم محاربيهم الخوف والهلع، ولم يوقفهم حتى تصدت نسائهم لهم، اللاتي سرعان ما لحقن برجالهن هاربات، ما عدا عمرة التي بقيت ثابتة في مكانها.

وصل المسلمون إلى معسكر قريش وبدأ الجند يجمعون الغنائم والأسلاب وعمت الفوضى الصفوف وفقدت السيطرة والانضباطية، وانهمك الجميع في جمع الغنائم، كان الخسائر خفيفة إلى حد ما وكان من الممكن أن تكون تلك نهاية معركة أحد إلا أنها للأسف لم تكن.

لقد ثبت خالد وعكرمه على جناحي قريش رغم تقهقرها المبدئي، وحالما دبت الفوضى في ساحة المعركة، شاهدا مشاة قريش وهم منهزمون بفوضى عامة، وجيش المسلمين منهمك في جميع الأسلاب، بعد مطاردتهم لقريش ووصولهم إلى المعسكر استغل خالد وعكرمة، ذلك الموقف الذي يتمّيز بالفوضى في الجانبين المتحاربين وقد شدوا من سيطرتهما على فرسانهما وبقيا ينتظران اللحظة الحرجة للتدخّل ولم يبق أمامهما إلا الصبر، وسرعان ما أتى هذا أكله .ذلك أن رماة المسلمين في جمع الغنائم والأسلاب، لم يستطيعوا مقاومة الطمع، في المساهمة في نهب معسكر قريش، فطلبوا من قائدهم أن ينطلقوا الجمع الأسلاب فرفض عبد اللـه مطالبهم وذكرهم بأوامر الرسول صلى اللـه عليه وسلم إلا أن ذلك لم يحل دون ذهاب معظمهم، ولم يبق معه سوى تسعة رماة.

كانت عينا خالد تراقبان ما يجري على التل، فاستغل الموقف وحمل بفرسانه على ما تبقى من رماة المسلمين بهدف احتلال ذلك التل، واتخاذه كقاعدة، ولزيادة مجال مناورة فرسانه خلف صفوف المسلمين .أما عكرمة فلما رأى هجوم خالد سارع وفرسانه في أثره، حتى لحق به أثناء القتال على التل واحتلاله سوية، رغم مقاومة أولئك الشجعان العشرة الذين تقيدوا بأوامر الرسول صلى اللـه عليه وسلم وقائدهم عبد اللـه، بقي عبد اللـه يقاتل حتى سقط من كثرة جروحه، وعندهما تقدم منه عكرمة وأجهز عليه، وضم اسمه إلى سجل الشهداء العطر.

بعد احتلال تل عينين، اتجه خالد وعكرمه على رأسي سريتيهما إلى اليسار لمهاجمة المسلمين من الخلف، واتجه عكرمة على رأس قسم من سريته باتجاه مجموعة من المسلمين تحيط بالنبي الكريم صلى اللـه عليه وسلم، أما خالد فاتجه

على رأس البقية من الفرسان لمهاجمة المسلمين في معسكر قريش، على أمل مباغتتهم وإبادتهم نتيجة للمباغتة وهول الصدمة ولوقوع عدد من الخسائر بين صفوف المسلمين، هرب عدد قليل منهم، أما البقية فقد أعادوا تنظيمهم سريعاً وتصدوا إلى خالد بقوة وحزم، واستمر القتال بينهم سجالا .في تلك الأثناء التقطت عمرة أحدى رايات قريش الملقاة على الأرض وأخذت تلوح بها على أمل أن يراها جيش قريش المنهزم.

استطاع أبو سفيان بعد بعض الوقت، إعادة السيطرة على معظم مشاة قريش وبعد أن شاهد ما حلّ بالمسلمين، ومهاجمتهم من الخلف من قبل فرسانه وكذلك لرؤيته الراية تخفق في ساحة القتال التي رفعتها عمرة، أعادة الكرة بهجوم صاخب، والكل يتنادى بهبل واللآت والعزى فوقع المسلمون بين فكي الرحى، فرسان قريش بقيادة خالد من الشمال ومشاة قريش بقيادة أبي سفيان من الجنوب، أدى هذا الموقف العصيب إلى تفرّق المسلمين على شكل مجموعات منعزلة تقاتل بكل ضراوة وازداد الموقف سوءاً وتجندل وعدد من مقاتلي المسلمين إلا أنهم استمروا في القتال ولم يجد الهلع سبيلا إلى قلوبهم بعد.

انقسمت المعركة في هذه الأثناء إلى قسمين منعزلين، القسم الأول والرئيسي من المسلمين يقاتلون مشاة وفرسان قريش، والثانية مجموعة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تتصدى إلى عكرمة وفرسانه وبعض مشاة قريش الذين عادوا للقتال بعد التغيّر الذي طرأ على الموقف وهنا وقع الرسول صلى الله عليه وسلم في المحنة التي تنتظره.

عندما ترك المسلمون مواقعهم لمطاردة المشركين في البداية، بقي الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس رهط من أصحابه عددهم ((30مقاتلاً، والذين بقوا معه رغم إغراءات الأسلاب والغنائم التي تنتظرهم في معسكر قريش .من بين أولئك الثلاثين كان هناك أقرب الناس إليه، علي وأبو بكر وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وأبو دجانة وموسى بن عمير بالإضافة إلى امرأتين كانتا مشغولتين في الإسقاء والتضميد وقد انضمتا إلى مجموعة النبي تلك بعد المطاردة.

بعد أن سيطّر خالد على تلّة عينين وإبادته للرماة وتوجهه وعكرمة نحو مؤخرة المسلمين، شعر الرسول صلى الله عليه وسلم بحراجة الموقف بالنسبة للمسلمين ولم يكن باستطاعته آنذاك إعادة السيطرة على قواته بسبب تفرقها وتباعدها عنه، كما أنه تحقق من أن مجموعته هو ستكون معرضة للهجوم خلال وقت قصير، وبما أن موقفه في ذلك الوقت كان واهناً، قرر الالتجاء إلى أسفل مقطع صخري يقع خلفه مباشرة (ليس نفس المقطع الذي كان يستند إليه جناح المسلمين في الانفتاح الأول للمعركة).

اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الثلاثون إلى الخلف ولم يقطعوا سوا ((4/1ميل حتى تصدى لهم عكرمة وفرسانه، وحال هؤلاء دون النبي صلى الله عليه وسلم والمقطع الصخري، الذي نوى اللجوء إليه .عندها قرر الرسول صلى الله عليه وسلم التثبت والقتال ضد المشركين، وبعد لحظات انضم إلى عكرمة وفرسانه قوة من مشاة قريش التي عادت إلى أرض المعركة .بعد أن وجدت مجموعة الرسول صلى الله عليه وسلم نفسها محاطة بالأعداء ومعرضة لهجوم جبهوي وخلفي، شكلّت تلك المجموعة، حلقة حول الرسول صلى الله عليه وسلم للدفاع عنه، حتى آخر رمق .أخذ القتال يزداد شدة على مجموعة الرسول صلى الله عليه وسلم، أجبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على استخدام قوسه حتى كسر، ثم أخذ يزود سعد بن أبي وقاص بالسهام المتبقية لديه والذي أبلى بلاء حسنا لمهارته في استخدام القوس.

كانت أول مجموعة كافرة تقترب من الرسول صلى الله عليه وسلم، يقودها عكرمة بن أبي جهل فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً بن أبي طالب بمهاجمتها واستطاع هذا أن يدفع تلك المجموعة للخلف، ويقتل أحد المشركين، تكرر الهجوم من مجموعة أخرى، وهنا أيضاً طلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى علي أن يعالجها وللمرة الثانية يدحرها، ويقتل أحد الكافرين .مع شدة القتال بدأت قريش بإمطار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه بالسهام والحجارة عن بُعد يتبع ذلك هجمات بالسيوف مشاة أو على ظهور الخيل .ولحماية الرسول من تلك القذائف وقف أبو دجانة أمامه مدبراً ظهره باتجاه قريش وفي نفس الوقت كان

يناول سعد السهام لاستخدامها ضد كفار قريش .كذلك وقف طلحة بجانب الرسول صلى الـلـه عليه وسلم، دفاعاً عن روحه الطاهرة، وفي إحدى المرات رأى طلحة سهما يتجه نحو وجه الرسول صلى الـلـه عليه وسلم فتلقاه في كفه وبتر أحد أصابعه، لكنه أنقذ الرسول صلى الـلـه عليه وسلم.

كان خالد في تلك الأثناء، يقوم باقتحام تلوم اقتحام، ضد الجسم الرئيسي للمسلمين، وكان هو نفسه يستخدم رمحه لقتل خصومه وكان كلما وجه نحو أحد يقول خذها من يدي أبي.

استمر القتال وأخذ يزداد عنفاً، حتى تعب الجانبان، وأخذ منهما التعب كل مأخذ فافترقا قليلا حيث ساد بعض الهدوء على ساحة المعركة، في تلك الأثناء لاحظ أحد المسلمين من صحابة رسول الـلـه أن الرسول صلى الـلـه عليه وسلم كان ينظر من فوق كتفه فسأله عن السبب، فأجاب الرسول أنني أتوقع مجيء أُبي من خلف، وما هي إلا لحظات وحتى برز أحد الفرسان من كوكبة عكرمة، ممتطياً جواداً عليه سمة القوة والعنف، واتجه نحو الرسول صلى الـلـه عليه وسلم وقال يا محمد ها أنا جئتك اليوم فأما أنت وأما أنا حاول أصحاب الرسول صلى الـلـه عليه وسلم أن يتصدوا له في معركة قادمة .وهاهي المعركة اشتدت وأزفت لحظة الانتقام وقد قال أُبي حينذاك للرسول صلى الـلـه عليه وسلم سوف أقتلك يا محمد إلا أن الرسول صلى الـلـه عليه وسلم أجابه بأن خاب فألك سوف أقتلك أنا عندها بإذن الـلـه.

تقدم أُبي على ظهر جواده باتجاه الرسول صلى الـلـه عليه وسلم وقد رأى ابتعاد أصحاب الرسول صلى الـلـه عليه وسلم لفتح الطريق أمامه ورأى الرسول الكريم صلى الـلـه عليه وسلم أن ينتظر لقاءه بهامة مرتفعة كلها ثقة واعتزاز وشعر الرجل بالرهبة وإجلال لذلك الرجل الذي أقسم على قتله .كان الرسول صلى الـلـه عليه وسلم يرتدي جلبابين، وخوذه وقد تدلى جانبيها المعدنيين، على جانبي وجهه الكريم صلى الـلـه عليه وسلم وقد استقر سيفه في غمده، إلا أن يده اليمنى كانت تقبض

على حربة وقد لاحظ أُبي قوة وعرض كتفي الرسول وكذلك يديه الكبيرتين القويتين وكان منظر الرسـول صلى اللـه عليه وسلم مرعبا ينم عن فارس جبار وأي فارس .تجدر الإشارة هنـا إلى أن الرسـول الكـريم صلى اللـه عليه وسلم كان أحد أقوى المسلمين في زمانه وأشجعهم .كـان بإمكـان الرسـول صـلى اللــه عليه وسلم أن يدع صحبه يقضون عـلى هـذا المغـرور وتمزيقـه إربـاً، أو كـان بإمكانـه أن يـوعز لعـلي بجملته المشهورة. أقتل ذلك الرجل، إلا أنه هذه المرة رغب أن يعالج الموقف بنفسه، لأن الموقف أملاه تحد شخصي لشرف الرسول صلى اللـه عليه وسلم وفروسيته وهكذا أقبل على قتـال متحديـه كفـارس مسلمٍ همام[1].

أقبل أُبي مزهواً على ظهر جواده حتى أصبح على مسافة قريبة من الرسول صلى اللـه عليه وسلم، وبدأ باستلال سيفه إلا أن ضربة خاطفة بحربة الرسـول صـلى اللــه عليـه وسـلم جندلتـه أرضـاً وقـد أصابت أسفل عنقه، وبسبب سقوطه كسر أحد أضلاعه، هم الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم أن يجهـز عليه إلا أنه نهض سريعاً وولى الأدبار وهو يردد قتلني محمد كـان جـرح أُبي مـن حربـة الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم خفيفا وقد حاول أصحّابه أن يقنعوه بذلك إلا أنه استمر في ترديد ذلك حتى مات في مكان يدعى (صرف) بالقرب من مكة في أثناء عودة قريش بعد معركة أحد.

أصبح الموقف مانعاً، دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، بسبب وقفة المسلمين الجبارة وعـدم ظهـور أي دلائل تشير إلى انهيارهم رغم النكسة التي حلّت بهم .كما أن أبا سـفيان، وخالـداً، رغبـا في التوصـل إلى نتيجة سريعة لأن المعركة طالت أكثر مما يجب، لذلك قررت قريش زيادة الضغط وحزمت أمرهـا على قتل الرسول صلى اللـه عليه وسلم لحسم المعركة .تقـدمت قـوة المشـاة القرشـية القويـة باتجـاه الرسول صلى اللـه عليه وسلم وأخذت تضيق الخناق على حلقة الدفاع عن الرسول صـلى اللــه عليـه وسلم.

---

[1] الواقدي، المغازي، صفحة 225.

وبعد سقوط عدد من شهداء المسلمين استطاع ثلاثة من الكفار اختراق الحلقة ووصلوا إلى مدى رمي الحجارة المؤثرة على الرسول صلى الله عليه وسلم .كان الثلاثة هم عتبة بن أبي وقاص وعبد الله بن شهاب وابن قامية وأخذ هؤلاء يمطرون الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجارة وقد استطاع أولهم أن يسدد ((4ضربات صائبة إلى وجه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم سببت في تكسير سنيين سفليين للرسول صلى الله عليه وسلم، وشق شفته السفلى .أما عبد الله فاستطاع إصابة الرسول برمية على جبينه، وأما ابن قامية فأصاب طرف خوذة الرسول صلى الله عليه وسلم في عظم وجنته .سقط الرسول الكريم على الأرض نتيجة لتلك الضربات المتلاحقة، إلا أن طلحة ساعده وأخذ يعالجه .لما رأى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قاموا قومة رجل واحد ضد الكفار المعتدين وسرعان ما انهار طوق قريش وتشتت، وقد لحق سعد بن أبي وقاص بأخيه عتبة وقد استل سيفه بدلا من القوس الذي اشتهر به إلا أن عتبة كان أسرع منه فولى هارباً واختفى بين صفوف قريش .وقد قال سعد فيما بعد لم أتشوق لقتل رجل كما تشوقت لقتل أخي عتبة في ذلك الموقف العصيب وبعد أن أدمى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اشتد زخم اقتحام قريش ضد المسلمين من جميع الجهات، وازداد الموقف حراجة للرسول وصاحبته إلا أنه الطوق كان محكماً .استطاع ابن قامية مرة أخرى، أن يخترق الطوق ويتجه نحو مصعب بن عمير، ظانا أنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت تقف بجانبه سيدة (أم عمارة) التي كانت تقوم بالاسقاء ونقل الأسلحة من الموتى وتوزيعها على المقاتلين الآخرين، إلا أنها وبعد أن شعرت بحراجة الموقف أخذت تقاتل بالسيف وقد استطاعت أن تقتل أحد الكفار وهو على ظهر حصانه وأن تجرح آخر.

اتجه ابن قامية نحو مصعب الذي تصدى له، وأخذ المحاربان يتبارزان إلى أن وجه ابن قامية، ضربة قاتلة إلى مصعب، أسرعت أم عمارة وهوت بضربة على كتف ابن قامية الذي كان يرتدي جلبابين من الزرد فلم تؤثر به الضربة فوجه هو نفسه ضربة إلى أم عمارة إلا أنها لم تكن قاتلة للسرعة التي قام بتوجيه الضربة بها، ولمشاهدته الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظة قريباً منه، فتوجه إليه ووجه ضربة شديدة إلى

رأس الرسول صلى الـلـه عليه وسلم سببت في قطع سلسلتين مـن سلاسـل الخـوذة التـي كـان يرتـديها الرسول صلى الـلـه عليه وسلم .ووجه ضربة قوية ثانية إلى كتف الرسول صلى الـلـه عليه وسلم، ولقوة الضربة ولوجود حفر خلف الرسول صلى الـلـه عليه وسـلم سـقط الرسـول الكـريم صـلى الـلــه عليـه وسلم بها، فسارع إليه علي وطلحة وأنقذاه .أما ابـن قاميـة فعـاد جـذلا إلى قـريش وهـو يـردد قتلـت محمد، قتلت محمد.

سمعت الصيحة من المسلمين والكفار على حد سواء مما كان لـه أسـوأ الأثـر عـلى روح المسـلمين المعنوية، فتقهقروا بفوضى شديدة طالبين النجـاة في مرتفعـات أحـد إلا أن هنـاك عـدد مـن المسـلمين نذروا أنفسهم للموت، ولم يستطيعوا الحياة بعد وفاة نبيهم، فحملوا حملة شديدة على فرسان قـريش مما سبب في تشتيتهم بعض الوقت.

عندما رأت قريش أن الجسم الرئيسي للقوة الإسلامية، قد ولى الأدبار نحو الجبل، توجهوا لسلب المـوتى المسلمين، مما جعل حتى الـذين كـانوا بـالقرب مـن الرسـول صـلى الـلــه عليـه وسـلم يلحقـون بـزملائهم لمشاركتهم السلب والنهب .مما أفسح المجال أمام الرسول صلى الـلـه عليه وسلم وصحابته، للالتجاء بسهولة إلى المضيق الذي يخترق جبل أحد ثم تسلّق وصحبه التل الشرقي المسيطر على ذلك المضيق، والـذي يرتفـع حوالي ((400قدم عن الأرض المحيطة وقد بقي من صحبه الثلاثين أربعة عشر رجلاً، وسقط الآخـرون عـلى درب الشهادة والكفاح دفاعاً عن دين الـلـه ودفاعاً عن رسوله صلى الـلـه عليه وسلم.

وهكذا تشتت المسلمون، فمنهم من توجه نحو الجبل، ومنهم مـن توجـه نحـو المدينـة، وآخـرون هربوا إلى أماكن بعيدة على غير هدى، وأصبح الموقف في صالح قريش تماما، عند وصول الرسـول صـلى الـلـه عليه وسلم إلى المضيق المشار إليه، وأمن ظهره على الأرض الوعرة، أمر بالاستراحة لبعض الوقـت، وأتت ابنته فاطمة لمعالجة جراحة وتنظيف وجهه من الدماء التي صبغته بلونها، وهي تمسح دموعهـا بصمت خوفا على أبيها الكريم.

كان من بـين المسـلمين الـذين اتجهـوا نحـو المضـيق رجـل اسـمه كعـب بـن مالـك وقـد فـرح عنـدما رأى الرسـول عــلى قيــد الحيــاة، فوقــف وأخــذ ينــادي بــأعلى صــوته أن

الرسول صلى الـلـه عليه وسلم حيٌّ وسرعان ما أتى هـذا النـداء ثمـاره .إذ أخـذ المسـلمون التـائهون في شعاب أحد يتجمعون في موقع الرسول صلى الـلـه عليه وسلم، وأخذ عددهم يزداد كما تجمع آخرون.

كان أبو سفيان في تلك الأثناء يبحث عن جثة الرسول صلى الـلــه عليـه وسـلم في ميـدان المعركـة وبين كل آونة وأخرى، كان يسأل من حوله عن الرسول صلى الـلــه عليـه وسـلم، وإلى أن أخـبره خالـد بأنه شاهد الرسول وصحبه يتوجهون نحو المضيق في أحد، فأمره أبو سـفيان بمهاجمـة الموقـع والقضـاء على أصحاب الرسول صلى الـلـه عليه وسلم، والتأكد من موته، تحرك خالد باتجاه المضيق حذراً لعلمه بعدم ملائمة الأرض لمناورة فرسانه إلا أنه استمر في ذلك لتفاؤله وإصراره، أو لعل أن يكون هناك منفذاً يستطيعون من خلاله تحقيق مهمتهم.

لما رأى الرسول صلى الـلـه عليه وسلم قدوم الفرسان نحـوهم، أمـر عمـر بـن الخطـاب عـلى رأس مجموعة من مقاتلي المسلمين بالتصدي لهم .فتحرك عمر وقوته، واتجهوا نحو باب المضيق على الـتلال المرتفعة التي تسيطر عليـه، وانتظـروا مجـيء قـريش .إلا أن خالـداً لمـا رأى صـعوبة الأرض، واسـتحالة اقتحامها وللعزم الذي رآه في قسمات المسلمين أمر بانسحاب مجموعته وعاد إلى أبي سفيان.

كانت هند زوجة أبي سفيان في تلك الأثناء مع مجموعة كبيرة مـن نسـاء قـريش، يمـثلن في جثـث شهداء المسلمين، وبقيت هند تبحث عن جثة حمزة حتـى وجـدتها، فبقـرت الـبطن وأخرجـت كبـده، وقطعت قطعة كبيرة، أخذت تلوكها بكل وحشية وهمجيـة، ثـم طرحتهـا أرضـا .كـذلك بـرّت بوعـدها للمتوحش، حيث خلت حليها وسلمتها لقاتل حمزة.

خلال تلك الأحداث المفجعة، تقدّم أبو سفيان نحو الـوادي، وارتقـى صـخرة عاليـة، تبعد قليلا عن موقع الرسول صلى الـلـه عليه وسلم وصحبه .وأخذ يسأل، هـل محمـد بينكم وكررها ثلاث مرات .ثم سأل عن أبي بكر وعمر وكرر نداءه ثلاث مـرات إلا أنـه لم يسمع جواباً، بناء على نصيحة الرسول صـلى الـلــه عليـه وسـلم ارتـد بعـدها نحـو

قريش وقال، لا خوف اليوم، فقد قتل الثلاثة، عند ذلك، لم يستطع عمر صبراً، وقال مخاطبا أبي سفيان .كذبت يا عدو الله، بل هم أحياء وسنلقنكم درساً لن تنسوه أبداً إلا أن أبا سفيان ضحك لعلمه بحالة المسلمين الضعيفة آنذاك .دار حوار مطول بين أبي سفيان وعمر، انتهى بجملة قالها أبو سفيان :ستجدون أن عدداً من قتلاكم قد مثّل بهم، اعلموا أنني لا علم لي بذلك، ولم آمر به .ثم استدار أبو سفيان نحو قريش وأمرهم بالرحيل وترك أرض المعركة.

نهض الرسول صلى الله عليه وسلم في صباح اليوم التالي ودعا المسلمين للتهيؤ لمطاردة قريش وقتالهم .تجمع حوله حوالي ((300مقاتل، معظمهم جرحى أو منهكي القوى نتيجة القتال المرير الذي دار في أحد.

أما في معسكر قريش، فقد كان النقاش على أشده، فمنهم من يرى ضرورة الإجهاز على المسلمين وإبادتهم وعلى رأس هذه المجموعة، عكرمة بن أبي جهل، ومنهم من يرى الاكتفاء بالنصر الذي أحرز، ولأنهم أيضا لم يكونوا في حالة جيدة للقتال، وعلى رأسهم صفوان بن أمية .غلب رأي الأكثرية على قريش وانسحبوا باتجاه مكة.

كانت معركة أحد هي المعركة الرئيسية الثانية، بين المسلمين والمشركين وكانت حصيلتها ((70شهيداً من المسلمين و((22قتيلاً من المشركين .كانت أيضاً هي المرة الأولى التي يقود أبو سفيان بها جيشاً كما أنها هي التي أظهرت خالد كقائد ومحارب فذ[1].

خسر المسلمون المعركة بسبب مغادرة الرماة لمواقعهم وعدم إطاعتهم أوامر الرسول الكريم وقائدهم المباشر .أبدى عدد كبير من الكتاب رأيهم، بأن ذلك، يعود إلى جهل العرب في خوض المعارك الرئيسية، في الحروب النظامية .إن هذه النظرية غير صحيحة، فقد شاهدنا كيف فتح الرسول صلى الله عليه وسلم قواته، ذلك بانتخابه موقع دفاعه خارج المدينة وهي القاعدة الرئيسية للمسلمين وبدفاع

---

[1] ابن سعد، صفحة 549، ابن هشام، مجلد2، صفحة 84.

جناحية، أي أن أي هجوم لقريش على المدينة، سيعرّض جناحه ومـؤخرتهم إلى الخطـر، وهـذا مـا كـان يبدو لقريش على المدينة، وهذا ما كان يدور في تفكير الرسول صلى الـلـه عليه وسلم، بـأن أبـا سـفيان سوف لن يتجرأ للقيام بذلك، معرضا قواتـه لـذلك الموقـف المحـرج .هـذا المفهـوم تكـرر ويتكـرر عـبر التاريخ العسكري، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك.

كذلك رغم أن أبا سفيان أرغم على خوض معركة تحـت ظـروف ليسـت في صـالحه، إلا أن خطتـه كانت سليمة، متبعا نفس النسق العادي الذي كانت تتبعه الجيوش الأخـرى في الانفتـاح، والاصـطفاف للقتال، كجيوش الرومان والفرس، وذلـك بوضـع الجسـم الـرئيسي للمشـاة في الوسـط، ووضـع القـوات المتحركة على الجناحين، لتسهيل المناورة ضد أجنحـة ومـؤخرة العـدو .وهكـذا بالنسـبة لفـتح القـوات وانتخاب أرض المعركة لم يكن بمقدور أي جنرال روماني أو فارسي أن يفعل أفضل مما فعل الرسول صلى الـلـه عليه وسلم وأبو سفيان.

هناك حقيقة أخرى أبرزتها معركة أحد، تلـك هـي قـدرة خالـد في التخطـيط العسـكري ومهارتـه التنفيذية .إذ بعد أن هزمت مشاة قريش في الوسط، بقي خالد (وعكرمة) ثابتين على الأجنحـة مـع أن ذلك نادر الحدوث، إذ أن الأمر العادي في مثل هذه المواقف، أن يـدب الـذعر أيضـاً في بقيـة القـوات، عندما ترى الجسم الرئيسي لها يتقهقر منسحباً .تجلى في تلـك اللحظـة، صـبر خالـد وشـجاعته ورفضـه للهزيمة .كذلك نرى أن عيني خالد، كانتا تتابعان ما يجري بكل اهتمام وتقدير، لـذلك نـراه سريعـاً مـا استغل الثغرة التي حدثت في صـفوف المسـلمين، نتيجـة انسـحاب الرمـاة، وهنـا أيضـاً، تجلّـت سرعـة اتخاذ[1] خالد لقراره بمهاجمة مؤخرة المسلمين، التي أصبحت واهنة كانت هـي المنـاورة الرائعـة التـي قام بها خالد وقلب نتيجة المعركة رأساً على عقب.

---

[1] الطبري، مجلد2، صفحة 197.

غزوة الخندق

احتلت غزوة أحد تفكير خالد عدة أيام بعد عودته إلى مكة وفكر أكثر من مرة كيف سمحت له الفرصة عندما ترك الرماة موقعهم وكيف أنه أدرك في حينه إمكانية القيام بمناورة بسرعة وبدقة .وكرر خالد مثل هذه الهجمات المعاكسة في المعارك التي خاضها فيما بعد لكن الحقيقة التي شغلت باله والتي لم يستطع تفسيرها هي شجاعة وصلابة المسلمين إن الأمر غير طبيعي أن تصمد قوة صغيرة أمام قوة كبيرة تفوقها كثيراً بالعدد وأمام هجمات من جميع الاتجاهات كالصخرة في تصميمها واستعدادها للقتال حتى النهاية دفاعاً عن قائدها ودينها فضلاً عن ذلك، كان المسلمون والقرشيون وسائر العرب من أصل واحد ربما كان هنالك تأثير ما للدين الجديد على أتباعه لا تستطيع أديان أخرى أن تؤثر مثل ذلك .وربما كان هناك تأثير ما أيضاً لشخصية محمد لا يتوفر في الشخصيات الآخرين .إن مثل هذه الأفكار شغلت بال خالد، لكنه حتى الآن لم يكن ميالاً إلى الدين الجديد، وفي الحقيقة كان يتطلّع إلى مجابهة ثانية مع المسلمين، ولكن بدون مرارة أو حقد كان يفكر في المعركة القادمة مثلما يفكر الرجل الرياضي بمباراته التالية.

واستمر خالد في التمتع بالحياة الرغيدة بالقوة والحماس التي تميّز بهما الرجل.

حادثة يوم الرجيع.

في السنتين التاليتين، لم يحدث أي صدام عسكري مباشر بين المسلمين والقرشيين ولكن جرت حادثة تعرف باسم يوم الرجيع وهي حادثة وحشية ومريعة أساءت إلى العلاقات بين مكة والمدينة.

جرى هذا الحادث في تموز عام 625م حيث قدم بعض الأشخاص إلى النبي بصفة وفد عن قبيلتي عضل والقارة وعبروا عن رغبتهم في اعتناق الإسلام وطلبوا منه أن يرسل معهم بعض رجاله ممن يحفظون القرآن وتعاليم الإسلام لكي يشرحوا الدين الجديد وأحكامه لأفراد القبيلة .فعين النبي ستة من أصحابه للقيام بهذه المهمة وانطلق هؤلاء مع الوفد وهم فخرون بهذا العمل الذي انتخبوا من أجله لنشر الدين الحنيف غير عالمين بالفخ الذي نصب لهم وعندما وصل هؤلاء الرجال وأدلوهم إلى مكان يسمى الرجيع وهو ليس بعيداً عن عسفان ووقعوا في كمين مؤلف من مائة مقاتل من أفراد القبيلتين اللتين ينتمي إليهما الوفد فاستلوا سيوفهم لكن لم تتح لهم الفرصة لاستعمالها وقتل منهم ثلاثة وأسر ثلاثة وهؤلاء الأسرى اقتيدوا على مكة واستطاع واحد منهم أن يتخلص من قيده ويهاجم آسريه لكنه قتل أيضاً أما الأسيران اللذان وصلا مكة فهما خبيب ابن عدي وزيد بن الدثنة لقد سبق أن قتل هذان الأسيران بعض المشركين في المعركة فأخذ من قبل أسيريهم إلى مكة وبيعا هناك إلى الأقارب قتلى المشركين بثمن باهظ وهؤلاء اشتروا بحماس بقصد قتلهم انتقاماً لأولئك الذين فقدوهم.

الأسرى:

لم يتخذ أي إجراء ضد الأسيرين لبضعة أيام لأن الشهر الذي أسر فيه كان شهر صفر وهو من أشهر الحرم وعند انقضاء الشهر أخذا إلى مكان يسمى التنعيم وهو يقع إلى الشمال الغربي من مكة، حيث كان جميع السكان يتجمهرون بما فيهم العبيد والنساء والأطفال اقتيد الأسيران إلى عمودين من الخشب ثبتا في الأرض فطلبا أن يسمح لهما بصلاة أخيرة، فاستجيب طلبهما وعندما انتهت الصلاة أعيد ربط الأسيرين بالعمودين.

وخيّر كل منهم إما بالعودة إلى عبادة أصنام قريش أو الموت فاختار كلاهما الموت ثم جاء أبو سفيان وقال لزيد بن الدثنة :أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ قال :والله ما أحب أن محمداً في مكانه

الذي هو فيه تصيبه شوكه تؤذيه وإني جالس في أهلي، قال أبو سفيان :ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدا.

قتل زيد أولاً وإن موته سريعاً وسهلاً حيث تقدّم عبد منه وغرز حربة في صدره ثم جاء دور خبيب وكان موته استعراضياً وهذا هو السبب الذي حدا بأهل مكة للتجمع لمشاهدة هذا العرض وانتظاره بشوق.

انطلق أربعون ولداً بإشارة من عكرمة بن أبي جهل إلى العمود المربوط به خبيب وبدؤوا بوخزه بحرابهم وكانوا في بعض الأحيان يقفون بعيداً ثم يندفعون باتجاهه وهم يرفعون حرابهم كأنهم يريدون قتله ولكنهم يتوقفون قبيل الوصول إليه ويبدؤون بوخزه مرة ثانية بحيث يسببون له الجراح دون قتله كان بعض الأولاد عنيفين إذ سببوا له جراحاً أعمق مما سببه الآخرون وسرعان ما أصبح جسده مغطى بالدم الذي كان ينزف من مئات الجروح السطحية .وكان ينتفض لدى كل ضربة حربة لكنه لم يتأوه أو يصرخ، كان المتفرجون يضجون فرحاً لمشهد تعذيب خبيب.

وبعد أن استمر هذا المشهد لفترة تقدم عكرمة وبيده حربة باتجاه خبيب، وفرق الأولاد ربما لأن هؤلاء قد تعبوا أو ربما لأن المتفرجين سئموا اللعبة .ثم رفع عكرمة حربته وغرزها في قلب خبيب وهكذا وضع حداً لآلامه وتركت الجثتان على العمودين حتى تتآكلا.

لقد نظم هذا العرض التعذيبي من قبل عكرمة الذي جهز الأولاد بالحراب ولقنهم ما يفعلون لم يعلم عكرمة عندما نظم المشهد الدموي المريع أنه من الممكن أن يسامح وأن يعفي عنه لمعارضته الشديدة للإسلام والدم المراق الذي سفكه في بدر وفي أحد لكن فعلته هذه لن تغفر له ففي هذا اليوم أصبح عكرمة مجرم حرب.

إن أبا سفيان قد تحدّى النبي –صلى اللـه عليه وسلم –قبل مغادرته ميدان المعركة في أحد، لمقابلة المسلمين مرة ثانية في بدر بعد سنة، وأن النبي قبل هذا التحدي .وهذا يعني أن اللقاء بين المسلمين والقرشيين سيتم خلال شهر آذار عام 626م، لكن عندما اقترب موعد اللقاء، شعر أبو سفيان بعدم الرغبة في لقاء المسلمين .

كانت أمطار الشتاء قليلة، وعندما انتهى فصل الشتاء، ارتفعت درجات الحرارة فجأة .كان الطقس حاراً وجافاً وكان الموسم يبشر بالسوء .قرر أبو سفيان أن يؤجل العملية وأرسل عميلاً إلى المدينة لنشر إشاعة تقول بأن القرشيين كانوا يتجمعون بأعداد كبيرة، وأن قوتهم في هذه المرة ستكون أعظم مما كانت في أحد .وكان يقصد من ذلك تخويف المسلمين لكي يبقوا في المدينة، لكن النبي عندما علم بذلك أعلن، سأحافظ على موعدي مع المشرك حتى لو أقتضى الأمر أن أذهب لوحدي.

المسير نحو المعركة:

في أواخر آذار، سار المسلمون من المدينة .وكانوا يّعدون ألفاً وخمسمائة مقاتل، من بينهم خمسون فارساً .وصل الجيش إلى بدر في الرابع من نيسان عام 626م (المصادف الأول من ذي القعدة عام 4هـ)، لكنه لم يجد أثراً لقريش.

عندما تلقى أبو سفيان أنباء مسيرة المسلمين من المدينة، جمع القرشيين وانطلق من مكة .كان جيشه يتألف من ألفي مقاتل ومائة فرس، ورافق الجيش مقاتلون شجعان مثل خالد، وعكرمة، وصفوان، وعندما وصل القرشيون إلى أصفان، قرر أبو سفيان أنه ليس مضطراً تحت أية ظروف للقيام بهذه الحملة .ثم التفت إلى مرؤوسيه وقال لهم :إن هذه السنة سنة قاسية لكي نتورط فيها بحرب .فالأرض أصابه الجدب، ونادراً ما رأينا مثل هذه الحرارة .إن هذه الظروف ليست ملائمة للقتال .وأننا سوف نقاتل في سنة خصبه[1]. وبعد أن بيَّن أسباب عدم الاستمرار في التحرك أمر بالعودة إلى مكة .احتج صفوان وعكرمة بشدة على هذا القرار، لكن احتجاجهم لم يجد نفعاً .وعاد القرشيون إلى مكة.

بقي المسلمون في بدر مدة ثمانية أيام .وبعد أن سمعوا بعودة أبي سفيان إلى مكة، شدوا رحالهم وعادوا إلى المدينة.

[1] ابن سعد: صفحة 563.

بعد عودة القرشيين إلى مكة، كان من الممكن أن يسود السلام بين المسلمين والقرشيين لولا تدبير المكائد من مقبل اليهود .ولكي نفهم أسباب دسائس اليهود، يجب أن نعود إلى الوراء عندما وصل النبي إلى المدينة بعد مغادرته مكة.

عند قدوم النبي إلى المدينة، حيث أعتبر ذلك العام الأول للهجرة، تشكل المسلمون في مجموعتين هما :المهاجرون وهم الذين هاجروا مع النبي من مكة، والأنصار وهم أهل المدينة الذين اعتنقوا الإسلام ودعوا النبي للمجيء والعيش معهم .وكان يوجد مجموعة صغيرة ثالثة بين المسلمين تعرف باسم :المنافقين، وهم من سكان المدينة الذي قبلوا النبي ودينه لكي يؤثروا في المجرى العام للحوادث لكنهم لم يكونوا مسلمين في أفئدتهم .وكان زعيم هؤلاء المنافقين عبد الله بن أبي، وكان ذا نفوذ كبير في المدينة وشعر أن قدوم النبي صلى الله عليه وسلم سيقلل من مكانته ونفوذه .وهؤلاء المنافقون هم الذين تركوا جيش المسلمين يوم أحد .واستمروا في خلق العراقيل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا يبذلون كل جهد، دون معارضة النبي صلى الله عليه وسلم أو دينه بشكل صريح، لإضعاف تصميم المسلمين كلما نووا الذهاب إلى القتال.

اليهود:

كان يوجد في المدينة طائفة من اليهود تضم ثلاث قبائل تعرف بـ :بني قينقاع، وبني نضير، وبني قريظة .وعندما وصل النبي إلى المدينة، قبله هؤلاء اليهود دون تحفظ إذ لم يروا في الدين الجديد أي تهديد لمركزهم .وكل قبيلة من القبائل الثلاثة دخلت في معاهدة مع النبي يمكن وصفها بأنها معاهدة صداقة أو معاهدة عدم اعتداء .وكانت المعاهدة تتضمن فقرة تنص على أن لا يقوم أي من الطرفين مساعدة أعداء الطرف الآخر المشتبك في القتال .

عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، كانت آيات القرآن التي نزلت، تعالج بشكل رئيسي المسائل الروحية والدينية، وهكذا فإن الصفة المميّزة للإسلام كانت آنذاك بشكل جوهري، روحية ودينية، وهي تتحدث عن علاقة الإنسان بالإله،

وعندما هاجر النبي صلى اللـه عليه وسلم إلى المدينة، اتخذ الإسلام دوراً أكثر فعالية وحيوية في شؤون الناس، فدخل في مجالات المجتمع، والسياسة، والاقتصاد .وبدأ الإسلام يتعامل مع الإنسان كعضوٍ في المجتمع، والمجتمع كأداةٍ لتحقيق حياة فاضلة ولتحقيق التقدم والازدهار لجميع الناس .إن هذه الطاقة الخلاقة التي أخذها الإسلام على عاتقه كانت كفيلة بوضعه في مجرى الصدام مع الديانات القديمة .وهذا الصدام كان لابد أن يقع عاجلاً أم آجلاً، وأقرب الديانات القديمة التي دخل الإسلام في صدام معها كانت اليهودية .أدرك اليهود الخطر الذي يهدد مركزهم لأول مرة عندما حقق المسلمون نصراً مؤزراً في غزة بدر .بعد ذلك نقضت قبيلة بني قينقاع المعاهدة ودخلت في مواجهة سافرة ضد المسلمين .فحاصر النبي هذه القبيلة في معاقلها وأجبرها على التسليم .وكعقاب لبني قينقاع على نقضهم للعهد، طردوا من المدينة، وهاجروا إلى سورية .أما القبيلة الثانية التي نقضت المعاهدة فهي قبيلة بين نضير وقد حدث ذلك بعد غزوة أحد مباشرة .وقد عوقبت من قبل المسلين بنفس العقاب .وقد هاجر قسم من هذه القبيلة إلى سورية، واستقر القسم الآخر في منطقة خيبر شمال المدينة .وفي العمليات التي تمت ضد قبيلتي بني قينقاع وبني نضير، وقف عبد اللـه بن أبي إلى جانب اليهود في بداية الأمر، وكان يحرضهم على قتال النبي ويعدهم بالمساعدة بواسطة أتباعه .ولكن فيما بعد، عندما رأى أن الكفة تميل لصالح المسلمين، تخلّى عن اليهود وتركهم لمصيرهم.

واستمرت القبيلة اليهودية الثالثة، قبيلة بني قريظة، في العيش بسلام في المدينة .كانت علاقاتها مع المسلمين عادية وتتسم بالهدوء، وكان كل جانب يحترم ويحافظ على بنود المعاهدة .لكن يهود بني نضير الذين استقروا في خيبر لم يصفحوا عن المسلمين الذين طردوهم .وبعد غزوة أحد، علموا بنبأ الاتفاقية التي تمت بين المسلمين والقرشيين للقتال في معركة أخرى، وأخذوا ينتظرونها بفارغ الصبر على أمل أن يسحق المسلمون فيها .ولكن عندما عرفوا بعد سنة أن المعركة لن تتم، قرروا أن يقوموا بعمل مباشر لتأليب القرشيين ضد المسلمين ومحاربتهم.

عندما ولى صيف عام 626م، ذهب وفد من يهود خيبر إلى مكة .وكان زعيمهم حيي بـن أخطـب، الذي كان زعيم بني نضير في المدينة، عند وصول الوفد إلى مكة، قـام بالتفـاوض مـع أبي سـفيان، وبـدأ بتنظيم حملة ضد النبي صلى اللـه عليه وسلم .وكان على حيي أن يثير قلق ومخاوف القرشيين؛ فشرع في إبراز الخطر الذي سيواجهه القرشيون نتيجة إنتشار الإسلام في الجزيرة العربية .وإذا وصل المسلمون إلى اليمامة، فإن طرق تجارة قريش إلى العراق والبحرين سوف تغلق.

وسأل أبو سفيان حيي: أخبرني يا ابن الأخطب، بصفتك مـن أهـل الكتـاب، هـل في رأيـك أن ديـن محمد الجديد خير من ديننا؟ فأجاب حيي، دون أن تطرف لـه عـين :إننـي كرجـل مـن أهـل الكتـاب، أستطيع أن أؤكد لك بأن دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه[1]. لقد أدخـل قولـه السرور عـلى القرشيين، ووافقوا على قتال محمد إذا انضمت إليهم قبائل عربية أخرى.

ثم ذهب الوفد إلى غطفان وبني أسد وتفاوضوا معهم مثلما تفاوضوا مع القرشيين وحققوا نتـائج مماثلة. اتفقت هاتان القبيلتان وقبائل أخرى على الاشتراك في حملة كبيرة لقتال وتدمير المسلمين.

قوة التجارة:

بعد غزوة أحد، قبل القرشيون بفقدان تجارتهم مع سورية كأمر حتمي. فطالما أن المسلمين محتفظون بقوتهم في المدينة، فإن أهل مكة لا يمكنهم أن يستخدموا الطريـق السـاحلي المـؤدي إلى سورية. لذلك، فقد زاد المكيون تجـارتهم مـع العـراق، والبحـرين، والـيمن، وبـذلك أمكـنهم تعويض ما فقدوه نتيجة توقف التجارة مع سورية. أدرك أبو سفيان، بعـد التفـاوض مـع الوفـد اليهودي، مقدار الخطر الذي ستتعرض له تجارة أهل مكة من جراء انتشار الإسـلام. فـإذا وصـل المسلمون إلى اليمامة، فإن تجارة قريش ستقتصر على الـيمن، لأن الطـرق إلى العـراق والبحـرين

[1] ابن هشام - الجزء 2، صفحة 214.

ستكون عندئذٍ في أيدي المسلمين. وإن مثل هذا التقلص في التجارة سوف يكون ضربة اقتصادية لا يمكن لقريش أن تقوم لها قائمة بعدها كذلك فإن أبا سفيان تحمل الكثير نتيجة عدم حماس صفوان بن أمية في الحملة الأخيرة وتظافرت جميع هذه العوامل وجعلت أبا سفيان يقرر بحماس القيام بحملة أخرى على المدينة.

الاستعداد للحملة:

بدأت الاستعدادات للحملة وبدأ رجال القبائل بالتجمع في أوائل شباط عام 627م جهزت قريش أكبر قوة تتألف من أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير تليها غطفان التي جهزت ألفي مقاتل بإمرة عيينة بن حصن بينما جهزت قبيلة بني سلمة (700) محارب كذلك اشتركت قبيلة بني أسد بقوة غير معروفة، تجمعت قريش وبعض القبائل الصغيرة في مكة بينما تجمعت قبائل غطفان وبني أسد وبني سلمة في قراهم شمال وشمال شرق وشرق المدينة حيث يتوجهون من هناك مباشرة إلى المدينة.

كان تعداد هذه القوات بما فيها القبائل الصغيرة عشرة آلاف، واستلم أبا سفيان قيادة الحملة. وأصبحت هذه الحملة تعرف «بالأحزاب».

في يوم الاثنين، الرابع والعشرين من شباط 627م (المصادف الأول من شوال عام 5هـ)، تحركت الأحزاب من مناطقها وتجمعت قرب المدينة حيث أقامت معسكراتها. عسكرت قريش في منطقة الجدول جنوب الغابة وإلى الغرب من جبل أحد، في نفس المكان الذي عسكرت فيه لمعركة أحد. أما غطفان وقبائل أخرى فقد عسكروا في ذنب نقمى، على بعد ميلين إلى الشرق من جبل أحد. وبعد أن أقامت الأحزاب معسكراتها، زحفت إلى المدينة عندما بدأت حشد الأحزاب، وصلت الأنباء بواسطة العيون إلى المدينة. وكانت التقارير تصل تباعاً عن هذا الحشد. وأخيراً تلقى النبي صلى الله عليه وسلم معلومات تفيد بأن عشرة آلاف مقاتل يسيرون باتجاه المدينة للقضاء على المسلمين وعندما تلقى المسلمون هذه المعلومات غير السارة أصيبوا بالاضطراب واليأس وكان المسلمون دائماً، أقل عددا من أعدائهم. وكانت نسبة القوى في بدر وأحد لصالح المشركين، ومع أن عدد المسلمين في

المدينة انخفض الآن إلى ثلاثة آلاف من المقاتلين الأشداء، إلا أنه كان بينهم مئات من المنافقين الـذين لا يمكن الاعتماد عليهم. كـما أن عـدد عشرة آلاف يبـدو رقـما ضـخماً. إذا لم يسـبق أن تجمـع مثـل هـذا الجيش اللجب لخوض معركة.

حفر الخندق:

ثم لاح الأمل على شكل اقتراح قدّمه سلمان الفـارسي. إذ أوضـح أن جـيش الفـرس عنـدما يخـوض معركة دفاعية ضد الأعداء متفوقين، كان يلجأ إلى حفر خندق عريض وعميق في طريق العـدو، بحيـث يصعب اجتيازه.

وكان هذا الأسلوب في الحرب غير مألوف للعرب، لكنهم رأوا مزاياه وقبل الاقتراح.

أمر النبي صلى اللـه عليه وسلم بحفر الخندق لكن الكثيرين من العرب اللذين لم يستطيعوا فهم مثل هذا التكتيك، أبدوا عدم رغبـتهم في القيـام بعمليـة الحفـر، وتنشـط المنـافقون كالعـادة في إغـراء الناس بعدم الاشتراك في هذا العمل الشاق. لكن النبي صلى اللـه عليه وسـلم نـزل بنفسـه إلى الحفـر، عندئذ لم يتهرب أحد من المسلمين من المشاركة في الحفر. وحدد مكان الخندق وقسم كامل طوله بـين المسلمين من أجل حفره، وأعطى كل عشرة رجال أربعين ذراعاً وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق والعرق يتصبب من جباههم، كان حسان بن ثابت يتجول بين المسلمين وهو ينشد أشعاره التـي ترفـع من روحهم المعنوية. كان حسان شاعراً، وربما كان أكبر شاعر في زمانة. وهو يستطيع أن يترجـل الشـعر بأي موضوع وبأي مناسبة، وينظمه بأسـلوب جميـل لدرجـة أن سـامعيه لا يصـدقون أن هـذا الشـعر مرتجل إلا بصعوبة وكان يستطيع أن يلهب حماس الناس.

امتد الخندق من «الشيخين» إلى تلال الخباب، ومن هنـاك إلى جبـل بنـي عبيـد. وكانـت جميع التلال ضمن المنطقة المحمية بواسطة الخندق ومن جهـة الغـرب كـان الخنـدق يتجـه جنوبـا لتغطيـة المجنبـة الـيسرى غـربي التلـين المعـروفين باسـم جبـل عبيـد، وإلى الشرق مـن

«الشيخين» وجنوب غرب بني عبيد وإلى الشرق من «الشيخين» وجنوب غرب جبل بني عبيد تمتد أراضي بركانية - وهي عبارة عن مناطق ذات أرض متكسرة وغير مستوية، ومغطاة بصخور كبيرة سوداء، غير صالحة لتحرك عسكري رئيسي. وإلى الجنوب قليلاً من منتصف الخندق، كان يقف تل سلع المرتفع حوالي (400) قدماً والذي يبلغ طوله ميل واحد، وهو يمتد بشكل عام شمال - جنوب وبه نتوءات في جميع الاتجاهات. وفي الحقيقة، إن تل ضباب الصغير يقع شمال شرق نتوء سلع.

وعندما انتهى حفر الخندق، أقام المسلمون معسكرهم أمام تل سلع مباشرة: وكانت قوتهم الإجمالية تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل من ضمنهم المنافقون الذين كانت قيمتهم القتالية والاعتماد عليهم غير مؤكد. كانت خطة النبي صلى الله عليه وسلم تقضي بأن لا تزج القوة الرئيسية لجيشه في القتال وذلك لكي تضرب في أية بقعة يستطيع العدو أن يحصل على موطئ قدم عبر الخندق. ولحراسة الخندق ضد أية مفاجأة، خصص لهذا الغرض مائتا رجل على طول الخندق، ووضعوا كالأوتاد على التلال المسيطرة على الخندق. واستخدمت قوة متحركة مؤلفة من خمسمائة رجل للقيام بأعمال الدورية على قرى المدينة المختلفة وللتعامل ضد أي متسللين قد يعبروا الخندق دون أن يراهم أحد، وكذلك لتأمين الحماية للمناطق غير المحمية بالخندق. (لم تكن المدينة آنذاك كما هي الآن إذ كانت مؤلفة من مجموعة من القرى والحصون. وكان مركز المدينة المادي والروحي هو مسجد النبي). ووضعت النساء والأطفال في الحصون والبيوت البعيدة عن جهة القتال التي كانت تواجه الشمال والشمال الغربي. كان فصل الشتاء أوشك على الانقضاء قاسياً طويلاً. وعندما رأى القرشيون الخندق، فزعوا في بادئ الأمر ثم تابعوا سيرهم حانقين. لقد جاء القرشيون بقوة كبيرة وبدا لهم أن النصر مؤكد. وتوقع أبو سفيان أن يخوض المعركة ناجحة، والآن ظهر هذا الخندق المبارك في طريقه!

وانفجر أبو سفيان قائلا بغضب: (والله هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها. لم يكن في عقل هذا الرجل البسيط مكان لمثل هذه التكتيكات. أما بالنسبة للعربي اللامع فهي ليست لعبة كرة مضرب.

التحرك العسكري:

على كل الأحوال، تحركت الأحزاب من معسكرها، وانتشرت على طول الخندق من الشمال والشمال الغربي، وضربت حصارا استمر ثلاثة وعشرون يوما. وكانت الأحزاب تصل إلى الخندق نهاراً وكان المسلمون بقوات صغيرة من جهة المدينة يردوهم. وكان هنالك تبديل للرماة الذين كانوا يقظين طيلة النهار، وفي الليل كانت الأحزاب تعود معسكراتها. كانت دوريات الأحزاب تتحرك على طول الخندق بشكل مستمر نهاراً وأحياناً في الليل لإيجاد مكان يمكن العبور منه. وقد وجدوا مكاناً للعبور، وسنتحدث عنه فيما بعد.

استمر الحصار عشرة أيام دون اتخاذ أي قرار للمجابهة من كلا الجانبين. وكانت معنويات الطرفين تحت تأثير الانفعالات الطبيعية، لكنها مالت إلى الصعوبة أكثر من الضعف، بدأ المسلمون يشعرون بوطأة الجوع. ولم يكن في المدينة مخازن كبيرة للطعام، وأصبح المسلمون يعيشون على نصف تعيين يومي. ارتفع صوت المنافقين وأخذوا يجاهرون بانتقاد النبي صلى الله عليه وسلم. أثنا حفر الخندق وعد النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بأنهم سيدمرون إمبراطوريتي الروم والفرس في غضون بضع سنوات، ويستولون على ثروات هاتين الإمبراطوريتين وبدأ المنافقون يقولون الآن (كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يؤمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط) أما المؤمنون الصادقون فظلوا ثابتين وصادمين كما أن ثقتهم بنبيهم بقيت ثابتة لا تتزعزع.

بدأ الموقف يسوء تدريجيا في صفوف الأحزاب أيضاً وبدأ التذمر يظهر بينهم. فالعرب لم يكونوا معتادين على الحصار الطويل وهم يفضلون معركة نشطة سريعة على هذا الشكل من الحرب. وبقي الجو سيئا وسبب الغم والضيق بين الأحزاب كما أن الطعام بدأ بالنقصان لأن أبا سفيان لم يتخذ الترتيبات اللازمة بشأن تخزين كميات كبيرة من الطعام تكفي لمدة طويلة من الزمان ولكن بما أن الأحزاب لم يكونوا محاصرين فقد اتخذوا بعض الإجراءات لجمع المؤن من مناطق

بعيدة وبدأ الرجال بالتذمر لذا كان على أبي سفيان أن يفكـر مليـا لإيجـاد مخـرج لهـذا المـأزق. أخـيراً استشار حيي اليهودي فاتفقا على خطة جديدة تبشر بالنجاح.

الفتنة:

في مساء يوم الجمعة السابع من آذار تسلل حيي إلى قرية بني قريظة وذهب إلى كعب بـن أسـد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم. وكان قد وادع رسول اللـه على قومـه وعاقـده عـلى ذلـك فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فنـاداه حيـي ويحك يا كعب افتح لي قال ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أرى منه إلا وفاءً وصدقاً قال ويحك افتح لي أكلمك ففتح لـه وبـدأ حيـي بإقنـاع كعـب والضغط عليه للانضمام للأحزاب في الحرب ضد المسلمين رفض كعب في بادئ الأمر وقـال إذا انضـممنا إليكم وفشلت الحملة سيعود عبدة الأصنام إلى ديارهم بسلام وسوف نتحمل غضب محمد لكن حيـي استمر في ضغطه ولم يزل كعب يتعذر حتى سمح له على أعطـاه عهـدا وميثاقـاً ((لأن رجعـت قـريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك)) فنقض كعب بـن أسـد عهده وبرء مما كان بين رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وبينه ووافق على الـدخول في تحـالف مـع الأحزاب.

وطبقاً لشروط هذا التحالف، ستقوم الأحزاب وبنو قريظة بهجوم، في وقت واحد، عـلى المسـلمين. وكانت قرية هؤلاء اليهود وحصونهم على بعد ميلين جنوب شرق المدينة، وهـم سـوف يهـاجمون مـن هذا الاتجاه ويطردون بعض المسلمين من الخندق بينما تهاجم الأحزاب جبهياً. وفي حال فشل الهجوم، ستترك الأحزاب حامية قوية في الحصون اليهودية للدفاع عـن اليهـود ضـد المسـلمين الـذين سـيقومون بمهاجمتهم انتقاماً منهم. طلب بنو قريظة مهلة عشرة أيام لتجهيز أنفسهم قبـل أن يبـدأ الهجـوم، وفي أثناء ذلك تستمر الأحزاب في القيام بعمليات صغيرة من الشمال.

نقض العهد من اليهود:

وهكذا نقض يهود المدينة جمعيهم العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يدركوا أنهم سيدفعون ثمن ذلك غالياً. فما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى المسلمين، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان - وهو يومئذ سيد الأوس - وسعد بن عبادة بن دليم أحد بني سعادة بن كعب ابن الخزرج، وخوات بن جنبر أخو بني عمرو بن عوف، فقال: ((انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فألحنوا لي لحناً أعرفهُ ولا تفتوا في أعضاء الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس)). فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ((من رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد)). فعادوا إلى رسول الله وأخبروه بما رأوا وسمعوا. وقد جاءت حادثة ((صفية واليهودي)) لتؤكد ذلك.

كانت صفية بنت عبد المطلب، عمة النبي صلى الله عليه وسلم، في فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان بن ثابت في الحصن مع النساء والصبيان. قالت صفية رضي الله عنها: ((فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بيننا وبينهم أحد يدافع عنها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، قالت: فقالت: يا حسان، إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وأني والله ما أَمَنُهُ أن يدلّ على عوراتنا من ورائنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابه، فأنزل إليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، قالت: فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه فإنهن لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب)).

عندما وصلت أخبار هذه الحادثة إلى مسامع المسلمين، لم يعد هنالك شك لديهم بخيانة بني قريظة. وأصبح الموقف الآن أكثر توتراً، وأخذ المنافقون يجاهرون بتخوفهم. وانخفضت التعيينات اليومية للمسلمين من نصف تعيين إلى ربع تعيين. (وفيما بعد لم يعد هناك تعيينات يومية). مع ذلك فقد ظل المسلمون صامدين، ولكن إذا استمر الحصار مدة أطول، فإن الجوع سوف يجبرهم على الخضوع. ولم يجد المسلمون حلاً عسكرياً مباشرة للمشكلة.

البلاء العظيم:

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة ابن حصن والحارث بن عوف - وهما قائدا غطفان - فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعان بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك. فيما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً نصنعه لنا؟ قال: ((بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أن يشاء الله)). فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه لا نعطيهم أموالنا؟ والله مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فأنت وذاك))، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ((ليجهدوا علينا)).

وهكذا توقفت المفاوضات. وأدرك النبي أن الحل الوحيد للمشكلة يكمن في كسر الحصار بمناورة دبلوماسية، وبدأ يبحث عن مخرج آخر. وسرعان ما أتى هذا المخرج.

دهاء نعيم بن مسعود:

كان يوجد بين غطفان رجل يدعى نعيم بن مسعود فجاء إلى رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم وقال: يا رسول اللـه، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم: ((إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة)).

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنـي قريظـة - وكـان لهـم نـديماً في الجاهليـة - فقـال: يـا بينـي قريظة، قد عرفتم ودي أباكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمـتهم، فقـال لهـم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم: البلد بلدكم؛ فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقـدرون عـلى تحولـوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحـرب محمـداً وأصـحابه، فليسـوا كـأنتم، فـإن رأوا نهـزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجال ببلدكم، ولا طاقة لكم بـه إن خـلا بكم، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفاهم، يكونون بأيـديكم ثقـة لكـم عـلى أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان حرب ومن معه من رجال قريش. قد عرفتم ودي لكـم، وفراقي محمداً، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكـم، فـاكتموا عنـي، قـالوا: نفعل، قال: اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسـلوا إليـه إنـا قـد نـدمنا عـلى مـا فعلنا، فهل يرضيك أن تأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثـت إلـيكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحد.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي، ولا أراكم تهمونني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: إن فعلنا، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

فما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف الحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين تقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى أن ضرَّستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسالة إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن راوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير انشروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إن والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليلةٍ شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بمهمته على أكمل وجه، وخرجت بنو قريظة من التحالف. وفي صباح اليوم التالي، السبت 15 آذار، بعد أن سئم خالد وعكرمة من المماطلة، وأدركا أنه لا أمل في أي عمل مشترك بين الأحزاب، قررا أن يأخذ زمام

المبادرة لتحريك الموقف بأي عمل مشترك بين الأحزاب، قررا أن يأخذا زمام المبـادرة لتحريـك الموقـف بأي اتجاه، فتقدما إلى الإمام على رأس سريتهما إلى مكان يقع إلى الغرب ((ضباب))، حيث كان الخندق هنا غير عريض، كما هو الحال في أماكن أخـرى، ويمكـن اجتيـازه عـلى ظهـر حصـان أو زحفـاً بواسـطة مقاتلين راجلين، وكان هذا المكان يقع أيضا أمام معسكر المسلمين عند سفح سلع.

محاولة خرق الحصار:

تقدمت سرية عكرمـة أولاً، وقفـزت مجموعـة صـغيرة إلى الخنـدق، واقتربـت الخيـل مـن جانـب المسلمين وكان بين المهاجمين عكرمة ورجل ضخم، وهذا الرجل ويدعى عمرو بن عبد ود، كـان يتقـدم أمام المجموعة على صهوة جواد ضخم أيضاً، وبدأ يراقـب المسـلمين الـذين فوجئـوا باقتحـام القرشـيين للخندق. وفجأة رفع عمرو رأسه وزمجر: ((إنا عمرو بن وُد. أنا أعظم محارب في الجزيـرة العربيـة. إنـا الذي لا يقهر إنا.. إنا..)) وكان بلا شك معجبا بنفسه. ثم قال: من يبارز؟

استقبل المسلمون التحدي بصمت. واخذوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً، ثـم نظـروا إلى النبـي صـلى اللـه عليه وسلم. لكن أحداً لم يحرك ساكناً، لأن عمرو كان مشهور بقوتـه وشـجاعته. ومـع أنـه جـرح عدة مرات، إلا أنه لم يخسر أية مبارزة ولم يرحم خصما. وكانت تنسج حوله القصص والحكايات. فكان يقال أنه يعادل خمسمائة فارس، وأنه يستطيع رفع فرس بيديه ويلقيها على الأرض، وأنـه يسـتطيع أن يحمل عجلا بيده اليسرى ويستخدمه كترس في القتال؛ وأنه يستطيع كذا وكـذا. وكانـت هـذه القصـص عن بطولته لا تنتهي. وقد نسج الخيال حول هذا المحارب الأساطير.

لذا فقد ظل المسلمون صامتين، فضحك عمرو باستهزاء وشاركه القرشيون في ضحكته لأنهم وقفـوا قريبين من الخندق وكانوا يشاهدون ويسمعون كل ما يجري.

عندئذ تابع عمرو كلامه: ((إذن لا يوجد من يملك شجاعة الرجال))؟

أين إسلامكم وأين نبيكم؟ عند سماع هذا التقريع والتحدي، ترك علي بن أبي طالب موقعه في الصف الأول للمسلمين، واقترب من النبي وطلب منه أن يأذن له بمنازلة عمرو وإخراسه نهائياً، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن له. فعاد علي إلى موقعه.

فكان هنالك موجه أخرى من الضحك والاستهزاء بالمسلمين وتحديهم. فذهب علي مرة ثانية إلى النبي لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن له. ثم تمادى عمرو في تحديه وبشكل مهين أكثر من ذي قبل وقال: ((أين جنتكم التي تقولون إن من يستسهد في المعركة يدخلها؟ ألا تستطعون إرسال رجل لمنازلتي؟)) عندئذ ذهب علي للمرة الثالثة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في عيني علي نظرة يعرفها جيداً، وعرف إن علياً لا يمكن كبح جماحه هذه المرة. فنظر إلى علي بحنان ونزع عمامته ولفها على رأس علي ثم أخرج سيفه وطوق به خصر علي ودعا له بالتوفيق.

كان السيف الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي ملكا لمشرك يدعى منبأ بن حجاج. وقد قتل هذا الرجل في معركة بدر، ووصل السيف إلى المسلمين كجزء من غنائم الحرب. وأخذ النبي السيف لنفسه. وبعد أن أصبح هذا السيف بيد علي صار أشهر سيف في الإسلام، إذ قتل عدة رجال في مبارزات متكافئة أكثر من أي سيف في التاريخ، وكان هذا السيف يسمى «ذو الفقار»

خرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين وسار باتجاه المشركين الذين اقتحموا الخندق ووقف النفر على مسافة من عمرو، وتقدم علي إلى مسافة المبارزة منه.

كان عمرو يعرف علياً جيداً إذ كان صديقاً لوالده أبي طالب، فضحك عمرو لدى مشاهدته علياً مثلما يضحك الرجل من الصبي.

فنادى علي: يا عمرو، إنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى ظلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا ابن

أخي؟ فوالـلـه ما أحب أن أقتلك، قال له علي: «ولكني والـلـه أحـب أن أقتلـك»، فحمـي عمـرو عنـد ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على علي، وبدأ القتال.

ضرب عمرو علياً عدة ضربات، لكن علياً لم يصب بأذى. فكان يتلقى الضربة بسـيفه أو بترسـه، أو يتحرك جانبا لتفادي ضربات عمرو، وتعجب عمرو كيف يحدث هذا إذ لم يصمد طويلاً أي رجل سـبق تبارز معه.

ثم تتابعت الضربات بسرعة، ورمى علي سيفه وترسه على الأرض وانـدفع كالسـهم وأطبـق بيديـه على خناق عمرو، وبضربة بارعة أخلت بتوازن عمرو، سقط عمرو على الأرض وقد حدث ذلـك بثـوان. ثم جلس علي على صدر عمرو وبدا الهمس يدور في صفوف الجيشين، وحبس الجميع أنفاسهم.

تحول الارتباك البادي في وجه عمرو إلى غضب. فهو مستلق على الأرض وفوق صدره هذا الشـاب الصغير الذي يقل حجمه عن نصف حجم عمرو. لكن عمرو لم ينتـه، فهـو مـا يـزال مصراً عـلى كسـب المبارزة واستعادة مركزه كمحارب فذ. وهو سيلقي بهذا الفتى في الهواء كورقة تذريها الرياح.

احمر وجه عمرو، وانتفخت أوداجه، وأخذت عضلات جسمه تهتز عندما ضغط عـلى قبضـة عـلي ليبعدها عن عنقه. لكنه لم يستطع زحزحتها قيد أنملة.

فقال علي: «أعلم يا عمرو أن النصر والهزيمة من عند الـلـه. وإني أدعـوك إلى الإسـلام. وبـذلك لـن تنجو من الموت فقط، ولكنك ستكسب رضى الـلـه في الحياة الدنيا والآخرة». ثم استل علي خنجراً حاداً من نطاقه ووضعه قريباً من عنق عمرو.

لكن هذا كان فوق طاقة عمرو، فهل عليه أن يعيش بقية حياته تحت ظل الهزيمـة والعـار؟ وقـد اعتبرته الجزيرة العربية أحد أعظم أبطالها. وهل يرضى أن يقال عنـه أن قبـل بإنقـاذ حياتـه في مبـارزة لقاء خضوعه واستسلامه لشروط خصمه؟ كلا! إن عمرو قد عاش بالسيف وسيموت بالسـيف. فحياتـه التي قضاها بالعنف يجب أن تنتهي بالعنف. فجمع لعابه في فمه وبصق في وجه علي!

عرف عمرو ماذا سيحدث. عرف أن علياً سوف يرفع ذراعه الأيمن في الهواء ثم يغرز الخنجر في عنقه. كان عمرو رجلاً شجاعاً وهو يستطيع أن يواجه الموت بدون وجل. فقوس ظهره ورفع ذقنه ليقدّم عنقه إلى علي.

لكن ما حدث أثر ذلك تركه في حيرة شديدة. لقد نهض علي بهدوء من على صدر عمرو، ومسح البصاق عن وجهه، ووقف على بضع خطوات منه وقال له: «اعلم يا عمرو، إني اقتلك فقط في سبيل الله وليس لدافع آخر، وبما أنك بصقت في وجهي، فإن قتلي لك الآن يمكن أنه يكون لدافع انتقام. لذلك فإنني أعفو عنك. انهض وعد إلى قومك!».

ونهض عمرو، لكن لا معنى لرجوعه إلى قومه خاسراً. إنه يرغب في أن يعيش منتصراً أو لا يعيش أبداً. فالتقط سيفه في محاولة أخيرة لإحراز النصر، وهجم على علي إذ ربما يصيبه على حين غرة.

كان لدى علي وقت كاف لالتقاط سيفه وترسه والاستعداد لتلقي الضربة. وكانت الضربة التي سددها عمرو الآن وهو في حالة من اليأس والغضب أشد ضربة في المبارزة. لقد حطم بسيفه ترس علي، لكنه لم يستطع أن يؤثر سوى إحداث جرح غير عميق في صدع علي. وكان الجرح أبسط من أن يزعج علياً. وقبل أن يتمكن عمرو من رفع سيفه مرة أخرى، تلألأ ذو الفقار في ضوء الشمس وهوى على عمرو محدثاً جرحاً عميقاً في عنقه. وتدفق الدم من عمرو كالنافورة. وقف عمرو للحظات بدون حراك، ثم بدأ جسمه يترنح كالثمل. ثم انكفأ على وجهه جثة هامدة.

لم تهتز الأرض عن اصطدام ذلك الجسد الضخم بها، فالأرض ثابتة جدا. لكن تل سلع اهتزّ من صيحة «الله أكبر» التي انطلقت من حناجر ألفي مسلم. وسمع صدى صيحة النصر في طول الوادي وعرضه قبل أن تهدأ في قلب الصحراء. بعد ذلك، انقضت مجموعة المسلمين على الستة الباقين من قريش. وبنتيجة الاقتتال الذي جرى بالسيوف، قتل قرشي آخر كما استشهد مسلم واحد. وبعد بضع دقائق

انسحبت مجموعة القرشيين وعادت بسرعة عبر الخندق. وسقطت حربة عكرمة أثناء قفزة فوق الخندق ونظم الشاعر حسان بن ثابت شعراً كثيراً حول هذه الحادثة. ولم ينجح رجل يدعى نوفل بن عبد الله، وهو ابن عم خالد، في اجتياز الخندق وسقط فيه. وقبل أن يتمكن من النهوض، وصل المسلمون إلى حافة الخندق ورموه بالحجارة. فقال لهم: «يا معشر العرب قتله أحسن من هذه». فنزل إليه علي فقتله.

عادت الآن مجموعة المسلمين إلى المعسكر، ووضعت حراسة مشددة على مكان العبور.

محاولة خالد بن الوليد:

بعد ظهر اليوم التالي، تحرك خالد بسريته، على أمل أن ينجح حيث فشل عكرمة. وحاول أن يعبر الخندق، ولكن الحراس المسلمين الواقفين على نقطة العبور شاهدوه في هذا الوقت، فتقدموا وانتشروا على الخندق لمنع عبور خالد. وتم تبادل رمايات كثيفة بالنبال فقتل مسلم وقرشي، ولم يستطع خالد العبور.

المقاومة الشرسة:

وبما أن المقاومة الفورية التي ظهرت عند الخندق كانت شديدة بحيث لا يمكن التغلّب عليها، فقد قرر خالد أن يلجأ إلى الخدعة. فتحرك بسريته إلى الخلف وكأنه تخلى عن نيته عن عبور الخندق، ووضعها على مسافة من الخندق. فانطلت الخدعة على المسلمين إذ اعتقدوا أن خالد قد تخلى عن محاولة عبور الخندق، وانسحبوا وبدؤوا في الاسترخاء ، وهم ينتظرون سكون الليل وهدوءه. وفجأة عاد خالد بسريته، وقبل أن يتمكن الحراس المسلمون من الانتشار مرة ثانية، عبر الخندق رهط من القرشيين بقيادة خالد. ولم يكد يتقدم هذا الرهط عبر الخندق، حتى انتشر المسلمون بسرعة واستطاعوا إيقاف خالد عند رأس الجسر الذي استطاع أن يحتله

وحاول خالد أن يتابع التقدّم، لكن مقاومة المسلمين كانت قوية جدا، ولم يحقـق نجاحـاً، وحـدث اشتباك بالأيدي بين رهـط القرشـيين والحـراس المسـلمين فقتـل خالـد أحـد المسـلمين. وكـان «وحشي» موجوداً مع رهط القرشيين، فقتل مسلما بـنفس المـزراق الـذي قتـل بـه حمـزة. وقبـل أن يمضي وقـت طويل، انسحب خالد عبد الخندق بعد أن رأى أن الموقف ميئوس منه. وكان هذا الاشـتباك آخـر عمـل عسكري رئيسي في معركة الخندق.

التذمر والقلق في صفوف الأعداء:

وفي اليومين التاليين لم يحدث أي نشاط سوى تبادل رمايات متفرقـة بالنبـال، والتـي لم تـؤثر عـلى أحد من الجانبين. وبدأ طعام المسلمين بالنفاذ، لكن شجاعتهم كانت أقوى من يأسـهم ففضـلوا المـوت جوعاً على الاستسلام للمشركين. أما في معسـكر الأحـزاب فبـدأ الـروح المعنويـة بالانهيـار وبـدأ التـذمر بالظهور. وعرف كل واحد بأن الحملة التي كانت من المتوقع أن تقود إلى نصر مبـين، انتهـت بالفشـل. وانتشرت البلبلة بين الصفوف، وأصبح الموقف لا يطاق لأن أحداً لم يستطع أن يجـد مخرجـاً مـن هـذا المأزق.

قدرة اللـه سبحانه:

وفي مساء الثلاثاء، الثامن عشر من آذار، هبت على منطقة المدينة عاصفة هوجاء. وبـدأت الريـاح الباردة تعصف بمعسكر الأحزاب وتحدث صريراً عبر الوادي. وانخفضت درجات الحرارة. كـان معسـكر الأحزاب أكثر تعرضاً للعاصفة من معسكر المسلمين. وبـدا كـأن الريـاح تريـد أن تنـتقم مـن الأحـزاب. فأطفأت النيران، وقلبت قدور الطعام، واقتلعت الخيام. واندس المشركـون تحـت أغطيـتهم وعبـاءاتهم اتقاء العاصفة، وهم ينتظرون نهاية لحالتهم، هذه النهاية التي يبدو أنها لن تأتي.

الهزيمة:

لم يسـتطع أبـو سـفيان أن يتحمـل أكـثر مـن ذلـك. فـنهض واقفـا، وصـاح بـأعلى صوته مخاطباً رجاله: «يا معشر قريش، إنكم والـلـه ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلـك الكراع والخف واختلفنا وبنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا مـن شـدة الريـاح

ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل». ثـم قـام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به عـلى ثـلاث، وانطلـق هـو ورجالـه مبتعـدين عـن العاصفة الشديدة. وسمعت غطفان بما فعلـت قـريش فاشـمروا راجعـين إلى بلادهـم. وهكـذا عـادت الأحزاب إلى ديارها. وكان خالد وعمرو بن العـاص يسـيران بسريـتهما في مـؤخرة جـيش قـريش بمهمـة حرس مؤخرته، خوفاً من قيام المسلمين بمطاردتهم. كـان الأمـر قاسـياً بالنسـبة لأبي سـفيان الـذي عـاد بجيشه إلى مكة، كما أن وطأة الفشل كانت ثقيلة على صدره.

وفي صباح اليوم التالي وجد المسلمون أن الأحزاب قد ذهبت، فعادوا إلى منازلهم في المدينة. كانت هذه هي المحاولة التي قام به القرشيون لسحق المسلمين، حيث ظلوا بعد ذلك في وضع دفاعي.

تاريخ الغزوة.

انتهت غزوة الخندق. وقد خسر كل جانب أربعة أشخاص. وكانت هـذه الغـزوة نصراً للمسـلمين لأنهم حققوا هدفهم بالدفاع عن أنفسهم وعن بيوتهم ضد الأحزاب، بينما فشلت الأحزاب في محاولتها للقضاء على المسلمين. وفي الحقيقة، فشلت الأحزاب في إحداث أي ضرر للمسلمين. استمر الحصـار ثلاثـة وعشرين يوماً وكانت وطأته شديدة على كلا الجانبين لقد انتهى الحصار بسـبب هبـوب العاصـفة، لكـن هذه العاصفة لم تكن سبب رفع الحصار، لكنها كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وللدقة في التعبـير، فإن هذه العملية كانت حصاراً ومجابهة أكثر من كونهـا معركـة، لأن الجيشـين في الحقيقـة. لم يشـتبكا في القتال.

الفائدة.

كانت هذه الغزوة أول مثل في التاريخ الإسلامي عـلى اسـتخدام السياسـة والدبلوماسـية في الحـرب، وهي تظهر تفاعل السياسة والقوة في تحقيق الهدف القومي.

وإن استخدام القـوة المسـلحة - وهـي إحـدى الملامـح العنيفـة للحـرب - يـتم فقـط عنـدما تفشـل الإجراءات السياسية في تحقيق هدف الدولة. وعنـدما يصـبح اسـتخدام السـلاح أمـراً لا مفـر منـه، تقـوم السياسة مع أداتها الرئيسية وهي الدبلوماسية، بتمهيد الطريـق لاسـتخدام القـوة المسـلحة. فهـي تهيـئ المسرح، وتضعف العدو، وتقلل قوته إلى درجة معينة بحيث تستطيع القوة المسـلحة أن تسـتخدم ضـده مع أقصى احتمال للنجاح.

وهذا ما فعله الرسول صلى الـلـه عليه وسلم تماماً. فقد استخدم أداة الدبلوماسـية لبـذر الشـقاق في صفوف العدو وإضعافه، ليس من حيث العدد فقط ولكن من حيث الروح المعنوية أيضا.

ولم يستطيع معظم المسلمين أن يدركوا ذلك، لكنهم كانوا يتعلمون من قائدهم. أن كلمات النبـي صلى الـلـه عليه وسلم: ((الحرب خدعة)) بقيت تتردد وتستخدم في حملات المسلمين فيما بعد.

تحليل غزوة الخندق (الأحزاب)

قوات الطرفين

1- المسلمون. ثلاثة آلاف رجل بقيادة الرسول صلى الـلـه عليه وسلم.

2- المشركون. عشرة آلاف عدا اليهود من بني قريظة، منهم أربعـة آلاف مـن قـريش وسـتة آلاف من بني سليم وأسد وفزازة وأشجع وغطفان.

كانت قريش بقيادة أبي سفيان.

وكان غطفان بقيادة عيينة بن حصن والحارث بن عوف.

وكانت أشجع بقيادة مسعر بن دخيلة.

أهداف الطرفين.

1-المسلمون.	الدفاع عن الإسلام.

–2المشركون واليهود .القضاء على المسلمين وإنتهاب أموالهم وذراريهم.

التوقيت.

كانت غزوة الخندق في شوال من السنة الخامسة للهجرة واستمر الحصار حوالي شهر واحد.

قبل المعركة.

1- **المسلمون.**

قرر المسلمون البقاء في المدينة وحفروا خندقاً عميقاً يحيط بشمال المدينة .ويقع بين حرة المدينة وجبل سلع، لأن هذه المنطقة هي المنطقة الوحيدة المكشوفة، إذ إن جهات المدينة الأخرى محاطة، بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة في أطراف المدينة عدا الشمالية منها، حيث أنها مكشوفة كما أسلفنا، لذلك أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق، في هذه المنطقة، ولم يكن حفر الخنادق للأغراض الدفاعية معروفاً عند العرب من قبل.

قسم الرسول صلى الله عليه وسلم منطقة الحفر على أصحابه :لكل عشرة منهم أربعون ذراعا، واشتغل هو بالحفر أيضاً، كأي فرد منهم، بل كان المسلمون يستعينون به عندما تصادفهم بعض العقبات أثناء الحفر، كظهور الصخور، فيحضر بنفسه لتفتيتها.

وكان العمل يستمر طيلة النهار، ثم يأوي المسلمون ليلاً إلى دورهم ليأخذوا قسطاً من الراحة، وقد سيطر الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه على العمل .فلا يذهب أحد لعمله الخاص إلا بموافقته.

جمع الرسول صلى الـلـه عليه وسلم النساء والأطفال في بيوت قوية البنيان في منطقة أمينة داخل المدينة إفادة من مناعتها لحمايتهم، وهجروا البيوت الواهنة.

بعد إنجاز حفر الخندق، احتل المسلمون مواضعهم خلف الخندق واستفادوا من مناعة جبل سلع لحماية جناحهم الأيسر من الالتفات لقطع خط رجعتهم.

2- المشركون واليهود.

قصد نفر من اليهود قريشاً في مكة منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، فدعوهم إلى حرب الرسول صلى الـلـه عليه وسلم ، ووعدوهم أنهم سيكونون معهم في القتال.

فلما وافقت قريش، قصد اليهود غطفان وغيرها من القبائل، ودعوهم إلى حرب الرسول أيضاً، وأخبروهم أن قريشاً معهم على ذلك، فوافقت غطفان والقبائل الأخرى.

لما وصلت قريش وغطفان والقبائل الأخرى إلى ضواحي المدينة، استطاع حيي بن أخطب التأثير على اليهود من بني قريظة، فنكثوا عهدهم مع المسلمين وانضموا مع الأحزاب.

كانت مواضع قتال الأحزاب في ضواحي المدينة كما يلي:

1- قريش في موضع مجمع الأسيال.

2- غطفان وقبائل نجد في موقع ذنب بني نقمي.

3- بنو قريظة في حصونهم في ضواحي المدنية.

سير القتال:

تحرج موقف المسلمين كثيراً، خاصة بعد انضمام بني قريظة للأحزاب، فقد كان بإمكان هؤلاء اليهود التسلل إلى داخل المدينة والتعريض بالنساء والأطفال خاصة وأنهم يعرفون تفاصيل مسالكهم لأنهم من أهلها، مما يؤثر على معنويات

المسلمين الذين يقاتلون في ساحة المعركة لأنهم أصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم وذراريهم وأموالهم.

كما كان بإمكان اليهود القيام بحركة جريئة لقطع خط رجعة المسلمين إلى داخل المدينة .وبذلك يفسحون المجال للأحزاب لاقتحام الخندق دون مقاومة تذكر.

لذلك كان وقع نكث بني قريظة لعهدهم شديد على نفوس المسلمين.

ارسل اليهود رجلا منهم إلى داخل المدينة، فاستطاع التسلل إلى الدور التي تجمع به النساء الأطفال، ولكن هذا اليهودي لم يعد إلى قومه ليخبرهم عن مواضع النساء والأطفال وعن درجة مناعتها وحمايتها، لأن المرأة مسلمة رأته يستطلع المراضع فاستطاعت قتله مستفيدة من عمود خشبي.

إن هذا اليهودي كان دورية استطلاع للحصول على المعلومات عن مواضع النساء والأطفال، حتى يقوم بهجوم مباغث عليهم بعد التأكد من عدم تيسر الحماية لهم، ليضطروا المسلمين إلى الانسحاب من مواضعهم الأصلية لنجدة أهليهم وإنقاذ أموالهم.

إن قتل هذا اليهودي خلص المسلمين من خطر داهم، إذ جعل اليهود يفكرون أن في داخل المدينة حراساً أشداء من المسلمين، وليس من السهل التخلل من هذه الحراسة الشديدة .لذلك قبع اليهود في حصونهم لا يفكرون بالخروج.

تحركت مفرزة من فرسان قريش فيهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل، ومروا ببني كنانة واستثاروا حميتهم للقتال، فلما وصلت هذه المفرزة إلى الخندق واستطلعوا منطقة ضيقة فيه، فعبروها بخيولهم، فخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين للقائهم، واتجهوا فورا إلى الثغرة التي عبر المشركون منها لقطع خط رجعة المشركين أولاً ولمنع الإمدادات من الأحزاب إليهم ثانياً، ثم نازل علي بن أبي طالب عمر بن عبد ود فقتله، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين، وعادت بقية فرسان قريش هاربة إلى قواعدها.

قامت مفرزة من المشركين بالهجوم على المسلمين باتجاه موقع الرسول صلى اللـه عليه وسلم، فقاتلهم المسلمون النهار كله حتى الليل، فلما حانت صلاة العصر تحرج موقف المسلمين لافتراق المشركين من منزل الرسول صلى اللـه عليه وسلم، حتى لم يستطع المسلمون أن يصلوا، ولكنهم استطاعوا مع الليل صد مفرزة المشركين خائبة على أعقابها.

حاول الرسول صلى اللـه عليه وسلم أن يرد بعض الأحزاب عن المدينة لقاء ثلث الثمار، وكاد أن يصل إلى مفاوضاته مع قادة غطفان إلى هذا الاتفاق، ولكن سادات الأوس والخزرج اقترحوا ألا يعطوا المشركين شيئا من ثمارهم، فوافق الرسول صلى اللـه عليه وسلم على اقتراحهم هذا.

أثر بقاء الأعراب مدة طويلة حول المدينة على معنوياتهم خاصة وأن الموسم شتاء، وأن الأعراب لا يطيقون الصبر طويلا على الحصار ولا على قتال مديد بصورة عامة، لذلك أخذوا يبدون تذمرهم من بقائهم مدة طويلة دون جدوى.

جاء نعيم بن مسعود إلى الرسول صلى اللـه عليه وسلم وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه، فقال له الرسول: إنما أنت رجل واحد .فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

خرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية، فقال لهم :(عرفتم ودي إياكم، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم :البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحولوا منه، وأن قريشاً وغطفان إن رأوا نهزه أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، ونصحهم بألا يقاتوا حتى يأخذوا منهم رهناً من أشرافهم من أجل الثقة بهم.

قالت بنو قريظة :(أشرف بالنصح ولست عندما بمتهم) .ثم خرج إلى قريش، فقال لهم :(بلغني أن قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمد :هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون

معك على من بقي منهم؟ فأجابهم :أن نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنـا مـن رجـالكم، فـلا تـدفعوا لهم رجلاً واحداً).

خسائر الطرفين.

1- المسلمون .أربعة شهداء

2- المشركون .أربعة قتلى

أسباب فشل الأحزاب.

1- قيادة غير موحدة.

لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القـوات المتـيسرة وتوجيهها للعمـل الحاسم في الوقت الحاسم.

2- المباغتة بالخندق.

لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هـذا الأسـلوب، كـما لم تكـن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الموقف.

لذلك بقي القتال متوقفاً طول مدة الحصار، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولـة اجتيـاز الخندق باءت كلها بالفشل.

3- الطقس.

كان موسم القتال شتاءً، وكان الأعراب في العراء يعيشون في غير مواطنهم التي يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة للتدفئة وللإعاشة وللسكنى.

4-إنعدام الثقة.

كانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى واهنة جـداً، بـل لم تكن هناك ثقة بينهم على الإطلاق.

قريش تريد القضاء على المسلمين بالإفادة من جهودهم القبائل واليهود.

والقبائل تريد الاسلاب بالدرجة الأولى من أي مصدر كان، ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بيدهم لأخذوها أيضاً.

واليهود لا يثقون بالجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى.

وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد.

5-الصبر على الحصار

يحتاج الصبر على الحصار إلى قوات مدربة لها أهداف معلومة وقيادة مسيطرة، أما القبائل فلا صبر لها على الحصار، لأنها اعتادت على التنقل بين فترة وأخرى، كما أنها لا تطيق صبراً على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة.

لذلك تذمر الأعراب من طول مدة الحصار على قصرها، وآثروا الارتحال.

دروس من غزوة الخندق

القيادة.

عندما قرر الرسول صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة ومساعدة أصحابه حتى أنه كان يساعدهم في المهمات الصعبة ويوزع الأعمال الصعبة عليهم بالتساوي.

تعبئة جديدة.

استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن أنفسهم وهذا أسلوب جديد أخذوه من سلمان الفارسي لذلك قال كلمته الخالدة(سلمان منا أهل البيت)، ليشجع التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبيات.

الحرب خدعة.

إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الإشاعات لتصديق الصفوف وبلبلة الأفكار، وبقدر ما كانت الإشاعة تعمل عمل في صفوف الأحزاب، فإن الإشاعة لم يكن لها أي أثر في صفوف المسلمين.

المبادأة.

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم في اليوم الذي انتهت به غزوة الخندق، حتى شمل الإسلام الجزيرة العربية.

العبر والعظات.

أولاً :لقد كان من جملة الوسائل الحربية التي استعملها المسلمون في هذه الغزوة حفر الخندق ولقد كانت غزوة الأحزاب أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يحفر فيها الخنادق.

ثانياً :توضح لك حقيقة المساواة التي يرسيها المجتمع الإسلامي بين جميع أفراد لمسلمين .وتكشف لك أن العدالة والمساواة أنهما ليستا شعارات يزين بها المجتمع الإسلامي وإنما هما الأساس الواقعي.

ثالثاً :تمتلئ به نفسه من محبة أصحابه والشفقة عليهم وتعطيك مثالاً آخر للخوارق والمعجزات التي أكرم الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم.

رابعاً :مبدأ الشورى كان واضحاً دلالةً على مشروعية الشورى.

خامساً :نصر المسلمين وهزيمة المشركين.

سادساً :لقد فاتت النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس.

حقا إن غزوة الأحزاب كانت معركة فاصلة، كان ثمرتها أن يئس كل معسكر يعادي الإسلام من الوقوف في وجهه، لقد حاولت معسكرات الكفر مجتمعة أن

تستأصل شأفة المسلمين، فباءت بالفشل، وحصدت الخيبة والعلقم، ورجعت بخفي حنـين، فكيـف إن تفرقت وانفرد كل معسكر عن حليفه .لقد عجزوا عن تحقيق هدفهم مجتمعين، فهم أشـد عجـزاً عـن ذلك وهم متفرقون، بل لقد استولى اليأس على قلوبهم وعلى نفوسهم وهم ينتظرون مصيرهم المحتـوم على يد رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم.

إن التاريخ لم يدون لنا غير حادثة مفردة عن شخصية كان لها سلطان روحي وزمني أيضاً على أمة من الأمم، ومع ذلك فقد عملت مثل عامل عادي، جنباً إلى جنب مع أتباعها، في ساعة الحـرج الـوطني العظيم.

غزوة مؤتة

بعد وصول خالد إلى المدينة بثلاث أشهر، سنحت له الفرصة ليظهر ما يستطيع أن يفعله، كجندي وكقائد، للدين الذي اعتنقه.

أسباب الغزوة.

بعث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم مبعوثاً إلى أمير بصرى الغساني وحمله رسالة تدعو الزعيم لاعتناق الإسلام .وعند وصول المبعوث إلى مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني، وقتله، وأعتبرت هذه الجريمة عملاً شائنا بين العرب، لأن المبعوثين الدبلوماسيين كانوا يتمتعون بحصانة تقليدية ضد أي اعتداء بالرغم من عداوة الجانب الذي يمثلونه .وأثارت أنباء هذا الاعتداء الغضب في المدينة.

وأعدت حملة في الحال لتأديب قبيلة غسان، وعيّن النبي صلى اللـه عليه وسلم زيد بن حارثة قائداً للحملة وقال) :(إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد اللـه بن رواحة على الناس)) .فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف .وكان خالد من بينهم، جنديا ضمن صفوف المسلمين .أسند النبي صلى اللـه عليه وسلم المهمة إلى زيد وهي تتلخص في البحث عن الرجل المسؤول عن جريمة قتل المبعوث المسلم، وقتله، ثم الطلب من أهل مؤتة أن يدخلوا في الإسلام .فإذا قبلوا ذلك فلن يلحق بهم أي أذى .وعندما انطلقت قوات المسلمين لم تكن تعرف مقدار قوة العدو الذي ستقاتله.

كانت المعنويات مرتفعة عندما بدأت قوة المسلمين بالمسير من المدينة .ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل.

موآب من أرض البلقاء في مائة ألـف مـن الـروم، وانضـمت لهـم بعـض القبائـل .فلـما بلـغ ذلـك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا :نكتب إلى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمره فـنمضي لـه، قـال :فشـجع النـاس عبـد اللـه بن رواحه وقال يا قوم، واللـه إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة وما نقاتل النـاس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الـذي كرمنـا اللـه بـه فـانطلقوا فإنمـا هـي إحـدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس :قد واللـه صدق ابن رواحـه، فـمضى النـاس، فقـال عبـد اللـه بن رواحة أبياتا من الشعر لإثارة الحماس ورفع المعنويات.

الاستعداد للمعركة.

ووصل المسلمون إلى تخوم البلقاء حيث لقيتهم جموع هرقل مـن الـروم والغساسـنة بقريـة مـن قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقـال لهـا مؤتـة، فـالتقى النـاس عندها فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له :قطبة بن قتـادة وعـلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له :عباية بن مالك ثم التقى الجانبان استعداداً للقتال .حدث ذلـك في الأسبوع الثاني من أيلول عام 629م (الأسبوع الثالث من جمادى الأولى عام 8هجرة) .نظم زيـد قواتـه بالأسلوب العادي وهو :القلب والميمنة والميسرة .وكانت الميمنة كما ذكرنا بإمرة قطبة والمـيسرة بـإمرة عباية .وأما القلب فكان بإمرة زيد نفسه، وكان خالد في القلب أيضاً .كان ميدان المعركة يقع إلى الشرق من قرية مؤتة الحالية بحوالي ميل واحد .والأرض هنا منبسطة، لكن يوجد فيها تموج طفيـف، كـما أن الانحدار الخفيف للسلسلة الجبلية غير المرتفعة يقـع خلـف المسـلمين عنـدما يواجهـوا الغساسـنة إلى الشمال.

التعرّض العسكري.

شكل الغساسنة، الـذين كـانوا بقيـادة مالـك بـن زافلـة، قـواتهم عـلى شـكل كتلـة عميقة لمواجهة المسلمين .وقد قدر بعض المؤرخين أن قواتهم بلغت مائـة ألـف، بيـنما

يضاعف البعض الآخر ذلك الرقم، أن هذه التقديرات لا شك أنها خاطئة .ربما كانت قوات العدو تتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً .وفشل المسلمون في هذه المعركة .فلو كان تعداد الأعداء ضعف عدد المسلمين فقط، لتمكن المسلمون من دحرهم بدون شك، لكن عددهم كان يفوق عدد المسلمين عدة مرات وهذا ما مكنهم من إلحاق الهزيمة بالمسلمين .وعلى هذا الأساس تم تقدير قوات العدو بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً.

بداية المعركة.

بدأت المعركة، والتحم الجيشان .فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل بها حتى إذا الحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها، ثم قاتل القوم حتى استشهد .وهنا بدأت الفوضى تدب في صفوف المسلمين، لكن عبد الله بن رواحه أخذ الراية بسرعة، ثم تقدم بها –وهو على فرسه –واستطاع أن يستعيد النظام .ثم قاتل حتى استشهد أيضاً.

الآن دبت الفوضى في صفوف المسلمين .إذ هرب بعضهم من ساحة المعركة، لكنهم توقفوا على مسافة ليست بعيدة عنها .واستمر البعض الآخر في المقاومة بشكل غير منظم بمجموعات صغيرة تتألف من شخصين أو ثلاثة أو أكثر .ولحسن حظ المسلمين، لم يستغل العدو النجاح، فلو فعل ذلك لتمكن من إبادة المسلمين الذين كانوا بدون قائد .وربما يرجع سبب ذلك للبسالة والشجاعة التي أظهرها قادة المسلمين، وكذلك للجرأة التي قاتل بها المسلمون مما جعل العدو يتخلى عن القيام بأعمال حاسمة وجريئة ضدهم.

عندما سقط عبد الله، أخذ الراية ثابت بن أرقم، فقال) :(يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا أنت، قال :ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد)) .فأخذ خالد الراية وتولى القيادة.

أصبح الموقف الآن خطيراً ومن الممكن أن يتحول بسهولة إلى ما هو أسوأ، ويؤدي إلى هزيمة تامة للمسلمين .لقد أظهر القادة الذين تولوا القيادة قبل خالد شجاعة أكثر مما أظهروه من فن القتال والدراية في هذه المعركة .أستعاد خالد السيطرة على جيشه الصغير ووضعه بترتيب قتال منسق .وكان عليه أن يختار أحد الحلول الثلاثة التالية :الأول، أن ينسحب وينقذ المسلمين من الدمار، ولكن هذا الحل يعتبر هزيمة وسيلام على جلبه العار لجيش المسلمين .والثاني، أن يتحول إلى الدفاع ويستمر في القتال، وفي هذه الحالة فإن التفوق في قوة العدو سيؤدي إلى إنهاء المعركة لصالح العدو .أما الثالث، فهو أن يهاجم ويقلب توازن العدو، وبذلك يكسب خالد مزيداً من الوقت لدراسة الموقف ووضع أفضل خطة للعمل .كان الحل الثالث هو أقرب الحلول لطبيعة خالد، لذا قرر تبنيه.

خطة خالد للإنقاذ.

هاجم المسلمون بعنف على طول الجبهة .واندفعوا للأمام وفي مقدمتهم خالد .إن المثل الذي ضربه خالد قد أثار الحمية والشجاعة في صفوف المسلمين، وازدادت المعركة عنفا .واستمر القتال القريب بين الجانبين لبعض الوقت، واندفع قُطبَة، الذي كان يقود ميمنة المسلمين، إلى الأمام وقتل القائد الغساني ((مالك)) في مبارزة .وأدى ذلك إلى تثبيط معنويات العدو، وإلى حدوث نوع من الفوضى في صفوفه .وانسحب الغساسنة وهم لا يزالون يقاتلون، على أمل أن يكسبوا الوقت لإعادة تنظيم صفوفهم .وفي هذه اللحظة، كان خالد يتناول السيف العاشر، حيث كسر قبل ذلك تسعة سيوف في مبارزات عنيفة.

عبقرية خالد العسكرية.

عندما تراجع المسلمون، جمع خالد قواته وقطع التماس مع العدو وانسحب مع قواته بعيداً إلى الخلف .وأصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال، وكان كلاهما يلتمس الراحة وإعادة التنظيم .وانتهت هذه الجولة من المعركة لصالح المسلمين، وفقد المسلمون حتى الآن إثنا عشر رجلاً فقط .أما العدو فلا توجد

معلومات عن مقدار خسارته، لكنها لا شك كانت جسيمة، لأن كل قائد من قادة المسلمين الذين تولوا القيادة قبل خالد كان شجاعاً ومقاتلاً بارعاً، كما أن السيوف التي كسرت بيد خالد لا شك أنها كسرت في أجساد الأعداء .وعلى كل الأحوال، فإن الموقف لم يُظهر أي أمل في نجاح آخر للمسلمين .لقد أبعد خالد الهزيمة عن المسلمين وأنقذهم من العار والكارثة؛ لكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك .وفي المساء، سَحَب خالد جيشه من مؤتة وبدأ رحلة العودة إلى المدينة.

عندما وصل أنباء عودة الجيش إلى المدينة، خرج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الذين بقوا في المدينة لملاقاة الجنود العائدين .كان المسلمون في حالة نفسية سيئة، لأنه لم يسبق لهم منذ غزوة أحد أن يقطعوا التماس مع العدو ويتركوه يسير على ميدان المعركة .وعندما وصل الجيش إلى مشارف المدينة، أخذ الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :يا فرّار فرَرتم في سبيل الله .لكن النبي صلى الله عليه وسلم هَدّأهم وقال :ليسوا بالفرّار ولكنَّهم الكُرّار إن شاء الله[1] .ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم بصوت مرتفع :إن خالدَ سيف من سيوفك فأنت تنصره[2] فمنذ ذلك اليوم سمي خالد سيف الله المسلول.

بعد ذلك تلاشى غضب المسلمين وأدركوا مدى الحكمة والشجاعة اللتين أظهرهما خالد في معركة مؤتة.

نتائج المعركة.

يصف بعض المؤرخين معركة مؤتة بأنها نصر للمسلمين، ويسميها البعض الآخر بأنها هزيمة .وفي الحقيقة لم تكن نصراً وهزيمة بل كانت معركة انسحاب، كانت انسحاباً لصالح الأعداء، لأن المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة وتركوها

---

[1] ابن هشام - الجزء 2، صفحة 382.

[2] الواقدي: المغازي - صفحة 322.

تحت سيطرة أعدائهم .كذلك لم تكن معركة مؤتة معركة كبيرة أو حتى مهمة .لكنها منحت خالداً الفرصة ليظهر كفاءته كقائد مستقل الشخصية، كما منحته لقب :سيف الله المسلول.

تحليل الأحداث في غزوة مؤتة

سبب غزوة مؤتة

وهي بأدنى البلقاء من أرض الشام وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان وكان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدّمه فضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعوث واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: (إن أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة).

كانت ناحية الشام في ذلك الوقت يسيطر عليها الروم وبعض القبائل العربية المتنصرة المحالفة للروم، ولأن تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار في توسيع رفعة الدولة الإسلامية ونشر الإسلام كان لا بد من مواصلة السير في إخضاع غير المسلمين لحكم الإسلام.

خروج الجيش إلى بلاد الشام:

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وعين زيد بن حارثة أميراً عليه، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحه -رضي الله عنهم -وانضم خالد بن الوليد -رضي الله عنه -للجيش مشاركاً لأول مرة بعد إسلامه، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه يودعون الجيش، ثم مضوا حتى نزلوا معان من بلاد الشام.

أحداث المعركة:

مـا اقـترب جـيش العـدو انحـاز المسـلمون إلى قريـة مؤتـة وتحصـنوا بهـا، واسـتعدوا لقتـال عدوهم .ودارت معركة حامية الوطيس قدم المسلمون فيها بطـولات عظيمـة، فقاتـل زيـد بـن حارثـة –رضي اللـه عنه –وهو يحمل الراية حتى استشهد .ثم حملها جعفر –رضي اللـه عنه –فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الراية عبد اللـه بن رواحه –رضي اللـه عنه –، فقاتل العدو حتى استشـهد، فأخـذ الراية ثابت بن ارقم ونادى في المسلمين أن يختاروا لهم قائداً فاختاروا خالـد بـن الوليـد –رضي اللــه عنه –أميراً، فأعاد تنظيم الجيش، حيث بدل الميسرة بالميمنة، وجعل قسماً من الجـيش يتقـدمون مـن الخلف لإيهام الروم أن هناك مدداً جاء للمسلمين، فتقاعس الروم عن مهاجمة المسـلمين، عنـدها أمـر خالد الجيش بالانسحاب راجعاً إلى المدينة بعد معركة لم ينتصر فيها الروم رغم الفارق الكبير بين عـدد المسلمين وعدد عدوهم، وقد أخبر الرسول صلى اللـه عليه وسـلم أصـحابه باستشـهاد القـادة الثلاثـة، وعيناه تذرفان الدموع، وأخبر باستلام خالد للراية، وبشرهم بالفتح على يديه قبل وصولهم إلى المدينـة وعندما قدم الجيش إلى المدينة استقبلهم الرسول صـلى اللــه عليـه وسـلم والمسـلمون، وكانـت هـذه الغزوة مقدمة لغزوة تبوك وتمهيـداً لفـتح بـلاد الشـام، حيـث عـرف المسـلمون قـوة الـروم وعـددهم وأساليب قتالهم وخططهم وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها.

وقت الغزوة:

قال ابن إسحاق رحمه اللـه :حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الـزبير قـال :بعـث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان.

تعيين القادة على جيش مؤتة:

من حديث ابن عمر رضي اللـه عنهما قال :أمر رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقـال رسـول اللــه صـلى اللــه عليـه وسـلم :إن قتـل زيـد فجعفـر، وإن قتـل جعفـر

فعبد اللـه بن رواحه، قال عبد اللـه :كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية.

وداع أهل المدينة الجيش الخارج إلى مؤتة:

من حديث عروة بن الزبير مرسلا قال:: بعث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال :إن أصيب زيد بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد اللـه بن رواحة على الناس.

فتجهز الناس، ثم تهيأوا للخروج، هم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، وسلموا عليهم، فلما ودع عبد اللـه بن رواحه مع من ودع من أمراء رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم بكى، فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال :أما واللـه ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يقرأة آية من كتاب اللـه عز وجل، يذكر فيها النار: (وإنِ مِنكُم إلا واردها على ربك حتماً مقضياً)مريم 71 :فلست أدري كيف لي بالصبر على الورود .فقال المسلمون :صحبكم اللـه ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبد اللـه بن رواحة:

لكني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة	بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جُثتي	أرشده اللـه من غاز وقد رشدا

تخلف عبد اللـه بن رواحة لحضور صلاة الجمعة:

من حديث ابن عباس رضي اللـه عنهما :قال :بعث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ابن رواحه في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة، قال فقدم أصحابه وقال :أتخلف، فأصلي مع النبي صلى اللـه عليه وسلم الجمعة، ثم ألحقهم، قال :فلما رآه رسول اللـه

صلى اللـه عليه وسلم قال :(ما منعـك أن تغـدو مـع أصـحابك؟) قـال :أردت أن أصـلي معـه الجمعـة قال :فقال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم :(لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت غدوتهم.

قتال جعفر بن أبي طالب:

من حديث يحيى بن عباد بن الزبير عن أبيه عباد قال :حدثني أبي الذي أرضعني، وكان أحد بنـي مرة بن عوف، وكان في تلك الغزوة غزوة مؤتة قال :واللـه لكأني أنظر إلى جعفر اقتحم عـن فـرس لـه شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يـا حـبذا الجـنة واقـترابها — طيـبة وبـادر شـرابها

والـروم روم قـد دنـا عـذابها — كـافرة بعيـدة أنسـابـها

عـلي إذ لاقيتها ضـرابـها

قتال عبد اللـه بن رواحة رضي اللـه عنه:

بنفس إسناد الحديث السابق قال أحد بني مرة بن عوف ... :فلما قتل جعفر أخذ عبد اللـه بـن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمـت يـا نفـس لتنزلنـه — لـتنزلن أو لـتكرهـنه

إن أجلـب النـاس وشـدوا الـرنة — مـالـي أراك تكـرهين الجـنة

قـد طـال مـا قـد كنـت مطمئنـة — هـل أنـت إلا نـطفة في شـنة

وقال أيضاً:

يـا نـفس إلا تقتـلي تـموتي — هـذا حـمام المـوت قـد صيلـت

ومـا تمنيـت فقـد أعـطيت — إن تفعـلي فـعلهما هـديت

يريد صاحبيه :زيداً وجعفراً، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعـرض مـن لحـم فقـال :شـد بهـذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس من نهسه، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال :وأنت في الدنيا !ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.≈

تولي خالد بن الوليد الإمارة وشدة بأسه:

بنفس الإسناد السابق ... :ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني العجلان، فقال :يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم قالوا :أنت، قال :ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخـذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس.

من حديث خالد بن الوليد رضي الـلـه عنه قال :لقد انقطعت في يدي يـوم مؤتـة تسـعة أسـياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية.

ومن حديث أبي قتادة رضي الـلـه عنه :بعث رسول الـلـه صلى الـلــه عليـه وسـلم جـيش الأمـراء وقال :عليكم زيد بن حارثة، فـإن أصـيب زيـد فجعفـر، فـإن أصـيب جعفـر فعبـد الـلــه بـن رواحـة الأنصاري، فوثب جعفر فقال :بأبي أنت يا نبي الـلـه ما كنت أرهب أن تستعمل عليّ زيداً، قال :امضوا فإن لا تدري أي ذلك خير، قال :فانطلق الجيش فلبثوا ما شاء الـلـه ثم إن رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم صعد المنبر، وأمر أن ينادي الصلاة جامعة، فقال رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم :(نـاب خـبر، أو ثاب خبر) .ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو، فأصيب زيـد شـهيداً، فاستغفروا له، فاستغفر له الناس، ثم أخذ اللـواء جعفـر بـن أبي طالـب، فشـد عـلى القـوم حتـى قتـل شهيداً، اشهدوا له بالشهادة، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء عبد الـلـه بـن رواحـة، فأثبـت قدميـه حتـى أصيب شهيداً، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أمـر نفسـه، فرفـع رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم إصبعه، وقال : (الـلـهم هو سيف من سيوفك فانصره).

فيومئذ سمي خالد سيف الـلـه، ثم قال النبي صلى الـلـه عليه وسلم : (انفروا فأمـدوا إخـوانكم، ولا يتخلفن أحد) ، فنفر الناس في حر شديد مشاة وركباناً.

مهارة خالد بن الوليد:

وعندما تولى القيادة خالد بن الوليد، أظهر مهارته ونبوغـه في إنقـاذ جـيش المسـلمين، مـن خـلال مكيدة حربية، فقد أدار المعركة بقية يومه، وفي الليل أمر مجموعة من المسلمين بأن يخرجوا إلى خلف الجبال ليعودوا فجراً مثيرين للغبار رافعين أصواتهم بالتكبير والتهليل، فـيظن الـروم بـأن مـدداً قـد أتى للمسلمين.

وقام بحيلة عسكرية فريدة من نوعها؛ إذ غير الميمنـة مـيسرة والمـيسرة ميمنـة والمقدمـة مـؤخرة والمؤخرة مقدمة، لتختلف الوجوه على الروم، ويدب الرعب في قلوبهم ظنا منهم أن مـدداً عظـيما قـد أتى للمسلمين.

ثم فاجأهم خالد بالهجوم على قلب جيشهم وكاد يصـل إلى قائـدهم، وهنـا رأى الـروم أن جـيش المسلمين ينتصر بالمدد الذي وصل إليهم، ثم فوجئوا بخالد بن الوليد ينسحب، فظنوا أنها خدعـة منـه، فلا يوجد جيش منتصر يقوم بالانسـحاب، لـذلك لم يتقـدموا والتزمـوا مـواقعهم، فـيما انسـحب خالـد انسحاباً تكتيكياً منظماً وعاد بجيشه سالما غانما إلى المدينة المنورة مخلفاً ((13شهيداً فقط، بعد معركة دارت على أرض الأعداء استمر 7ايام.

لمن كان النصر في هذه المعركة:

إن المسلمين قد انتصروا في غزوة مؤتة لوجود مرجحات لهذا القول مـن حـديثي أنـس بـن مالـك رضي الـلـه عنه وعوف بن مالك الأِشجعي وهما؛

حديث أنس رضي الـلـه عنه إن النبي صلى الـلــه عليـه وسـلم نعـى زيـداً وجعفـراً وابـن رواحـة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال :(أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخـذ جعفـر فأصـيب، ثـم أخـذ ابـن رواحه فأصيب –وعيناه تذرفان –حتى أخذ الراية سيف من سيوف الـلـه حتى فتح الـلـه عليهم).

وموطن الشاهد قوله عليه السلام :(حتى فتح اللـه عليهم)، في هذا دلالة على أن النصر والفتح كان بجانب المسلمين حين تولى خالد بن الوليد القيادة وتسلم الراية.

وأما حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي اللـه عنه قال :خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة من المسلمين في غزوة مؤتة، ووافقني مددي من اليمن ليس معه غير سيفه، فنحر رجل من المسلمين جزوراً، فسأله المددي طابقة من جلده، فأعطاه إياه فاتخذه كهيشة الدرقة، ومضينا، فلقينا جموع الروم، وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب، فجعل الرومي يُغري بالمسلمين، وقعد له المددي خلف صخرة، فمر به الرومي، فعرقب فرسه فخرّ وعلاه فقتله، وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح اللـه للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه السلب، قال عوف :فأتيته فقلت :يا خالد أما علمت أن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل؟ قال :بلى ولكني استكثرته .فقلت :لتردّنه إليه، ولأعرّفنكها عند رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فأبى أن يرد عليه .

قال عوف :فاجتمعنا عند رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، فقصصت عليه قصة المددي، وما فعل خالد، فقال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم :(يا خالد رُدّ عليه ما أخذت منه) قال عوف :فقلت :دونك يا خالد ألم أف لك؟ فقال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم :(وما ذاك؟) فأخبرته، فغضب رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وقال :(يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركوا أمرائي؟ لكم صفوة أمرهم، وعليهم كدره) واللفظ لأحمد.

وموطن هذا الحديث أن جيش المسلمين قد غنم من الروم غنائم عدة كان هذا السلب من بينها، ولا يغنم جيش من آخر إلا إذا كان منتصراً، واللـه أعلم.

وقد تقدم فيما رواه البخاري أيضاً عن خالد أنه قال :اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية.

وهذا يقتضي أنهم اثخنوا فيه قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم، وهذا وحده دليل مستقل على أنهم كانوا منتصرين.

حزن النبي صلى اللـه عليه وسلم لموت جعفر:

من حديث عائشة قالت :لما جاءت وفاة جعفر عرفنا في وجه النبي صلى اللـه عليه وسلم الحزن.

منزلة القادة الشهداء:

أ ــإبدال جعفر بيديه جناحين في الجنة:

عن عامر الشعبي قال:كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال :السلام عليكم يا ابن ذي الجناحين

ومن حديث ابن عباس قال :قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم : (رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً في الجنة مضرجة قوادمه بالدماء يطير في الجنة),

والرواية الثانية عن ابن عباس، (إن جعفراً يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان عوضه اللـه من يديه)

ب ــزيد بن حارثة رضي اللـه عنه:

من حديث بريدة رضي اللـه عنه قال :قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم: (دخلت الجنة، فاستقبلتني جارية شابة، فقلت :لمن أنت؟ قالت :أنا لزيد بن حارثة).

فضيلة الأمراء الثلاثة مجتمعين:

في حديث أبي أمامة الباهلي رضي اللـه عنه قال :سمعت رسول اللـه صلى اللـهعليه وسلم يقول: بينما أنا نائم إذا أتاني رجلان، فأخذا بضبعي، فأتيا بي جبلاً وعراً، فقالا :اصعد، فقلت، لا أطيقه فقالا :أنا سنسهله لك .قال :فصعدت حتى إذا

كنت في سواء الجبل إذا أنا بأصوات شديدة، فقلت ما هـؤلاء الأصـوات؟ فقـالا :عـواء أهـل النـار ثـم انطلقا بي، فإذا بقوم معلقـين بعـراقيبهم مشـققة أشـداقهم، تسـيل أشـداقهم دمـاً، فقلـت :مـا هـؤلاء فقالا :هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلّة صومهم .فقال :خابت اليهـود والنصـاري قـال سـليم يعنـي ابـن عامر الخبائري الراوي عن ابن أمامة :سمعت من رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم أم رأيه.

ثم انطلقا بي، فإذا قوم أشد شيء انتفاخاً، وأنتن شيء ريحاً كأن ريحهـم المـراحيض، قلـت: (مـن هؤلاء)؟ قالا :هؤلاء قتلى الكفار، ثم انطلقا بي، فإذا بقوم أشـد انتفاخـاً وأنـتن شيء ريحـاً كـأن ريحهـم المراحيض، قالت: (من هؤلاء؟) قالا :هؤلاء الزانون والزواني .ثم انطلقا بي، فـإذا بنسـاء ينهشـن ثـديهم الحيات، فقلت :(ما بال هؤلاء؟) قالا :هؤلاء اللاتي منعن أولادهن ألبانهن، ثم انطلقـا بي، فـإذا بلغـمان يلعبون بين بحرين قلت :من هؤلاء؟ قال :ذراري المؤمنين.

ثم أشرفا بي شرفاً، فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر لهم فقلت :من هؤلاء؟ قـالا :هـذا جعفـر بـن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد اللـه بن رواحه، ثم أشرفا شرفاً آخر فإذا أنـا بنفـر ثلاثـة، فقلـت :مـن هؤلاء؟ قالا :هذا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهم ينتظرونك).

رعاية الرسول عليه الصلاة والسلام لآل جعفر وأمر النبي صلى اللـه عليه وسلم بأن يُصنع لأهـل الميت طعام:

من حديث عبد اللـه بن جعفر رضي اللـه عنهما قال :لما جـاءت نعـي جعفـر قـال النبـي صـلى اللـه عليه وسلم :(أصنعوا لأهل جعفر طعاماً، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم).

ومن حديث عبد اللـه بن جعفر أيضاً قال :بعث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم جيشاً استعمل عليه زيد بن حارثـة وقـال :(فـإن قتـل زيـد، فـأميركم جعفـر، فـإن قتـل، واستشهد، فأميركم عبد اللـه بن رواحه)، فلقـوا العـدو فأخـذ الرايـة زيـد، فقاتـل حتـى

قتل، ثم أخذ الراية جعفر، فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية عبد اللـه بن رواحة، فقاتل حتى قتـل، ثـم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح اللـه عليه.

وأتى خبرهم النبي صلى اللـه عليه وسلم، فخرج إلى الناس فحمد اللـه، وأثنـى عليـه، وقـال :(إن إخوانكم لقوا العدو، وإن زيداً أخذ الراية، فقاتل حتى قتل، أو استشهد، ثم أخذ الراية عبـد اللــه بـن رواحة، فقاتل حتى قتل، أو استشهد ثم أخذ الراية سيف من سيوف اللـه خالد بن الوليد، ففتح اللـه عليه).

فأمهل ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال :(لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا إلي بني أخي)، قال :فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال : (ادعوا إليّ الحلاق فجيء بالحلاق، فحلق رؤوسنا ثم قال: (أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد اللـه فشـبيه خلقـي وخُلقـي)، ثـم أخـذ بيـدي فأشـالها، فقـال: (اللــهم اخلـف جعفـراً في أهلـه، وبـارك لعبـد اللــه في صـفقة يمينـه) .قالهـا ثـلاث مـرات، قال :فجاءت أمنا تفرح له.

فقال : (العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرةصلى اللـه عليه وسلم)

شهداء مؤتة:

واستشهد يومئذٍ جعفر وزيد بن حارثة وعبد اللـه بـن رواحـة ومسـعود بـن الأوس ووهـب بـن سعد بن أبي سرح وعباد بن قيس وحارثة بن النعمان وسراقة بن عمرو بن عطية وأبو كليب وجابر ابنا عمر بن زيد وعامر وعمرو ابنا سعيد بن الحارث وغيرهم.

فتح مكة

أسباب الفتح

عندما تمّ صلح الحديبية بين رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وبين قريش كان فيما شرطوا على رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وشرط لهم أن من أحب أن يدخل في عقد رسول اللـه وعهده فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد الرسول صلى اللـه عليه وسلم وعهده .وكان بين هاتين القبيلتين نزاع قديم يعود إلى أيام الجاهلية، لكن الإسلام حجز بينهم وتشاغل الناس به، وكان من المتوقع بعد صلح الحديبية أن يسود السلام بينهما، لكن ذلك لم يحدث .إذ أمسكت بنو بكر بخيط النزاع مرة أخرى .فنظمت إغارة ليلة على خزاعة، وقد ساعدت قريش بني بكر سراً وأعطتها ليس السلاح فقط بل عددا قليلاً من المحاربين كان بينهم عكرمة، وصفوان بن أمية، وقتل عشرون شخصاً من خزاعة في هذه الإغارة.

وذهب وفد من خزاعة في الحال إلى المدينة وأبلغوا النبي صلى اللـه عليه وسلم بما حدث .وطلب الوفد مساعدة المسلمين حيث أن قبيلتهم خزاعة داخلة في رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وعهده.

التفاوض:

لم يكن أبو سفيان مهتماً مباشرة بالمساعدة التي قدمتها قريش لبني بكر في الإغارة .لكنه كان يخشى أن ينقض الصلح وأن يأخذ المسلمون بالثأر، لذا فقد سافر إلى المدينة من أجل التفاوض مع المسلمين على صلح الحديبية ولدى وصوله إلى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة وحين أتى ليجلس على فراش رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم طرته عنه فقال :يه بنيه ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به

عني؟ قالت :بل هو فراش رسول الـلـه وأنت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الـلــه صلى الـلـه عليه وسلم ، قال :والـلـه لقد أصابك يا بنيه بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الـلـه صـلى الـلـه عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلم له رسول الـلـه صـلى الـلـه عليه وسلم فقال :ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال :أأنا أشـفع لكـم إلى رسـول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ؟ فو الـلـه لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الـلـه عليه وعنده فاطمة بنت رسول الـلـه وعندها حسن بـن عـلي غـلام يـدب بـين يديها، فقال :يا علي إنك أمس القوم بي رحما وإني قـد جئـت في حاجـة فـلا أرجعـن كـما جئـت خائبـا فاشفع لي إلى رسول الـلـه، فقال :ويحك يا أبا سفيان والـلـه لقد عـزم رسـول الـلــه صـلى الـلــه عليـه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال :يا ابنة محمـد هـل لـك أن تـأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت والـلـه ما بلـغ بنـي ذلـك ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم قال يا أبا الحسن إني أرى الأمـور قد اشتدت علي فانصحني، قال :والـلـه ما أعلم لك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة فقم فآجر بـين النـاس ثم ألحق بأرضك، قال :أو ترى ذلك مغنياً عني شيئا؟ قال :لا والـلـه ما أظنـه، ولكنـي لا أجـد لـك غـير ذلك، فقام أبو سفيان إلى المسجد، فقال :يـا أيهـا النـاس، إني قـد أجـرت بـين النـاس، ثـم ركـب بعـيره، فانطلق، فلما قدم على قريش قالوا :ما وراءك؟ قال :جئت محمداً فكلمته فوالـلـه ما رد علي شيئا، ثـم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت أبن الخطـاب فوجتـه أعـدى العـدو .ثـم أتيـت عليـا فوجدته الين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالـلـه ما أدري هل يعني ذلك شيئاً أم لا، قالوا :وبم أمرك؟ قال :أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قـالوا :فهـل أجـاز ذلـك محمـد؟ قـال :لا، قـالوا :ويلـك؟ والـلـه إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت؟ قال :لا والـلـه ما وجدت غير ذلك.

التحرك نحو مكة:

بعد ذهاب أبي سفيان، أمر رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم الناس بالإعداد والتجهيز السريع لعملية واسعة النطاق .كان قصده أن يجمع قواته ويحركها بسرعة وبسرية تامة بحيث لا يعلم القرشيون بمجيء المسلمين إلا بعد وصولهم إلى مكة .وبذلك لا يتوفر لقريش وقت كاف لجمع قوات أخرى من القبائل الحليفة المجاورة واجهة المسلمين .وبينما كان حشد القوات قائما على قدم وساق، علم النبي صلى اللـه عليه وسلم بأن امرأة في طريقها إلى مكة ومعها رسالة لتحذير أهل مكة من الاستعدادات التي تجهز ضدهم .فأرسل علياً والزبير بسرعة ورائها .واستطاعا أن يلحقا بالمرأة فالقيا القبض عليها وعلى الرسالة وأعاداها إلى المدينة.

بدأ تحرك جيش المسلمين من المدينة في الأول من كانون الثاني عام 620م (العاشر من رمضان، عام 8هجري) انضم عددُ كبير من القبائل المسلمة إلى التي في المدينة، كما انضم عدد آخر إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم وهو في طريقه إلى مكة .وبذلك أصبح عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل .وصل النبي صلى اللـه عليه وسلم بهذه القوة إلى ممر الظهران التي تقع على بعد عشرة أميال شمال غرب مكة، دون أن تعلم قريش بهذا التحرك .وكان هذا أسرع تحرك نفذ من قبل جيش المسلمين.

في هذا الوقت قرر العباس، عم النبي صلى اللـه عليه وسلم ، أن ينضم إلى المسلمين ويعتنق الدين الجديد .وعندما وصل جيش المسلمين إلى (الجحفة)، تقابل مع العباس وأفراد عائلته الذين كانوا في طريقهم إلى المدينة .وقد سر النبي صلى اللـه عليه وسلم عندما علم بنية العباس للدخول في الإسلام، وكانت العلاقات بين النبي صلى اللـه عليه وسلم والعباس دائماً ودية.

أهمية الاستطلاع:

وعندما وصل المسلمون إلى ممر الظهران، فكر العباس مليا في مصير أهل مكة .حيث خشي أن تؤدي الحملة إلى تدمير القرشيين فيما إذا استولى المسلمون على

مكة عنوة .لذلك انطلق العباس على ظهر بغلة الرسول، بعد موافقة النبي صلى الله عليه وسلم، لتحذير قريش من النتائج الخطيرة للمقاومة وإقناعهم بإرسال مبعوثي سلام إلى المسلمين .وحوالي هذا الوقت، خرج أبو سفيان من مكة للقيام باستطلاع شخصي فيما إذا كانت طلائع المسلمين قد وصلت.

وفي منتصف الطريق إلى مكة تقابل مع العباس .فسأل أبو سفيان العباس (ما هي أخبارك يا أبا الفضل) فقال العباس :(ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، وإصباح قريش والله (!فقال أبو سفيان :(فما الحيلة فداك أبي وأمي؟).

فقال العباس :(والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمنه لك، فركب أبو سفيان على البغلة خلف العباس .قال العباس :(فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا :من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا :عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال :من هذا؟ وقام إلي، فيما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :أبو سفيان عدو الله، الحمد الله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركضت البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، قال :فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر فقال :يا رسول الله، هذا ابو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه، قال :قلت :يارسول الله إني قد أجزته ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت :والله لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه قال :قلت :مهلا يا عمر فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال :مهلا يا عباس فوالله لأسالمنك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم) .فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) :(اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به)) .قال العباس) :(فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى

رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم))، فلما رآه الرسول صلى الـلــه عليـه وسـلم قـال) :(ويحـك يـا أبـا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الـلـه)) قال :بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصـلك !!مـا هذه والـلـه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا، فقال لـه العبـاس :ويحـك أسـلم واشـهد أن لا إلـه إلا الـلـه وأن محمداً رسول الـلـه قبل أن تضرب عنقك، قال :فشهد الحق، فأسلم، قـال العبـاس :قلـت يـا رسول الـلـه، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً، قال :(نعم من دخـل دار أبي سـفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن) .فلما ذهب لينصرف قال رسول الـلـه :(يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الـلـه فيراها) .قال :فخرجت حتى حبسـته بمضـيق الـوادي حيث أمرني رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم أن أحسبه، قال :ومرت القبائل على راياتها، كلـما مـرت قبيلة قال :يا عباس من هذه ؟ فأقول :سليم، فيقول :مالي ولسليم؟ ثم تمر القبيلة فيقول :يا عباس مـن هؤلاء؟ فأقول مزينة، فيقول مالي ومزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسـألني عنهـا، فـإذا أخبرته بهم قال :مالي ولبني فلان، حتى مرّ رسول الـلـه في كتيبته الـخضراء فيهـا المهـاجرون الأنصـار لا يرى مـنهم إلا الحـدق مـن كـثرة الحديـد، فقـال أبـو سـفيان :سـبحان الـلــه يـا عبـاس !مـن هـؤلاء؟ فقلت :هذا رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال :مـا لأحـد بهـؤلاء قبـل ولا طاقة، والـلـه يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظـيما، قلـت :يـا أبي سـفيان إنهـا النبـوة قال :فنعم إذن، فقلت :النجاة إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته :(يا مـعشر قـريش، هـذا محمداً قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبا سفيان فهو آمن) .فقامـت إليـه زوجتـه هنـد بنــت عتبــة فأخــذت بشــاربه فقالــت: (اقتلــوا الحميــت الدســم الأحمــس القــبح مــن طليعــة قوم (!قال :(ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكن، فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم بـه فمـن دخـل دار أبي سفيان فهو آمن) .قالوا :(قاتلك الـلـه، وما تغني عنـا دارك؟ قـال :(ومـن أغلـق عليـه بابـه فهـو آمـن، ومن دخل المسجد فهو آمن)، فتفرغ النـاس إلى دورهـم وإلى المسـجد .وذهـب أبـو سـفيان إلى داره، توقـع المسـلمون أن يجـدوا بعـض المقاومـة لـدخولهم مكـة .وهـم لا يسـتطيعون أن يجزمـوا بـأن

العملية ستكون هادئة، مع أن النبي صلى اللـه عليه وسلم كان يأمل بعدم إراقة الدماء، خاصة مع أعداء المسلمين الألداء أمثال عكرمة وصفوان .لذا كانت خطة النبي صلى اللـه عليه وسلم تقضي بفتح مكة بعملية عسكرية.

جغرافية مكة:

تقع مكة في وادي إبراهيم وهي محاطة بتلال سوداء وعرة مسيطرة عليها .وترتفع هذه التلال إلى ما يزيد عن ألف قدم فوق مستوى الأرض المحيط بها .ويتم الاقتراب إلى مكة بواسطة أربعة محاور تمر عبر التلال .وهذه المحاور تأتي من جهات الشمال الغربي (وغالبا من الشمال)، والجنوب الغربي والجنوب، والشمال الشرقي.

قسم النبي صلى اللـه عليه وسلم جيشه إلى أربعة أرتال، وكل رتل يتقدم على إحدى المحاور الأربعة :فالرتل الأول سيدخل مكة على طول الطريق الرئيسية المؤدية إلى المدينة من جهة الشمال الغربي عبر أذاخر، وكان هذا الرتل بقيادة عبيدة وكان النبي صلى اللـه عليه وسلم من ضمن هذا الرتل وسيدخل الرتل الثاني مكة من الجهة الجنوبية الغربية عبر ممر إلى الغرب من تل ندى وكان هذا الرتل بقيادة الزبير وسيدخل الرتل الثالث من الجهة الجنوبية عبر كداء وكان هذا الرتل بقيادة علي أما الرتل الرابع فسيدخل مكة من الجهة الشمالية الشرقية عبر الليط والخندمة؛ وكان هذا الرتل بقيادة خالد.

كان تقدم المسلمين يهدف إلى القيام بهجمات متقاربة على هدف مركزي واحد وذلك لإجبار العدو على توزيع قواته وعدم تمكنه من تركيزها على محور واحد من محاور التقدّم .علاوة على ذلك فإن العدو لو نجح في إيقاف الهجوم على بعض المحاور، فهناك محاور أخرى يمكن للمهاجمين أن يستخدمها لمتابعة الهجوم وبذلك فإن الفرصة متاحة لتحقيق النجاح.

لقد استخدمت جميع محاور الاقتراب لمواجهة متطلبات التكتيك، وكذلك لمنع هروب القرشيين؛ ولكن فيما بعد عندما قل الانتباه نجح بعض الأفراد في الهروب.

الأوامر العسكرية:

الأوامر العسكرية من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم :أكد النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب عدم القتال إلا إذا كان هناك مقاومة مسلّحة من قبل القرشيين .كما أمر النبي بعدم قتل الجرحى، وبعدم مطاردة الهاربين وبعدم ذبح الأسرى.

دخول مكة:

ثم دخل مكة في الحادي عشر من كانون الثاني عام 630م (العشرين من رمضان العام الثامن الهجري) .وقد تمت العملية بسلام ودون سفك الدماء باستثناء ما جرى في قطاع خالد .كان عكرمة وصفوان قد جمعا عصابة من المنشقين من قريش والقبائل الأخرى وقررا أن يجبرا المسلمين على الخوض معركة للحصول على النصر .فقابلا رتل خالد في الخندق، كانت هذه التجربة جديدة وغريبة بالنسبة لخالد .كان عكرمة وصفوان القائدان العدوان اللذان يجابهان خالد في المعركة أصدقاءه فيما مضى؛ كما أن صفوان متزوج من (فآخته)، شقيقة خالد وعلى كل الأحوال فالإسلام ألغى جميع العلاقات والصداقات التي كانت في الجاهلية، ولا يستطيع غير المسلم أن يدعي على مسلم بقضايا حدثت زمن الجاهلية.

الاشتباك:

هيأ القرشيون أقواسهم واستلوا سيوفهم؛ وهذا ما كان ينتظر خالد .فهاجم موقعا القرشيين، صدام قصير وعنيف، طرد القرشيون .وقتل من القرشيين أثنا عشر رجلا واستشهد من المسلمين إثنان فقط .وهرب عكرمة وصفوان من المجابهة .عندما علم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاشتباك وبعدد القتلى من المشركين، لم يسر

من خالد .وكان يرغب في عدم إرقامة الدماء؛ وقد خشي أن يكون خالد نفسه هو الذي تسبب في المناوشة، نظراً لمعرفة النبي صلى اللـه عليه وسلم لطبيعة خالد العنيفة .واستدعى النبي صلى اللـه عليه وسلم خالداً وطلب منه شرحاً لما حدث .قبل النبي تفسير خالد لما حدث ووافق على ذلك .وكان خالد إذا ضرب أوجع، لذلك لم يكن في طبيعة هذا الرجل الاعتدال.

التسامح:

عندما تم فتح مكة من قبل المسلمين، خرج النبي صلى اللـه عليه وسلم حتى جاء البيت فطاف به سعا على راحلته، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفاتيح الكعبة ففتحت له، فوقف على باب الكعبة فقال) :(لا إله إلا اللـه وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت أو سقاية الحاج، إلا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الديّة مغلظة مئة من الإبل وأربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن اللـه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالإبل، الناس من آدم وآدم من تراب)) .ثم قال) :(يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟)) قالوا :خير أخ كريم، وابن أخ كريم، قال) :(اذهبوا فانتم الطلقاء)).

تطهير الكعبة:

ثم دخل النبي صلى اللـه عليه وسلم الكعبة فوجد فيها صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم علي السلام مصوراً في يده الأزلام يستقيم بها، فقال) :(قاتلهم اللـه جعلوا شيخاً يستقيم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام)) .ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست .وعندما تم ذلك شعر النبي صلى اللـه عليه وسلم بأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كأهله، فالكعبة أصبحت نظيفة من الآلهة المزيفة، ولا يوجد الآن إلا الإله الحقيقي الذي ينبغي أن يعبد في بيت اللـه ثم تلا الرسول الآية الكريمة: **(وقُل جاءَ**

الحقُّ وزهق الباطل إنَّ الباطل كانَ زهوقاً)(.([1]ثم أخذ يحطـم الأصـنام بقضـيب في يـده حتـى لم يبقى منها صنم إلا وقع.

انقضت الأيام القليلة التالية في تعزيز الموقف وإعادة التنظيم .وقـد اعتنـق الإِسـلام معظـم أهـل مكة وأقسموا يمين الولاء لرسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم.

كان النبي صلى الـلـه عليه وسلم قـد عهـد إلى امرائـه مـن المسـلمين –حـين أمـرهم أن يـدخلوا مكة –أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سماهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحـت أسـتار الكعبة .وكان عددهم عشرة (ستة رجال وأربع نساء) ويمكن أن نسميهم بمصطلحات الـعصر الحـديث ((مجرمي حرب)) فمنهم من ارتد مشركا بعد أن أسلم، ومنه من كان يـؤذي النبـي صـلى الـلــه عليـه وسـلم والمسـلمين في مكـة بشـكل مبـاشر أو غـير مبـاشر .وكـان عكرمـة عـلى رأس القائمـة وكـذلك هند .وعندما انسحب عكرمة أثناء المناوشة مع خالد، واختبأ في مكة، وعنـدما خفـت يقظـة المسـلمين وحذرهم، خـرج مـن مكـة وهـرب إلى الـيمن، وأسـلمت امرأتـه أم حكـيم بنـت الحـارث بـن هشـام، فاستأمنت له من رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ، فأمنه، فخرجت في طلبه من اليمن حتـى أتـت به رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم فأسلم.

أما صفوان بن أمية، فمع أنه لم يكن من قائمة مجرمي الحرب، إلا أنـه خشي عـلى حياتـه وفـر إلى جده على أمل أن يجتاز البحر الأحمر ويلتجئ في بلاد الحبشة، لكن صديقاً له طلـب مـن النبـي صـلى الـلـه عليه وسلم أن ينقذ حياته ويقبل استسلامه فأخبره النبي صلى الـلـه عليه وسلم أنه لا ينوي قتل صفوان وأنه يقبل عودته بسرور .وسافر هذا الصديق إلى جده وأحضر معه صفواناً .واستسـلم صـفوان للنبي صلى الـلـه عليه وسلم ولكن هذا الاستسلام كان شخصياً وسياسيا .وبالنسـبة لدخولـه في الإِسـلام فقد طلب النبي صلى الـلـه عليه وسلم أن يمنحه شهرين لكي يفكر في ذلك .فأعطاه الرسول صلى الـلـه عليه وسلم مهلة أربعة أشهر.

---

[1] سورة الإسراء/ 81.

تدمير الأوثان:

عملياً، قتل ثلاثة رجال فقط وامرأتان من مجريم الحرب .أما الباقون فقد عفا النبي عـنهم، ومـن بينهم هند التي اسلمت .بعد أن دمر النبي صلى الـلـه عليه وسلم الأصـنام في الكعبـة، أرسـل حمـلات صغيرة للقرى المجاورة للقضاء على الأصنام الموجودة في معابـدها .فأرسـل خالـد إلى ((نخلـة)) لتـدمير العزى، وهي أهم واحدة في الآلهة .ومعه ثلاثون خيالاً.

ويبدو أنه كان هناك العـزى الحقيقـة والعـزى التقليديـة .فاسـتدل خالـد عـلى العـزى التقليديـة ودمرها، ثم عاد إلى النبي صلى الـلـه عليه وسلم وأبلغه بتنفيذ المهمة .فسأله النبي صـلى الـلــه عليـه وسلم فيما إذا شاهد أمراً غير عادي .فأجاب خالد أنه لم ير شيئاً .علم عندئذ أن العزى لم تدمر .وطلب منه أن يذهب ثانية.

فعاد خالد إلى نخلة غاضباً، وفي هذه المرة وجد العزى الحقيقة .فهرب حارس معبد العـزى خوفـاً على حياته، لكنه قبل أن يتخلى عن آلهته علق سيفاً حول عنقها على أمل أن تـتمكن مـن الـدفاع عـن نفسها وعندما دخل خالد المعبد وجد امرأة سوداء عارية فاعترضت وأخذت بالبكاء .لكن خالداً توقف ليقرر فيما إذا كانت تريد إغواءه أو حماية الصنم، واستل سيفه وضرب المرأة ضربة قويـة شـطرتها إلى قسمين .ثم هشم الصنم، وعاد إلى مكة وأبلغ الرسول بما رأى وفعل .فقال له النبـي صـلى الـلــه عليـه وسلم أن ذلك الصنم هو العزى وأنه لن يعبد مرة ثانية.

حادثة بني جذيمة:

في العشرين من كانون الثاني عام 630م، وبعد تدمير الأصنام، وقـع حـادث سـيئ لبنـي جذيمـة إذ أرسل النبي صلى الـلـه عليـه وسـلم عـدداً مـن الحمـلات إلى القبائـل المجـاورة لتـدعوهم إلى الإسـلام، وأعطى تعليمات لأمرائه أن لا يقاتلوا من يقبل الدعوى .وكان قصد النبي تجنبا إرقة الدماء أيضاً.

تسلم خالد قيادة الحملة التي أرسلت إلى تهامة، إلى الجنوب من مكة .وكانت الحملة تتألف من ثلاثمائة وخمسين خيالاً من عدة قبائل، وكان أكبر عدد معه من بني سليم، كما كان معه بعض الأنصار والمهاجرين .كان هدف الحملة هي (يلملم)، التي تبعد خمسين ميلاً عن مكة .عندما وصل خالد الجميزة، التي تقع على بعد خمس عشرة ميلاً عن مكة على الطريق إلى يلملم، قابل قبيلة بني جذيمة .فلما رأوه القوم اخذوا السلاح، فقال خالد) :(ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا)).

فقال رجل من بني جذيمة يقال له جحدم) :(ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدا)).

وكان يوجد نزاع قديم بين قبيلة خالد وبني جذيمة .ففي أيام الجاهلية، كانت قافلة صغيرة من قريش عائدة من اليمن فاعترضها بنو جذيمة وسلبوها وقتلوا شخصين مهمين هما عوف –والد عبد الرحمن بن عوف .وفاكه بن المغيرة (عم خالد) وفيما بعد قتل عبد الرحمن خالد بن هشام قاتل أبيه، لكن فاكه لم يؤخذ بقتل الثأر.

وبدأ الآن بنو جذيمة بالنزاع مع جحدم وقالوا له) :(يا جحدم أتريد أن تسفك دمائنا .إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب، وآمن الناس)) .ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد .إن سبب ما حدث فيما بعد غير واضح .فربما عاد مؤقتا إلى عادة الأخذ بالثار التي كانت سائدة في الجاهلية .(حيث أن خالداً دخل الإسلام منذ بضعة أشهر فقط) .ومن جهة أخرى، ربما كان فيه حماس زائد للإسلام وكان يشك في صدق اعتناق بني جذيمة للدين الإسلامي .فلما وضع بنو جذيمة السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قبل منهم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال :(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فقال :(يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت

قدميك) .فخرج علي ومعه مال قد بعث به رسـول اللــه، فـودي لهـم الـدماء ومـا أصيب لهـم مـن أموال .ثم قال لهم علي حين فرغ منهم :(هل بقي لكـم بقيـة مـن دم أو مـال لم يـؤد لكـم؟) قـالوا :لا قال :فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطا لرسول اللـه صـلى اللــه عليـه وسـلم مـما يعلـم ولا تعلمون، ففعـل، ثـم رجـع إلى رسـول اللــه صـلى اللــه عليـه وسـلم فـأخبره الخـبر، فقـال :(أصـبت وأحسنت).

وقد استدعي خالد بعد ذلك من قبل النبي صلى اللـه عليه وسلم الـذي طلـب منـه إيضـاحاً لما فعل .فقال خالـد أنـه لا يعتقـد أن بنـي جذيمـة كـانوا مسـلمين حقـاً، وإن لديـه انطباعـا أنهـم كـانوا يخدعونه، وهو يعتقد بأنه كان يقاتل في سبيل اللـه.

كان عبد الرحمن بن عوف حاضراً مع النبي صلى اللـه عليـه وسـلم عنـدما قابـل خالـد .وعنـدما سمع عبد الرحمن بن عوف أيضاً خالد قال له :(عملت بأمر الجاهليـة في الإسـلام) .فقـال خالـد :(إنمـا ثـأرت بأبيـك) .فقـال عبـد الـرحمن :(كـذبت قـد قتلـت قاتـل أبي ولكنـك ثـأرت بعمـك الفاكـه بـن المغيرة) حتى كان بينهما شر .فتدخل النبي صلى اللـه عليه وسلم وقال لخالد:(مهلاً يا خالـد دع عنـك أصحابي فو اللـه لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل اللـه ما أدركت غدوة رجل من أصحابي وما روحته.

وهكذا وضع خالد في مكانه الصحيح .وقد تم الصفح عنه .ولكنه تعلم درساً هامـاً بأنـه لا يحتـل نفس المكانة التي يحتلها أصحاب النبي صلى اللـه عليه وسلم –خاصة العشرة البررة –وذلك لدخوله الإسلام متأخراً .وكان عليه أن يحفظ هذا الدرس جيداً في مناسبات عديدة في المستقبل.

غزوة حنين

الأسباب:

لم يكد أهل مكة يقسمون يمين الولاء للرسول صلى اللـه عليه وسـلم وتعـود الحيـاة الطبيعيـة في مكة، حتى بانت ريح العداوة تهب من جهة الشرق .إذ بدأت قبائل هوزان وثقيف بالاستعداد للحرب.

كانت هوزان تعيش في المنطقة الواقعة شمال شرق مكـة، وثقيـف في منطقـة الطـائف .وخشـيت هاتان القبيلتان المتجاورتان أن يقوم المسلمون، بعد فتح مكـة، بمهـاجمتهما في عقـر دارهـما كـلاً عـلى انفراد .ولتجنب هذا الاحتمال، قررتا أن تقوما بهجوم على المسـلمين عـلى أمـل أن تحققـا نصراً علـيهم بأخذهما زمام المبادرة .احتشدت القبيلتان في أوطاس، قرب حنـين، وقـد انضـم إلـيهما متطوعـون مـن قبائل أخرى عديدة .وشكلت القبائل تحالفاً مماثـلاً لتحـالف الأحـزاب في غـزوة الخنـدق .بلغـت قـوة القبائل المتحالفة ضد المسلمين إثنا عشر ألف مقاتل، وتولى قيادتهم مالك بن عوف، وهو يبلغ الثلاثـين من عمره، وكان حاد الطبع .قرر مالك أن يجعل رجاله يحـاربون في موقـف خطـير لـكي يكـون قتـالهم متسماً بشجاعة البأس .فأمر بأن يصطحب المقاتلون معهم عائلاتهم وقطعان ماشيتهم.

وكان يوجد قائد آخر في التحالف هو دريد بن الصمة .وكان هذا شيخاً كبيراً ليس فيـه إلا التـيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرباً.

وفي أوطاس قال دريد بعد أن سمع أصوات العائلات والمـواشي) :(مـالي أسـمع رغـاء البعـير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشّاء؟ قـالوا) :(سـاق مالـك بـن عـوف مـع النـاس أمـوالهم

ونساءهم وأبناءهم)) قال :أين مالك؟ قيل :هذا مالك، ودعا له، فقال :يا مالك، أنك قد أصبحت رئيس قومك، وأن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشّاء؟ قال :سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال :ولم ذاك؟ قال :أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، قال :فزجره، ثم قال :راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .لذلك ضع العائلات وقطعان الماشية في مكان أمين بعيد عن ميدان المعركة، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك، قال :لا والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبت وكبر عقلك، والله لتطعنني يا معشر هوزان أولا تكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري .وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأي .قالوا، أطعناك .عندئذ قرر دريد أن يترك مالك وشأنه .ثم قال مالك للناس :إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا بشدة رجل واحد.

وقد جلبت هوزان فقط أموالها وأبناءها ونساءها، أما باقي القبائل فلم تفعل ذلك.

خطة النبي صلى الله عليه وسلم:

لم يكن النبي يرغب في إراقة دماء أخرى، لكن لم يكن أمامه خيار سوى الانطلاق لمواجهة هذا العدو الجديد .ولم يكن يرغب أيضاً في انتظار تحالف آخر يشكل ضده ويهاجمه كما حدث في ثلاث سنوات في غزوة الخندق .علاوة على ذلك، إذا انتظر النبي صلى الله عليه وسلم في وضع دفاعي في مكة وبقي العدو قابعاً في أوطاس فإن ذلك سيؤدي إلى حالة من الجمود قد تدوم أشهراً، ولا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يضيع مثل هذا الوقت الطويل .إذ كان عليه أن يلتفت إلى الأمور التنظيمية وإلى هداية القبائل وإدخالها في الدين الإسلامي في الوقت الذي لا يزال فيه الأثر النفسي لسقوط مكة ماثلاً في أذهان العرب .وهو لا يستطيع أن ينصرف إلى هذه الأعمال طالما يوجد حشد معاد كبير في أوطاس .وعلى أية حال، فإن تحدياً معادياً قوياً لسلطته في هذه المرحلة سوف يقلل من أثر فتح المسلمين لمكة في عقول

العرب .وكان لا بد من مواجهة هذا التحدي .كذلك ينبغي سحق هـذه القـوات المعاديـة .وكـان قـرار النبي صلى الـلـه عليه وسلم بالتقدّم من مكة قد خلق موقفاً غير اعتيـادي لكـلا الجـانبين المتحـركين لملاقاة بعضهما البعضَ في معركة هجومية.

الانطلاق نحو المعركة:

وفي السابع والعشرين من كانون الثـاني عـام 630م (السـادس مـن شـوال عـام 8هجـري)، انطلـق المسلمون من مكة .كان جيش المسلمين يتألف من العشرة آلاف مقاتل الذين فتحوا مكة بالإضـافة إلى ألفين من أهالي مكة الذين دخلوا في الإسلام بعد فتح مكة .وكان يشك في قيمة هؤلاء المسلمين الجـدد الذين لم يدخل الإِسلام في قلوبهم بشكل حقيق، وقد انضموا إلى جيش المسلمين لأنهم اعتقدوا أن هـذا هو التصرف الذي ينبغي أن يفعلوه .وكان من بينهم أبو سفيان وصـفوان بـن أميـة .وهـذا قـد أعطـي مهلة أربعة أشهر من قبل النبي صلى الـلـه عليه وسلم لكي يفكر بالدين الجديد، لكنه الآن أصبح ميالاً للنبي صلى الـلـه عليه وسلم وتبرع للمسلمين بمائة درع للمعركة القادمة.

تقدّم المسلمون من مكة وكان على رأسهم مفرزة مـن بنـي سـليم تضـم سـبعمائة مقاتـل، تعمـل تحت قيادة خالد .وفي مساء الحادي والثلاثين من كانون الثاني، وصل المسلمون إلى وادي حنين وأقـاموا معسكرهم فيه.

جغرافيا حنين:

إن حنين عبارة عن وادٍ يمر من شارع المجاهد (شارع حـديث)، الـذي يبعـد أحـد عشر مـيلاً شرق وشمال شرق مكة، إلى شارع نخلة (قديم)، الذي يبعد سبعة أميال إلى الشرق .ويستمر الوادي بالاتجاه شرقاً مسافة سبعة أميال أخرى ثم يتجه شمالاً نحو زيمة .(جميع هذه الأماكن لم تكـن موجـودة أثنـاء غزوة حنين) .ويبلغ عرض الوادي حـوالي ميلـين في معظـم الأمـاكن، ولكـن عنـدما يجتـاز شـارع نخلـة يضـيق حتـى يصـل مـن ربـع إلى نصـف ميـل، وعنـدما يقـترب مـن زيمـة يضـيق أكـثر .ويعتـبر هـذا

الجزء من الوادي مضيقاً وهو يقع قرب زيمة .بعد زيمة تعرج طريق الطائف حتى يصل على وادي نخلة اليمانية.

دور الاستخبارات العسكرية:

بينما كان المسلمون يتقدمون باتجاه حنين، كان كل جانب قد أرسل عملاء للحصول على معلومات عن الجانب الآخر .لذا كان كل من الجانبين على علم تام بقوة ومواقع وتحركات الآخر وبعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، إلى هوزان وأمر أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعو له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك وأمر هوزان ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .فدعا رسول الله عمر بن الخطاب فأخبره الخبر، فقال عمر :كذب ابن حدرد، فقال ابن حدرد :إن كذبتني فطالما كذبت بالحق يا عمر فقد كذبت من هو خير مني، فقال عمر :يا رسول الله، ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر).

عندما وصل المسلمون إلى معسكرهم الجديد في وادي حنين، وصلت أنباء وصولهم إلى مالك بن عوف بواسطة عيونه .وتوقع مالك أن يعرف المسلمون بوجود جيشه في أوطاس، وأنهم سيقاتلونه في أوطاس أو بالقرب منها .فوضع خطة للإيقاع بالمسلمين.

قبل فجر اليوم الأول من شباط عام 630م (المصادف الحادي عشر من شوال سنة ثمان هجرية) تشكل المسلمون في ترتيب المسير استعداد للتقدم إلى أوطاس حيث من المتوقع أن يشتبكوا مع العدو .وكان في نية المسلمين أن يعبروا مضيق حنين قبل أن يعلم العدو بتحركهم .كان حرس المقدّمة يتألف مرة ثانية من بني سليم بقيادة خالد، وسار خلف هذه المقدّمة وحدات المسلمين المختلفة، بما فيهم مجموعة أهل مكة التي يبلغ تعداداها ألفين .وأبقى معسكر المسلمين في وادي حنين كقاعدة للعمليات.

وعند أول ضوء، دخل الحرس المقدمة المضيق (على بعد ميلين من زيمة)، وأسرع خالد في تقدّمه رغبة منه في مفاجأة العدو في أوطاس .وبعدئذ هبت العاصفة.

الكمين:

كان خالد أول من تلقى صدمة الكمين .وتبدد هدوء الفجر بآلاف الصيحات التي أطلقها الأعداء، وانهالت السهام ليس بالعشرات أو العشرينات ولكن بالمئات .انهالت السهام كالبرد الهاطل من السماء وأصابت الخيل والرجال .لم يقف بنو سليم للتصرف ضد العدو .ولم يقفوا ليفكروا أو يلتجئوا .بل اتجهوا للخلف وفروا كرجل واحد .وذهبت صيحات خالد لرجاله كي يصمدوا أدراج الرياح وضاعت في الضجيج والفوضى .وجرح خالد جرحاً بليغاً وحمل بعيداً، ولكن بعد مسافة قصيرة سقط عن فرسه وبقي ممدداً على الأرض غير قادر على الحركة بسبب جرحة.

عندما انكفأ بنو سليم إلى الوراء وانهزموا مذعورين، ودخلوا في مواقع الوحدات الأخرى التي كانت تحتل الممر الضيق، وشعرت هذه الوحدات بأن أمراً ما قد حدث، وانضم إلى الفارين مجموعة أهل مكة فاترة الهمة، وتبعهم عدة وحدات من المسلمين .هرب بعض المسلمين إلى المعسكر، ولكن غالبيتهم انتشروا والتجأوا على مسافة خلف مكان الكيمن على جانبي الممر .لم يعرف أي شخص ماذا حدث تماماً .وازدادت الفوضى عندما حملت الإبل بعضها على بعض وتراكض الناس والخيل وتداخل بعضها ببعض في هياج أعمى للخلاص من هذا المأزق.

خطة العدو:

لقد فاجأ مالك بن عوف الذين كان من المنتظر أن يفاجئوه .فحرك جيشه خلال الليل إلى مضيق حنين الذي يتعذر فيه إجراء المناورة .ووضع رجاله على جانبي الممر داخل المضيق حيث اختبئوا خلف الصخور وثنيات الأرض التي ساعدت على الاختفاء .كانت هوزان في الأمام، ومعها مجموعات صغيرة من ثقيف .ثم جاءت خلفها ثقيف، وخلف هؤلاء تمركز المتطوعون من باقي القبائل .وضع مالك خطة بارعة .إذ أخر تحركه حتى آخر ضوء لكي يعتقد المسلمون بأن قواته لا تزال

في أوطاس، ثم وضعها في كمين عند مضيق حنين بغرض إبادة المسلمين أو طردهم بحالة من الذعر إلى مكة وما بعدها .وكان يوجد خلف موقع الكمين ممر ضيق يستطيع المسلمون التقدم إلى أوطاس قاعدة مالك.

الهزيمة:

فيما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب :(لا تنتهي هزيمتهم دون البحر)، وصرخ جبلة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية :(ألا بطل السح اليوم)، فقال له صفوان :(اسكت فض اللـه فاك، فو اللـه لأن يربني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجل من هزان.

صمود النبي صلى اللـه عليه وسلم:

ترك النبي صلى اللـه عليه وسلم واقفاً في الممر مع تسعة من أصحابه، كان بينهم علي، وأبو بكر، وعمر، والعباس .وعندما كان الناس يفرون بالقرب من النبي صلى اللـه عليه وسلم قال :(أين الناس، هلموا إلي، أنا رسول اللـه أنا محمد بن عبد اللـه) لكن صرخاته ذهبت هباء .ووصلت العناصر المتقدّمة من هوزان إلى المكان الذي يقف فيه النبي صلى اللـه عليه وسلم ، وهنا سقط أول مشرك في غزوة حنين على يدي ابن أبي طالب، وكان هذا المشرك يتقدم على جمل له أحمر وبيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام هوزان، وهوزان خلفه، إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه، وبينما ذلك الرجل من هوزان يصنع منا يصنع إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه، فجاءه علي من خلفه، فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه، وسقط عن راحلته.

تحرك النبي صلى اللـه عليه وسلم الآن ذات اليمين مع أصحابه والتجأ في بروز صخري .وحاول عدد قليل من ثقيف التقدم باتجاه النبي صلى اللـه عليه وسلم وأصحابه، لكنهم طردوا من قبل أصحاب النبي صلى اللـه عليه وسلم.

لقد صنع مالك بن عوف بالمسلمين ما لم يصنعه أحد قط من قبل .وكان هذا الحادث أول وأسوأ تجربة مروا فيها بوقوعهم بكمين، حيث فقد الكثيرون منهم رشدهم وهربوا من ميدان المعركة .وعلى كل الأحوال، فإن الشجعان في هذا الموقف لم يصابوا بالذعر ولم ينهزموا.

لقد ضرب مالك بالذكاء، ولكن لسوء الحظ، فإن رجاله لم ينفذوا بالشكل الذي كان يرجوه، إذ أنهم لم ينتظروا حتى يدخل الجزء الرئيسي من قوات المسلمين في المصيدة، وأطلقوا سهامهم عندما أصبح حرس المقدمة ضمن مدى الرمي .وارتكب مالك خطيئة الآن وهي قناعته بما حقق من انتصار؛ إذ بعد أن تقدم بضع مئات من الياردات لم يحاول أن يطارد المسلمين .فلو أنه فعل ذلك، لتغيرت قصة هذه المعركة وسردت بشكل مختلف .علاوة على ذلك، فإن رمي السهام من قبل هوزان كان ضعيفاً للغاية .فقد أصيب عدد من مسلمين ورواحلهم بجراح، إلا أنه لم يقتل أحد في الكمين.

خطة الرسول صلى الله عليه وسلم:

نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنطقة التي أمامه فاستبشر خيراً .وقرر ألا يدع مالكاً يذهب بهذا النصر الذي أحرزه بسهولة .فالتفت إلى العباس، وكان امرءاً جسيما شديد الصوت، وقال) :(يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السّمرة)) .فصرخ العباس بأعلى صوته وسمعه معظم المسلمين فأجابوا :لبيك لبيك، وبدووا في التجمع حول النبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى الآلاف .وعندما شعر النبي صلى الله عليه وسلم أن القوة المتجمعة حوله كافية، أمر بالقيام بهجوم عام ضد هوزان.

في هذه المرة كان مالك هو الذي فوجئ .فبعد أن كان متأكداً أن النصر حليفه، وجد جيشه مهاجما .واشتد القتال وتشابك الجيشان، وهذا ما كان يطمح إليه المسلمون، لكونهم يتفوقون في هذه النوع من القتال على خصمهم في استخدام السيوف .وكان المسلمون لا يجاورن في فن القتال القريب والمبارزة بالسيف .وبدأ

المسلمون يضغطون على هوزان، وبدأ هؤلاء بالتراجع شيئاً فشيئاً .وعندما رأى النبي صلى اللـه عليه وسلم هذا الضغط على هوزان قال) :(الآن حمي الوطيس)).

أيقن مالك أن القتال لغير صالحه، لذا قرر أن يضع خطة الانسحاب موضع التنفيذ .وكانت ثقيف في مواقعها السابقة على مسافة قصيرة خلف هوزان .فاسند إليها مهمة حراسة المؤخرة، وسحب هوزان إلى الخلف .وتقدم المسلمون إلى الأمام واصطدموا بثقيف التي بدأت بتلقي العقاب الشديد من المؤمنين .بعد هذا الاصطدام، بدأت ثقيف بالفرار وتبعها متطوعو القبائل الأخرى الذين لم يشترك بعضهم في القتال .وفي غضون ذلك، تمكن مالك من سحب هوزان بأمان إلى الممر، وطالما أنه يتمسك بهذا الممر، فإن عائلات وقطعان ماشية هوزان هي في أمان.

الهجوم المعاكس:

لم يفق المسلمون من صدمة الكمين فقط، بل قاموا بهجوم معاكس، واستعادوا مواقعهم وطردوا العدو من أرض المعركة .وكان هذا نصراً تكتيكياً مؤزراً.

بينما كان المسلمون يجردون قتلى ثقيف من أسلحتهم وملابسهم، حصل حادث طريف يتعلق باثنين من المسلمين .كان الأول أنصارياً من المدينة، والثاني كان يدعى المغيرة بن شعبة وهو من قبيلة ثقيف .وكان قد قتل مع عثمان بن عبد اللـه (وهو من ثقيف) غلام له نصراني أغرل .وبينما كان الأنصاري يسلب الغلام القتيل ويجرده من ملابسه، وجده أغرل، فصاح بأعلى صوته) :(يا معشر العرب، يعلم اللـه أن ثقيفاً غرل)).

فأخذ المغيرة بن شعبة بيد الأنصاري، إذ خشي أن تذهب عنهم في العرب، وقال له) :(لا تقل ذالك فداك يا أبي وأمي، إنما هو غلام نصراني))، ثم جعل يكشف له عن القتلى ويقول له) :(ألا تراهم مختنين كما ترى)).

بعد أن اكتمل تجمع جيش المسلمين، باستثناء عدد قليل من الهاربين، قرر النبي صلى اللـه عليـه وسلم أن يستثمر النجاح .فنظّم مجموعة قوية من الفرسان وأرسلها إلى الأمـام لتـأمين الـوادي قبـل أن تتمكن من استعادة قوتها وإعادة تنظيم جيشها .وكانت هذه المجموعة تضم العديـد مـن المتطـوعين، وكان من بينهم بنو سليم الذين استعاد خالد سيطرته عليهم .لم يشترك خالد في الهجوم المعاكس الـذي شنه المسلمون .إذ كان ملقى حيث سقط أثناء هروب بني سليم وظل حيث هو حتـى انتهـى الهجـوم المعاكس .ثم جاءه النبي صلى اللـه عليه وسلم ونفخ على جراحـه، فـنهض خالـد وهـو يشـعر بـالقوة وبأنه صالح للقتال مرة أخرى وبسرعة استطاع أن يجمع بني سليم.

مجموعة الفرسان:

أسندت قيادة مجموعة الفرسان إلى الزبير بن العوام الذي تقدم على طول الوادي واصطدم بمالـك في الممر .وبعد اشتباك قصير، تم طرد مالك من الممر .وأصبح الوادي بأكمله بيد المسـلمين .تـرك النبـي صلى اللـه عليه وسلم مجموعة خيّالة الزبير في الممر، لكي تتمسك به كقاعدة وطيدة ولتحرسه ضد أي عودة محتملة لهوزان، وأرسل مجموعة أخرى بأمره أبي عامر إلى أوطاس .وكـان فيهـا معسـكر هـوزان الذين اتخذوا موقعهم حول المعسكر، بعد أن طردوا من الممر، ليدافعوا عن عائلاتهم وماشـيتهم .عنـد وصول المسلمين إلى اوطاس .حدث اشتباك عنيف فيها .وقتل أبو عامر تسعة مـن هـوزان في مبـارزات شخصية ثم قتل من قبل خصمه العاشر، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري، وهو ابن عمه، فقاتل هوزان، ففتح اللــه عـلى يديـه وهـزمهم .وسـقط المعسـكر في أيـدي المسـلمين، وهنـا انضـمت إلى مجموعـة المسلمين هذه مجموعة خيالة الزبير، وكان خالد عـلى رأس المجموعـة .لقـد انفـرط الآن عقـد تحـالف الأعداء بشكل تام .وتفرقت هوزان وبعض القبائل وعادوا إلى قراهم، بينما أسرعت ثقيف بقيادة مالـك إلى الطائف وقررت أن تقاوم هناك حتى النهاية .وهكذا انتهت غزوة حنين.

كانت خسائر المسلمين في هذه المعركة قليلة بشكل يدعو إلى الدهشة، وكان ذلك بسبب رماة هوزان غير الماهرين .وقد جرح العديد من المسلمين، واستشهد اربعة فقط .ويعود السبب في ذلك إلى المهارة الفائقة والشجاعة التي كان يتصف بها المسلمون والتي مكنت أبطالهم من قتل ثلاثة أو أربعة من الأعداء في وقت واحد، الواحد تلو الآخر .وقتل من المشركين سبعون في الوادي، وفي الممر وفي أوطاس .وكان من بينهم دريد بن الصمة الذي نصح مالك لكن نصيحته ذهبت سدى .وقد أسر المسلمون في معسكر الأعداء في أوطاس ستة ألاف من النساء والأطفال والعبيد، وآلاف من الجمال والماعز والغنم.

الفائدة من المعركة:

كانت هذه أول مرة يقع فيها المسلمون في كمين على نطاق كبير من قبل عدوهم .وكان هذا الكمين ثاني مثل في التاريخ إذ يقوم جيش كامل بنصب كمين لجيش كامل (المثل الأول كان الكمين الذي نصب للرومان من قبل هانيبال عند بحيرة تراسم –Τρασιμενε– في عام 217قبل الميلاد) .كانت خطة مالك التي وضعها لإبادة جيش المسلمين جيدة وسليمة، ولكن بسبب ضعف التنفيذ من قبل رجاله لم يستطع أن يحقق المهمة التي وضعها لنفسه .وعلى كل الأحوال، فإنه على الرغم من ضعف التنفيذ هذا، كان بإمكانه أن يحقق نصراً مؤزراً لو لم يكن المسلمين أعداءه .فتصميم النبي صلى الله عليه وسلم على عدم تقبل الهزيمة، وإيمان المسلمين بقائدهم، هما اللذان حولا الهزيمة إلى نصر لهم .كان النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف مالك، غير راض بنجاح محدود، فاستثمر النجاح لتدمير العدو والاستيلاء على معسكره بما فيه من غنائم.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يؤخذ فيها خالد على حين غرة .كان دائماً يعرف قيمة المفاجأة لكنه هذه المرة فوجئ هو شخصياً .ورأى بأم عينه كيف ذعر رجاله عند الظهور المفاجئ للعدو في وقت ومكان غير متوقعين .وصمم على أن لا يؤخذ مرة أخرى على حين غرة .ولم يفاجأ خالد بعد ذلك قط.

تحليل الأحداث

غزوة حنين:

وافقت أحداث هذه الغزوة في السابع من شهر شوال، من السنة الثامنة من هجرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم .ودارت رحاها في وادي حنين، وهو وادٍ إلى جنب ذي المجاز، بينه وبين مكة سبعة وعشرون كيلو متراً تقريباً .من جهة عرفات .وكان عدد المسلمين الذين اجتمعوا في هذه المعركة اثنا عشر ألفاً؛ عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفين من أهل مكة.

سبب الغزوة:

فقد اجتمعت رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمرهم، إلى مالك بن عوف سيد (هوزان) .وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنشر طلائع فتحهم.

مجريات الغزوة ووقائعها:

وكان مالك بن عوف رجلاً شجاعاً ومقداماً، إلا أنه كان سقيم الرأي، وسيء المشورة، فقد خرج بقومه أجمعين، رجالاً ونساءً وأطفالاً وأموالاً، ليُشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه فلا يفر عنها .وقد اعترضه في موقفه هذا دريد بن الصمة –وكان فارساً مجرباً محنكاً، قد صقلته السنون، وخبرته الأحداث –قائلاً له :وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت الدائرة لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك :فضُحتَ في أهلك ومالك .فسفَّه مالك رأيه، وركب رأسه وأصر على المضي في خطته، لا يثنيه عن ذلك شيء.

وانتهى خبر مالك وما عزم عليه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ يجهز جيشه، ويعد عدته لمواجهة هذا الموقف .وكان مالك بن عوف قد استبق زمام المبادرة وتوجه إلى حنين، وأدخل جيشه بالليل في مضائق من ذلك الوادي، وفرق

أتباعه في الطرق والمداخل، وأصدر إليهم أمره، بأن يرشقوا المسلمين عند أول ظهـور لهـم، ثـم يشـدوا عليهم شدة رجل واحد.

وكان رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم قد عبأ جيشه بالسَّحَر، وعقـد الألويـة والرايـات، وفرقهـا على الناس، وقبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم، استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهـم لا يدرون بما كان قد دُبِّر لهم بليل .وبينما هم ينحطون على ذلك الوادي، إذا بالنبال تمطـر علـيهم مـن كل حدب وصوب، وإذا بكتاب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فـانهزم المسـلمون راجعـين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة لذلك الجمع الكبير.

وانحاز رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ذات اليمين، وهو يقول :(إلي يا عباد الـلـه، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب) ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار.

وقد روى لنا العباس رضي الـلـه عنه هذا الموقف العصيب، وصَّوره لنا أدق تصـوير، فقـال :(شـهدت مع رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سـفيان بـن الحـارث بـن عبـد المطلـب رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم، فلم نفارقه، ورسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم على بغلة له بيضـاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الـلـه صلى الـلـه عليـه وسـلم يـركض بغلتـه قِبَـلَ الكفـار، فقـال رسـول الـلــه صـلى الـلــه عليـه وسـلم :أي عبـاس !نـادِ أصـحاب السَّـمُرَة –أي :أصحاب بيعة العقبة –فقال عباس :أين أصحاب السمرة؟ قال :فوالـلـه لكان عَطفتَهَم حين سـمعوا صـوتي، عَطفـة البقـر عـلى أولادهـا –أي :أجـابوا مسرعـين –فقـالوا :يـا لبيـك يالبيـك، قـال :فـاقتتلوا والكفار ...فنظـر رسـول الـلــه صـلى الـلــه عليـه وسـلم وهـو عـلى بغلتـه كالمتطـاول عليهـا إلى قتـالهم، فقال :حمي الوطيس، قال :ثم أخذ رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال :انهزموا ورب محمد، قال :فذهب أنظر، فوالـلـه مـا هـو إلا أن رمـاهم بحصياته، فـما زلـت أرى حدهم كليلاً، وأمرهم مدبراً –يعني قـوتهم ضعيفة، وأمـرهم في تراجـع وهزيمـة (–هـذه روايـة مسـلم

في صحيحه .وقد فرَّ مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه، والتجؤوا إلى الطائف، وتحصنوا بها، وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أثرهم فريقاً من الصحابة، حاصروهم، وقاتلوهم حتى حسموا الأمر معهم.

وهذا الحدث وما رافقته من مجريات ووقائع، هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى، بقوله: (**ثم أنزل اللهُ سكينتهُ على رسولهِ وعلى المؤمنين وأنزلَ جُنوداً لم تروها وعذب الذينَ كفروا وذلك جزاء الكافرين**)التوبة26.

لقد كان موقف رسول الله وثباته في هذه المعركة مع قلّة من الصحابة دليلاً ناصعاً، وبرهاناً ساطعاً على عمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وتحققه بأن نتيجة المعركة سوف تكون إلى جانب الحق .وإنك لتبصر صورة نادرة، وجرأة غير معهودة في مثل هذه المواقف؛ فقد تفرقت عنه صلى الله عليه وسلم الجموع، وولوا الأدبار، لا يلوي واحد منهم على أحد، ولم يبق إلا رسول الله وسط ساحات الوغى، حيث تحفُّ به كمائن العدو من كل جانب، فثبت ثباتاً عجيباً، امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارين، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش، وقوة العزيمة.

موقف أم سليم:

ومن المواقف المشرفة في هذه المعركة موقف الصحابية أم سليم رضي الله عنها، وكانت مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنه .وقد روت كتب الحديث والسِّير بسند صحيح وقائع خبرها، فعن أنس رضي الله عنه، أن أم سليم رضي الله عنها أتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال :يا رسول الله !هذه أم سليم، معها خنجر، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :ما هذا الخنجر؟ قالت :اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، قالت :يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(يا أم سليم !إن الله قد كفى وأحسن).

تداعيات هذه الغزوة:

إن من تداعيات هذه المعركة، ما كان من مسألة تقسيم الغنائم –وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة في هذه المعركة –وكانت هذه القسمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، مبنية على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفهَم أول الأمر، فأطلقت السنة شتى بالاعتراض، والقيل والقال.

وحاصل خبر تداعيات تقسيم الغنائم، ما رواه ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال :لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القَالَةُ –يعني كثرة الكلام بين الناس –حتى قال قائلهم :لقي –والله –رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال :يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء .قال :(فأين أنت من ذلك يا سعد؟) قال :يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي .قال :(فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة) .فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا .وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال :لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال :(يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتني عنكم، وجِدَة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟) قالوا :بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل .ثم قال :(ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟) قالوا :بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل .قال :(أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقتُم ولصُدِّقتُم :أتيتنا مُكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك .أوَجَدتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم فيَّ لَعَاعَةٍ من الدنيا –يعني شيئاً تافهاً –تألَّفْتُ بها قوماً ليُسلمُوا، ووكلتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شِعب الأنصار .وإنكم ستلقون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض .اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار) فبكى القوم حتى اخضلّت -تبللت -لحاهم، وقالوا :رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قَسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرق الجمع.

الدروس والعبر المستفادة:

لقد كانت غزوة حنين هذه درساً عظيماً في العقيدة الإسلامية، وممارسة عملية فهم قانون الأسباب والمسببات: فإذا كانت وقعة بدر قد علَّمت الجماعة المسلمة أن القلة إذا كانت مؤمنة بالله حق الإيمان، وآخذه بأسباب النصر، لا تضر شيئاً في جنب كثرة الأعداء؛ فإن غزوة حنين قد علمت تلك الجماعة درساً جديداً، حاصلة أن الكثرة الكاثرة لا تغني شيئاً، ولا تجدي نفعاً في ساحات المعركة، إذا لم تكن قد تسلحت بسلاح العقيدة والإيمان، وإذا لم تكن قد أخذت بأسباب النصر وقوانينه. فالنصر والهزيمة ونتائج المعارك لا يحسمها الكثرة والقلّة، وإنما ثمة أمور أخر ورائها، لا تقل شأناً عنها، إن لم تكن تفوقها أهمية واعتباراً، لتقرير نتيجة أي معركة.

فكانت حنين بهذا درساً، استفاد منه المسلمون غاية الفائدة، وتعلموا منه قواعد النصر وقوانينه، قال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)** ([محمد: 7].

ويدل موقف أم سليم في هذه المعركة على مدى حرص الصحابيات رضي الله عنهن على مشاركتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته، وتبليغ رسالته، ومواجهة أعدائه.

ومن الدروس المستفادة من هذه المعركة، والعبر المستخلصة منها، حكمة سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في تقسيم الغنائم وتوزيعها، فقد اختص في هذه المعركة الذي اسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة

قاعدة المساواة بين المقاتلين. وفي هذا دلالة على أن لإمام المسلمين أن يتصرف بما يراه الأنسب والأوفق لمصلحة الأمة ديناً ودنيا.

ويستفاد من بعض تصرفاته صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، أن الدافع الأول وراء مشروعية الجهاد، هو دعوة الناس إلى دين الإسلام، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وإرشادهم على الدين القيوم، وهو الهدف الأساس الذي جاءت شريعة الإسلام لأجله؛ ولم يكن الهدف من مشروعية تلك الغزوات تحقيق أهداف اقتصادية، ولا تحصيل مكاسب سياسية. يشهد لهذا المعني موقفه صلى الله عليه وسلم من مالك بن عوف - وكان المحرك الأساس، والموجه الأول لمعركة حنين - فقد سأل صلى الله عليه وسلم أصحابه عن مالكٍ، فقالوا: إنه بالطائف مع ثقيف، فقال لهم: أخبروه، أنه إن أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مئة من الإبل، فأخبر مالك بذلك، فجاء يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه، فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مئة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. والخبر ذكره ابن إسحاق.

كل هذا - وغيره كثير - يدل دلالة واضحة على أن الجهاد في أصله ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الوظيفة الأساس من الجهاد، والهدف.

غزوة تبوك

وسببها على ما رواه ابن سعد وغيره، أنه بلغ المسلمين من الأنباط الذين كـانوا يتنقلـون بـين الشـام والمدينة للتجارة إن الروم قد جمعت جموعاً وأجلبت إلى جانبها لخم وجذام وغيرهم من نصارى العـرب الذين كانوا تحت إمرة الروم ووصلت طلائعهم إلى أرض البلقـاء فنـدب النبـي صـلى اللــه عليـه وسـلم الناس إلى الخروج وروى الطبراني من حديث ابن حصين أن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل.

وكان ذلك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة وكان الفصل صيفاً وقـد بلـغ الحـر أقصـاه والنـاس في عسرة من العيش وكانت ثمار المدينة في الوقت نفسه قد أينعت وطابت فمن أجل ذلك أعلن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم عن الجهة التي سيتجهون إليها وذلك على خلاف عادته في الغزوات الأخرى.

قال كعب بن مالك لم يكن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم في حر شديد واسـتقبل سـفراً ومناخـاً وعـدواً كثـيراً فجلى للمسلين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم.

وهكذا. فقد كانت الرحلة في هذه الغزوة ثقيلة على النفس، فيهـا أقسى مظـاهر الابـتلاء والامتحـان فأخذ نفاق المنافقين يعلن عن نفسه هنا وهناك على حين أخذ الإيمان الصادق يعلن عن نفسه في صـدور أصحابه. أخذ أقوام من المنافقين يقولون لبعضهم: لا تنفروا في الحر. وجاء آخر يقول لرسـول اللــه صـلى اللـه عليه وسلم: إإذن لي ولا تفتني فواللـه لقد عرف قومي أن ما من رجـل بأشـد عجبـاً بالنسـاء منـي وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر فأعرض عنه رسول اللــه صـلى اللــه عليـه وسـلم وأذن لـه فـيما

أراد وعسكر عبد اللـه بن أبي سلول في ضاحية بالمدينة مع فئات من أصحابه وحلفائه فلـما سـار النبـي صلى اللـه عليه وسلم تخلف بكل من معه!

ومما نزل في ذلك قوله تعالى: **(ومنهم من يقول ائذن لي ولا تقتني ألا في الفتنـة سـقطوا وإن جهـنم لمحيطه بالكافرين)** سورة التوبة.49 :

أما المؤمنون فأقبلوا إلى رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم من كل صوب وكان قد حضّ أهل الغنـى على النفقة وتقديم ما يتوفر لديهم من الدواب للركوب فجاء الكثيرون منهم بكل مـا أمكـنهم مـن المال والعدة وجاء عثمان رضي اللـه بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وألف دينار نثرهـا في حجـرة فقـال رسـول اللـه صلى اللـه عليه وسلم :لا يضر عثمان ما فعل بعدها.

وجاء أبو بكر رضي اللـه عنه بكل ماله وجاء عمر بنصف ماله روى الترمذي عن زيد بـن أسـلم عـن أبيه قال :سمعت عمر بن الخطاب يقول :أمرنا رسول اللـه صلى اللــه عليـه وسـلم أن نتصـدق ووافـق ذلك عندي مالاً فقلت اليوم أسبق أبا بكر وما سبقته يوماً قال :فجئت بنصـف مـالي فقـال رسـول اللــه صلى اللـه عليه وسلم :ما أبقيت لأهلك؟ قلت مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال :يا أبا بكر ما أبقيـت لأهلك؟ فقال :أبقيت لهم اللـه ورسوله قلت لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً.

وإذا صح هذا الحديث فلا بد أن يكون هذا الندب بمناسبة غـزوة تبـوك كـما قـال ذلـك فريـق مـن العلماء.

وأقبل رجال من المسلمين أطلق عليهم (البكاءون) يطلبون من رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم ظهوراً يركبونها للخروج إلى الجهاد معه فقال لهم :لا أجد ما أحملكـم عليـه فتولـوا وأعيـنهم تفـيض مـن الدمع حزنا أن لا يجدوا لديهم ما ينفقونه في أسباب خروجهم للغزو.

وخرج رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فيما يقارب ثلاثين ألفاً من المسلمين وتخلـف عنه نفر من المسلمين عن غير شك ولا ارتيـاب مـنهم كعـب بـن مالـك ومـرارة بـن الربيـع

وهلال بن أمية وأبو خيثمة .وكانوا كما قال أبن اسحق نفر صدق لا يتهم في إسلامهم .غير أن أبا خيثمة لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك.

روى الطبراني وابن إسحاق والواقدي أن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدة أيام إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين (أي خيمتين) لهما في البستان له قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له ماء فيه وهيأت له فيه طعاما فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال :رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشمس والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ !ما هذا والله بالمنصف ثم قال :والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيأتا له زاداً ثم قدم ناضحة فارتحله وخرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ((كن أبا خيثمة)) فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة أناخ أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام :أولى لك يا أبا خيثمة ..!ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فدعا له صلى الله عليه وسلم بخير.

وعانى المسلمون في هذه الرحلة جهوداً شاقة وأتعاباً جسيمة .روى الإمام أحمد وغيره أن الرجلين والثلاثة كانوا يتعاقبون على بعير واحد وأصابهم عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة :قال لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا يا رسول الله :لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وأدهنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعلوا فجاء عمر فقال يا رسول الله إنهم إن فعلوا قل الظهر ولكن أدعهم بفضل أزوادهم ثم أدع لهم بالبركة لعل الله أن يجعل فيه ذلك فدعا عليه الصلاة والسلام بنطع فبسطه .ثم دعاهم بفضل أزواداهم فجعل الرجل يجيء بكف التمر والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ثم دعا عليه بالبركة ثم قال لهم :خذوا في أوعيتكم قال :فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاؤ إلى ملؤوه وأكلوا حتى شبعوا وفضلت منه فضلة فقال رسول

الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم أشهد أن لا إله إلا الـلـه وإني رسول الـلـه لا يلقى الـلـه بها عبـد غـير شـاك فتحجب عنه الجنة.

ولما انتهوا لتبوك لم يجدوا هناك كيداً ولا قتالاً فقد اختفى وتفـرّق أولئـك الـذين كـانوا قـد تجمعـوا للقتال ثم أتاه يوحنا حاكم أيلة فصالح رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم على الجزية وأتاه أهـل جربـاء وأذرح فأعطوه أيضاً الجزية وكتب رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم بذلك لهم كتاباً.

ومر الجيش مع رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم بالحجر (وهـي منـازل ثمـود) فقـال لأصـحابه لا تدخول مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصـابهم إلا أن تكونـوا بـاكين ثـم قنـع رأسـه وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

ثم أن النبي صلى الـلـه عليه وسلم قفل راجعاً إلى المدينة، فلما أشرفوا على المدينة قال عليـه الصـلاة والسلام لأصحابه هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه وقال لأصحابه إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسـيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا :يا رسول الـلـه وهم بالمدينة؟ قال :وهم بالمدينة حبسهم العُذر.

وقدم المدينة عليه الصلاة والسلام في رمضان من السنة نفسها فيكون قد غاب قرابة شهرين...

أمر المخلَّفين

ولما دخل رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المخلفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضـعة وثمـانين رجـلاً .فقبـل مـنهم علانيـتهم واستغفر لهم وأرجا أمر كعب بن مالك وصاحبيه إلى أن نزلت آيات بقبول توبتهم.

وقد روى كعب رضي الـلـه عنه خبره في ذلك في حديث طويل رواه البخاري ومسلم وجاء فيه قوله :كان من خبري أني لم أكن قط أوى ولا أيسر مني حيـث تخلفـت عنـه في تلك الغزوة ..وطفقت أغـدو لـكي أتجهـز مـع المسـلمين فـأرجع ولم أقـض شـيئاً فـأقول

في نفسي :أنا قادر عليه (أي لن يعيقني شيء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفـارط الغزوا (أي خرجوا وفاتوا) وهممت أن أرتحـل فـأدركهم وليتنـي فعلـت فلـم يقـدر لي ذلـك .فكنـت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فطفت فيهم أحزننـي أني لا أرى إلا رجـلاً مغموساً بنفاق أو رجلاً ممن عذر اللـه من الضعفاء ..ولما أبلغنـي أنـه توجـه قـافلاً حَضَرَ هـمٌ فطفقـت أتذكر الكذب وأقول بماذا سأخرج من سخطه غداً؟ ..!وساتعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ولما قيل إن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم قد أقبل زاح عني الباطل وأجمعت أن أصدقه فجئته سلمت عليـه تبسم المغضب ثم قال :تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي :ما خلفك :ألم تكن قـد ابتعـت ظهرك؟ فقلت :بلى إني واللـه لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سـأخرج مـن سـخطه بعـذر ولقد أعطيت جدلاً ولكني واللـه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حـديث كـذب تـرضى بـه عنـي ليوشـكن اللـه أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو اللـه .واللـه ما كـان لي من عذر .واللـه أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم أمـا فقد صدق فقم حتى يقضي اللـه فيك فقمت وثار رجال من بني سلمه فـأتبعوني يؤنبـونني (أي يعتبـون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم :هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا :نعم رجلان قـالا مثـل مـا قلـت فقيل لهما مثل ما قيل لك .فقلت من هما؟ فقالوا:مرارة بـن الربيـع وهـلال بـن أميـة فـذكروا لي رجلـين صالحين شهدا بدر لي فيهما أسوة ..ونهى رسول اللــه صـلى اللــه عليـه وسـلم المسـلمين عـن كلامنـا أي الثلاثة من بين من تخلف عنه فأجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتـى تنكـرت لي الأرض فـما هـي بـالتي أعرفهـا فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبي فاستكانا فقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنـت أشـب القـوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وأتى رسول اللــه صلى اللـه عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فـأقول في نـفسي هـل حـرك شـفتيه بـرد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه أسارقه النظر فـإذا أقبلـت عـلى صـلاتي أقبـل لي وإذا التفـت نحـوه أعـرض عنـي وبيـنما أنـا أمشي بسـوق المدينـة إذا نبطـي مـن أنبـاط أهـل الشـام ممـن قـدم بالطعـام

يبيعه بالمدينة يقول :من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جائني دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه :

((أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله في دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك)) فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها بها .حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي فقال :إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك فقلت لأمرأتي إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ..فلبثت بعد ذلك عشر ليالي حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحالة التي ذكر الله ((قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت)) سمعت صوت صارخ وفي على الجبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء الفرج وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون ...ولما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت ثوبي فكسوته أيهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يؤمئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وأطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة ودخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأنني والله ما قام إلى رجل من المهاجرين ولا أنسها لطلحة، قال كعب :فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور :أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال :قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال :لا بل من عند الله فقلت :يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك فقلت :يا رسول الله إنما نجاني الصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلى صدقاً ما بقيت وأنزل الله تعالى على رسوله :(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) إلى قوله (وكونوا مع الصادقين).

العبر والعظات:

أولاً :كلمة على هامش هذه الغزوة:

لقد أخذ الإسلام ينتشر في الجزيرة العربية واستولى سلطانه على الأفئدة والنفوس وهذا ما كانت نصارى الروم تراقبه من بعيد في خوف وقلق :فالرومان لم يعتنقوا النصرانية إيماناً منهم بها وإنما كانوا قد اتخذوها ذريعة إلى استعمار شعوب تلك المنطقة ولأجل ذلك تلاعبوا بها كما أرادوا وغيروا منها وبدلوا فخلطوا هديها بوثنيتهم وأضافوا إلى ما فيها من الحق الكثير من باطلهم.

والإسلام –وهو الدين الذي تكررت الدعوة إليه على لسان جميع الرسل والأنبياء إنما جاء ليخرج به الناس عن كل سلطان غير سلطان اللـه تعالى فلا يكون لأحد عليهم من سيادة ولا سلطان ولا حكم إلا سلطان اللـه وحكمه.

وهم قد علموا من النصرانية كل حقائقها –أدرى الناس بخطورة هذه الرسالة الأخيرة وما تحمل في طيها من تهديد لحكم الطغاة وسلطان المتسلطين وبغي الباغين.

فلا غروَ أن يكون هذا الدين وقد استقر أمره في الجزيرة العربية –مصدر قلق وتخوف لدى طغاة الروم وأتباعهم الذين ما دخلوا النصرانية إلا ظاهراً وما أرادوا من ذلك إلى ضمان بسط سلطانهم على المستضعفين.

فمن أجل ذلك تلقوا خبر فتح مكة ونبأ انتصار الإسلام في الجزيرة العربية بالذعر ثم أخذوا يجمعون جموعهم بين الشام والحجاز علهم يقفون في وجه هذا الدين الذي سيكون في انتشاره القضاء عليهم وعلى سلطانهم.

ولقد كان من مقتضى هذا الاهتمام لدى الروم أن يكون الاشتباك بينهم وبين المسلمين عظيماً وخطيراً ولكن حكمة اللـه عز وجل تشاء أن يكتفي من جهاد المسلمين في هذه الغزوة.

ثانياً ــالعبر والأحكام:

وإنك لتجد في هذه الغزوة دروساً وأحكاماً كثيرة نجمل منها ما يلي:

1-(أهمية الجهاد بالمال) :فالجهاد ضد أعداء الإسلام ليس محصوراً بالخروج لغزو بل ولا يكفي منه ذلك وحده فحيثما توقف أمر الجهاد بالقتال والسلاح على نفقات ومال وجب على المسلمين كلهم أن يقدموا من ذلك ما يقع موقعاً من الكفاية بشرط أن يكون ذلك بنسبة ما يتفاوتون به من كفاية وغنى.

ولقد قرر الفقهاء أن الدولة إذا ما اضطرت إلى النفقات للجهاد كان لها أن تفرض على الناس حاجتها من ذلك بالشكل الذي ذكرناه غير أنهم اتفقوا على أن ذلك مشروط بأن لا يكون في أموال الدولة ما يوضع في نفقات كمالية أو غير مشروعة إذ أن أموال الناس ليست أولى من أموال الدولة بأن تصرف إلى حاجات الجند والقتال.

هذا .ولقد رأيت كيف عثمان بن عفان رضي الله عنه قد جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بثلاثمائة بعير بكل ما تحتاجه من الاقتاب والأحلاس وبمائتي أوقية من الفضة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، وفي هذا بيان لفضل عثمان ما فعل بعد اليوم زجراً وتأديباً لكل مَنْ أراد أن يطيل لسانه على عثمان من أمثال أولئك الذين يتشدقون بالنقد على سياسته أيام خلافته يكتبون الصفحات الطوال عما يسمونه بمظهر الضعف أو التحيّز في سياسته .متفقين في ذلك مع ما يطيب للمستشرقين القيام به من أمطار التاريخ الإسلامي بوابل النقد والكذب والتضليل وتحقيقاً لغاية مرسومة معروفة يتطلعون إليها ويغدو السير للوصول إليها.

ومهما يكن من شأن عثمان في خلافته .فأي بقية من الأدب توجد عند من يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ما ضر عثمان من فعل بعد اليوم)) ثم يمضي بعد ذلك منتشياً بنقده وتسفيه سياسته؟!

2- (كلمه عن الحديث أبي بكر وما اختلقه البعض من زيادة فيه :ليسوغوا بها بدعة من أهم البدع المحرمة).

ذكرنا الحديث الذي رواه الترمذي وأبوا داود عن تقديم أبي بكر ماله كله للرسول صلى اللـه عليه وسلم وأنه أجابه عليه الصلاة والسلام حينما سأله ما أبقيت لأهلك (أبقيت لهم اللـه ورسوله) والبدعة هي عندما فرحً أبو بكر صار يتمايل بجسده فرحاً.

فأما الدليل الذي يستندون إليه فهو دليل مختلق كما ذكرت ولم يثبت في حديث صحيح ولا ضعيف أن أبا بكر قام بفعل ذلك بين يدي رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم.

أنه لم يثبت دليل عليه بل ألحق الذي ينبغي أن يقال :إن الدليل قد ثبت على حرمته وإليك بيان ذلك.

ذهب الجمهور إلى أن الرقص محرّم وإن كان مع التثني فإدخال الرقص –مهما كانت كيفيته –في ذكر اللـه تعالى إقحام لما هو مكروه أو محرم في عبادة مشروعة وتحويل له بذلك إلى عبادة يتقرّب بها إلى اللـه دون دليل عليها أو على أنها قدر قد خرجت عن الكراهة أو التحريم أضف إلى ذلك ما يلتبس به حال هؤلاء (الذاكرين) من التفوه بأصوات ليست من ألفاظ الذكر في شيء وإنما هي حمحمات وهمهمات تصاعد في حلوقهم ليتكون منها دوي متناسق معين ينسجم مع تواقيع المنشدين والمطربين فتحدث بذلك مزيداً من النشوة والطرب في النفوس.

أما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة النبات لا يفعلها إلى راعن أو متصنع كذاب كيف يتأتي الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه وقد قال عليه الصلاة والسلام :(خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) واحد من هؤلاء الذين يقتدون بهم يفعل شيئاً من ذلك .ويقول مثل هذا الكلام ابن حجر أيضاً في كتابه كف الرعاع وابن عابدين في حاشيته المشهورة المعتمدة عند السادة الأحناف مفرقاً بين الوجد القاهر والتواجد المصطنع.

أما الإمام القرطبي فيتوسع في التحذير من هذه البدعة وبيان حرمتها توسعاً كبيراً وإذا أردت أن تقف على كلامه ذلك فأرجع إلى تفسيره عند قوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) وقوله تعالى :(ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا).

ولولا الإطاله فيما ينبغي الاختصار فيه لسردت لك النصوص كثير من الأئمة في هذا الشأن .نعم أن هذا هو الحق الذي اتفق عليه عامة الأئمة من سلف وخلف لا خلاف فيه ولا نزاع

3- (المنافقون :طبيعتهم ومدى خطورتهم على الإسلام) نال أمر هذه الغزوة من حديث كتاب الله عنها في سورة التوبة آيات بل صفحات كثيرة وتركز معظم هذه الآيات على بيان أهمية الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وأنه الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم وأنه أهم فارق بين المؤمنين والمنافقين وأن على المسلمين إذا كانوا مسلمين أن لا يركنوا إلى الدعة والراحة وأن يستهينوا بما قد يتعرضون له من عذاب وشدة في سبيل الله تعالى كما أطالت في الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم والخفي من مقاصدهم.

والدرس الذي في ذلك هو بيان خطورة أمر النفاق والمنافقين على المسلمين في كل عصر وإيضاح أن الإسلام دعوى لا بد أن يصدقها الجهاد والتعرض للمحن حتى يتميز الصادق عن الكاذب ويمتحن إيمان المؤمنين عن دجل المنافقين ولقد كانت تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآني إذ كان اختبار المسلمين بها أعظم اختبار إلهي كشف اللثام عن النفاق في المدينة وميّز المنافقين عن المسلمين الصادقيين أعظم تمييز، ثم نزلت الآيات المتوالية في كتاب الله تعالى تضبطهم بجرائمهم وتعلن للمسلمين سرائرهم وتحذرهم منهم في كل زمان ومكان.

4- الجزية وأهل الكتاب في هذه الغزوة دليل على مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب وأنهم يحررون بذلك دمائهم وأموالهم فقد رأيت أن الروم اختفوا وتفرقوا عن

رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم حينما وصل إلى تبوك وجاءه نصارى العرب فصالحوه صلى اللـه عليه وسلم على الجزية وكتب لهم عليه الصلاة والسلام بذلك كتابا.

والجزئية ضريبة مالية تقوم بالنسبة لأهل الكتاب مقام الزكاة بالنسبة للمسلمين والفرق الذي بينهما وبين الزكاة أن الجزية تقوم على أساس قضائي مجرد على حين تقوم مشروعية الزكاة على أساس من الديانة والقضاء معا.

والفرق بين الكتابيين وغيرهم من الملاحدة والوثنيين في أمر الجزية هو أن الكتابيين يمكنهم أن ينسجموا مع المجتمع الإسلامي ونظامه العام مع احتفاظهم بما يدينون أما الملاحدة والوثنيون فلن تجد بينهم وبين المجتمع الإسلامي قدراً مشتركاً يضمن الانسجام إذ لا يمكن لفكرة الإلحاد والوثنية أن تلتقي مع الحكم والنظام الإسلامي في أي فرع من الفروع لقيام التناكر والتخالف بينهم في أعمق الأسس والجذور.

5- يدلنا ما ذكره رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم عندما مر بمنازل ثمود أنه يكره للمسلم أن يدخل ديار الأمم الخالية ممن أهلكهم اللـه بكفرهم أو أن يمر شيء من آثارهم إلا وهو معتبر بحالهم يتأمل في مالهم يسأل اللـه تعالى العافية والرحمة له وللمسلمين إذ هي منازل شهدت مظهراً من غضب اللـه تعالى .فمن الخطأ الكبير أن يمر الإنسان عليها ساهية لاهية لا يعبأ منها بغير مظهر الشكل أو البناء والنقوش.

6- وعلنا الآن أن نتأمل في الفرق بين سياسته صلى اللـه عليه وسلم مع المنافقين وسياسته مع أصحابه المؤمنين الصادقين.

لقد تخلف –كما رأيت –كثير من المنافقين عن هذه الغزوة وجاءوا يعتذرون له صلى اللـه عليه وسلم بشتى الأعذار المختلفة ومع ذلك فقد صفح عنهم وقبل علانيتهم ووكّل سرائرهم إلى اللـه عز وجل.

معركة أجنادين

هي معركة وقعت بين المسلمين والبيزنطيين عام 634م قرب مدينة الرملة في فلسطين.

مقدّمة

الصحابي عمرو بن العاص، أول قائد عقد له أبو بكر الصديق لواء فتح الشام، وأمره بأن يعسكر بجيشه في تيماء شمالي الحجاز، وأوصاه بعدم البدء في القتال إلا إذا قوتل، وكان الخليفة الحصيف يقصد من وراء ذلك أن يكون جيش خالد عوناً ومدداً عند الضرورة، وأن يكون عينه على تحركات الروم لا أن يكون طليعة لفتح بلاد الشام.

وحدث ما كان منه بدٌّ، فقد اشتبك خالد بن سعيد مع الروم التي استنفرت بعض القبائل العربية من بهراء وكلب ولخم وجذام وغسان لقتال المسلمين ، ولم تكن قوات خالد تكفي لقتال الروم، فهزم هزيمة قاسية في مرج الصفر في (4من المحرم 13هـ =من مارس 634م) واستشهد ابنه في المعركة، ورجع بمن بقي معه إلى ذي مروة ينتظر قرار الخليفة.

الصديق يعقد أربعة ألوية

ولما وصلت أنباء الهزيمة إلى الخليفة أبي بكر الصديق أهمه الأمر، وجمع كبار الصحابة لتبادل الرأي والمشورة، واستقر الرأي على دفع العدوان، ورد الروم الذي قد يغرهم هذا النصر المفاجئ فيهددون أمن الدولة التي بدأت تستعيد أنفاسها بعد قضائها على حروب الردة، وتوالي أنباء النصر الذي تحقق في جبهة العراق.

جهّز الخليفة الصديق أربعة جيوش عسكرية، واختار لها أكفأ قواده، وأكثرهم مراناً بـالحرب وتمرسـاً بالقتال، وحدد لكل جيش مهمته التي سيقوم بها.

أما الجيش الأول فكان تحت قيادة يزيد بـن أبي سـفيان، ووجهتـه البلقـاء، وهـي اليـوم في المملكـة الأردنية الهاشمية، ويذكر المدائني أنه كان أول أمراء الشام خروجاً.

وكان الجيش الثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة، ووجهته منطقة بُصرى.

وجعل أبو بكر الصديق قيادة الجيش الثالث لـ أبي عبيدة بن الجراح، ووجهته منطقة الجابيـة، وقـد لحق خالد بن سعيد الذي ذكرناه آنفاً بجيش أبي عبيدة.

أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين .وأمـرهم أبـو بكـر الصـديق بـأن يعاونوا بعضهم بعضاً، وإذا اجتمعوا معاً فالقيادة العامة لـ أبي عبيدة بن الجراح.

وصية الصديق للقادة:

وكان الصديق كلما خرج لتوديع جيش من الجيوش الأربعة يوصي قائده بوصايا جامعة، تبين سـلوك الفاتحين المسلمين وأخلاقهم في التعامل مع أهالي البلاد القادمين إليها .واقتطـف مـن وصـية الصـديق لــ يزيد بن أبي سفيان هذه الكلمات :وإني موصيكم بـعشر كلـمات فـاحفظوهن :لا تقتلـوا شـيخاً فانيـاً ولا صبياً صغيراً ولا امرأة، ولا تهدموا بيتاً ولا بيعة، ولا تقطعوا شـجراً مثمـراً، ولا تعقـروا بهيمـة إلا لأكـل، ولا تحرقوا نخلاً ولا تُغرقوه، ولا تعص، ولا تجبن...

وجاء في وصيته لـ عمرو بن العاص ...:اسلك طريق إيلياء حتى تنتهـي إلى أرض فلسـطين، وإيـاك أن تكون وانياً عما ندبتك إإليه، وإياك والوهن، وإياك أن تقول :جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قـوة لي به، واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهـل بـدر، فـأكرمهم واعـرف حقهـم، ولا تتطـاول عليهم بسلطانك ..وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد مـن أمـرك، والصـلاة ثـم الصـلاة، أذن بهـا إذ دخـل وقتها، واحذر عدوك، وأمر أصحابك بالحرس، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم...

وكان مجموع تلك القوات نحو 24ألـف مقاتـل، وقـد نجحـت تلـك الجيـوش في التوغـل في جنـوبي الشام، واشتبكت في مناوشات صغيرة مع الروم، واضطر قيصرهم إلى حشد ما يملك من قوات وعتاد حتـى يدفع جيوش المسلمين التي أقبلت، ولا هم لها سوى فتح تلك البلاد ونشر العدل والمساواة فيها، ولمـا رأى المسلمون ما يحشده الروم من قوات ضخمة أرسلوا إلى الصديق يخبرونـه بحـالهم ويطلبـون منـه المـدد، فأمدهم بعكرمة بن أبي جهل ومن معه من الرجال، وكان الصديق قـد اسـتبقاهم في المدينـة تحسـباً لأي طارئ أو مفاجأة تحدث في أثناء الفتح، غير أن جبهة القتال لم يحدث فيها تغيير، ولم يغيّر المـدد شيءً مـما يجري، وتجمد الموقف دون قتال يحسم الموقف في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد في جبهة العـراق ينتقل من نصر إلى نصر، والأبصار متعلقة بما يحققه من ظفر لا تكاد تصدق أن تتهاوى قوة الفـرس أمـام ضربات خالد حتى سقطت الحيرة في يديه.

الاستعانة بخالد بن الوليد.

هاب الخليفة أبا بكر أن تبقى الأوضاع في الشـام دون تحريـك، وأن يعجـز القـادة المجتمعـون عـلى تحقيق النصر في أول الجولات بينهم وبين قوات الروم التي لم تكـن ضـعيفة الجانـب قليلـة الجنـد، وإنمـا كانت تعيش فترة زاهية بعد فوزها على الفرق وعودة الثقة إليها.

وعزم الصديق على بث روح جديـدة تعـودت الفـوز والظفـر، ومشى الـنصر في ركابهـا كأنـه قـدرها المحتوم، ولم يكن غير خالد من يمكنه تغيير الأوضاع، وإثارة الهمم، ووضع الخطط التي تأتي بالنصر، وكـان الصديق أكثر الناس ثقة في كفاءة خالد وقدرتـه العسـكرية، فـأطلق كلمتـه السـائرة التـي رددتهـا كتـب التاريخ :والـلـه لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد.

وبعث الصديق إلى خالد بأن يقدم إلى الشـام ومعـه نصـف قواتـه التـي كانـت معـه في العراق، حتى يلتقي بأبي عبيدة بن الجراح ومن معه، ويتسلم القيادة العامة للجيوش كلهـا، وفي الوقـت نفسـه كتـب الصـديق إلى أبي عبيـدة يخـبره بمـا أقـدم عليـه، وجـاء في

كتابه .. :فإني قد وليت خالداً قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطلع أمره، فإني قد وليته عليـك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد اللــه بنـا وبـك سـبل الرشـاد والسلام عليك ورحمة الـلـه.

امتثل خالد بن الوليد لأوامر الخليفة، وخرج من الحيرة بـالعراق في (8مـن صـفر 13هــ 14 =مـن إبريل 634م) في تسعة آلاف جندي، فسار شمالاً ثم عرج حتى اجتاز صحراء السماوة في واحدة من أجـرأ المغامرات العسكرية في التاريخ، وأعظمها خطراً؛ حيث قطع أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يوماً في صحراء مهلكة حتى نزل بجيشه أمام الباب الشرقي لدمشق، ثم سار حتى أتى أبا عبيدة بالجابيـة؛ فالتقيـا ومضيا بجيشهما إلى بصرى.

تجمعت الجيوش كلها تحت قيادة خالد بن الوليد، وحاصر بصرى حصاراً شديداً واضطرت إلى طلب الصلح ودفع الجزية، فأجابها خالد إلى الصلح وفتحها الـلـه عـلى المسـلمين في (25مـن شـهر ربيـع الأول 13هـ 30 =من مايو 634م)، فكانت أول مدينة فتحت من الشـام صـلحاً عـلى أن يؤمنـوا عـلى دمـائهم وأموالهم وأولادهم، نظير الجزية التي سيدفعونها.

الاستعداد لأجنادين

بعد سقوط بُصرى استنفر هرقل قواته، وأدرك أن الأمر جد لا هذر فيه، وأن مستقبل الشـام بـات في خطر ما لم يواجه المسلمون بكل ما يملك من قوة وعتاد، حتى تسـلم الشـام وتعـود طيعـة تحـت إمرتـه، فحشد العديد من القوات الضخمة، وبعث بها إلى بصرى حيث شرحبيل بـن حسـنة في قواتـه المحـدودة، وفي الوقت نفسه جهّز جيشاً ضخماً، ووجهّه إلى أجنادين من جنوب فلسطين، وانضم إليه نصـارى العـرب والشام.

تجمعت الجيوش الإسلامية مرة أخرى عند أجنادين، وهي موضع يبعد عن بيت جبرين بحوالي أحـد عشر كيلو متراً، وعن الرملة حوالي تسع وثلاثين كيلو متراً، وكانت ملتقى مهماً للطرق.

نظم خالد بن الوليد جيشه البالغ نحو (40) ألف جندي، وأحسن صنعه وترتيبه عـلى نحـو جديـد، فهذه أول مرة تجتمع جيوش المسلمين في الشام في معركة كبرى مع الـروم الـذين اسـتعدوا للقـاء بجـيش كبير بلغ ((40) ألف جندي.

شكّل خالد جيشه ونظمه ميمنة وميسرة، وقلباً، ومؤخرة؛ فجعل على الميمنة معاذ بـن جبـل، وعـلى الميسرة سعيد بن عامر، وعلى المشاة في القلب أبا عبيدة بن الجراح وعلى الخيـل سـعيد بـن زيـد، وأقبـل خالد يمر بين الصفوف لا يستقر في مكان، يحرض الجند على القتال، ويحثهم على الصبر والثبـات، ويشـد من أزرهم، وأقام النساء خلف الجيش يبتهلن إلى الـلـه ويدعونه ويستصرخنه ويستنزلن نصره ومعونته، ويحمسن الرجال.

وتهيأ جيش الروم للقتال، وجعل قادته الرجالة في المقدمة، يليهم الخيل، واصطف الجيش في كتائب، ومد صفوفهم حتى بلغ كل صف نحو ألف مقاتل.

اشتعال المعركة

وبعد صلاة الفجر من يـوم (27 مـن جـمادى الأولى 13هــ 30 =مـن يوليـو 634م) أمـر خالـد جنوده بالتقدّم حتى يقتربوا من جيش الروم، وأقبل على كل جمع من جيشه يقول لهم :اتقوا الـلـه عباد الـلـه، قاتلوا في الـلـه من كفر بالـلـه ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرار كرام، فقد أبيتم الدنيا واستوجبتم على الـلـه ثواب الآخـرة، ولا يهـولكم مـا تـرون مـن كثرتهم فإن الـلـه منزل عليهم رجزه وعقابه، ثم قال :أيها الناس إذا أنا حملت فاحملوا.

وكان خالد بن الوليد يرى تأخير القتال حتى يصلوا الظهـر وتهـب الريـاح، وهـي السـاعة التـي كـان رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم يحب القتال فيها، ولو أدى ذلـك أن يقـف مـدافعاً حتـى تحـين تلـك الساعة.

أعجب الروم بكثرتهم وغرتهم قوتهم وعتادهم فبادروا بالهجوم على الميمنة؛ حيث يقـف معـاذ بـن جبل، فثبت المسلمون ولم يتزحزح أحد، فأعادوا الكرة على الميسرة فلم تكن أقل ثباتاً وصبراً من الميمنة في تحمل الهجمة الشرسة وردها، فعادوا يمطرون المسلمين بنبالهم، فتنادى قادة المسلمين طالبين مـن خالـد أن يأمرهم بالهجوم، حتى لا يظن الروم بالمسلمين ضعفاً ووهنـاً ويعـاودون الهجـوم علـيهم مـرة أخـرى، فأقبل خالد على خيل المسلمين، وقال :أحملـوا رحمكـم الـلــه عـلى اسـم الـلــه فحملـوا حملـة صـادقة

زلزلت الأرض من تحت أقدام عدوهم، وانطلق الفرسان والمشاة يمزقون العدو فاضطربت جموعهم واختلت قواهم.

فلما رأى القائد الروم أن الأمر خرج من يده، وأن الهزيمة واوقعة لا محالة بجنوده قال لمن حوله :لفوا رأسي بثوب، فلما تعجبوا من طلبه قال :يوم البئيس لا أحب أن أراه !ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا، وما لبث أن حز المسلمون رأسه وهو ملفوف بثوبه، فانهارت قوى الروم، واستسلمت للهزيمة، ولما بلغ هرقل أخبار الهزيمة أسقط في يده وامتلأ قلبه رعباً.

بطولة وفداء:

وفي هذه المعركة أبلى المسلمون بلاء حسنا، وضربوا أروع الأمثلة في طلب الشهادة، وإظهار روح الجهاد والصبر عند اللقاء، وبرز في هذا اليوم من المسلمين ضرار بن الأزور وكان يوماً مشهوداً له، وبلغ جملة ما قلته من فرسان الروم ثلاثين فارساً، وقتلت أم حكيم الصحابية الجليلة أربعة من الروم بعمود خيمتها.

وبلغ قتلى الروم في هذه المعركة أعداداً هائلة تجاوزت الآلاف، واستشهد من المسلمين 450شهيداً.

وبعد أن انقشع غبار المعركة وتحقق النصر، بعث خالد بن الوليد برسالة إلى الخليفة ابي بكر الصديق يبشره بالنصر وما أفاء الله عليهم من الظفر والغنيمة، وجاء فيها ... :أما بعد فإني أخبرك أيها الصديق إنا التقينا نحن والمشركين، وقد جمعوا لنا جموعا جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنون أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، وحسن الصنيع لأوليائه، فلما قرأ أبو بكر الرسالة فرح بها، وقال الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقر عيني بذلك

معركة اليرموك

التحضير للمعركة

اعتلى هرقل عرش الرومان عام ((610ميلادية، عندما كانت الإمبراطورية الشرقية تحتضر ولم يكن لها من الأرض عملياً أكثر من المنطقة المحيطة القسطنطينية وأجزاء من اليونان وإفريقيا الشمالية .عانى هرقل في البداية مرارة الفشل في ميادين شتى، إلا أنه الحظ بدأ يبتسم له خلال العقدين التاليين، حيث استطاع أن يعيد إلى الإمبراطورية عظمتها وذلك بهزيمته للبرابرة الشماليين وإلى الأتراك ودولة فارس بزعامة كورش.

انتصاراته تلك لم تكن نتيجة لمقدرة قتالية فحسب بل لمقدرته التنظيمية .والدليل على مقدرته تلك إنه استطاع إيجاد جيش روماني جيد من أكثر من اثني عشر أمة من الأمم بدءاً بالفرجنة في أقصى الغرب، إلى الأرمن، في أقصى الشرق للإمبراطورية.

أما الآن فإن هرقل ذاق مرارة أشد من السابقات لأن التهديد الجديد يأتي من عنصر طالما اعتبره الرومان عنصراً متأخراً لن تقوم له قائمة وخاصة في مجالات الحروب المنظمة .فبالرغم من المقدرة الإستراتيجية والتعبوية للقوات الرومانية، إلا أن جميع عملياتهم ضد المسلمين حتى ذلك الوقت باءت بالفشل الذريع .إذ أن حشدهم لقواتهم في أجنادين لضرب مؤخرة المسلمين، قضى عليه خالد في معركة أجنادين الأولى كذلك عندما حشدوا قواتهم للدفاع عن دمشق من نجاحات المسلمين، أيضاً باءوا بالفشل رغم محاولات الرومان المتكررة لإسناد حامية دمشق[1].

[1] الراقدي، المغازي، صفحة 100.

كانت مناورة هرقل التعرضية الثابتة في بيسان، وقد قصد بها ضرب مؤخرة المسلمين، إلا أن شرحبيل بن حسنة كان لها بالمرصاد وأحبطها .بعد ذلك لم تفشل محاولاته للاستعادة دمشق فحسب، بل إن دفاعاتهم تحطمت أيضاً من تحقيق المسلمين للانتصارات المتكررة التي أدت إلى احتلال جميع فلسطين تقريباً والقسم الأعظم من سوريا –شمالاً حتى حمص.

على أثر ذلك، قرر هرقل أن يعيد تنظيم قواته، ويهيئ قوة متفوقة للأخذ بالثأر .قوة من حيث الحجم لم تر سوريا مثيلاً لها من قبل، وصمم المعركة لتكون القاضية على المسلمين، لتحويل الانهزامات المتكررة إلى انتصارات باهرة.

مع نهاية عام (635م)، وبينما كانت حمص تحت الحصار الإسلامي، بدأ هرقل التحضيرات لمناورته الكبرى حيث حشد جيشاً لجباً من جميع أنحاء الإمبراطورية .وقد انضم إلى هذا الجيش الكبير عدد كبير من الأمراء والنبلاء ورجال الكنيسة البارزين، وفي أيار عام (636م) استطاع الرومان حشد ذلك الجيش الذي كان قوامه مائة وخمسين ألف مقاتل في سهول انطاكية وبعض الأجزاء الشمالية من سوريا، وقد ضمت هذه القوة محاربين من الروس والسلاف والفرنجة والرومان واليونان والجورجيين والأرمن والعرب المسيحيين نظمت هذه القوة في خمسة جيوش كل منها (30) ألف تقريباً .أما قادة هذه الجيوش فكانوا :ماهان ملك أرمينيا، قناتير وهو أمير روسي، جويجور ي وتراجان، وجبلة بن الأيهم ملك الغساسنة العرب .كان جيش ماهان من الأرمن الخلص وجيش جبلة من المسيحيين العرب، أما قناتير فقد قاد الروس والسلاف ووضعت البقية وهم من الأوروبيين تحت قيادة جويجوري وتراجان .وقد عيّن ماهان كقائد عام للجيش الإمبراطوري بأكمله.

في تلك الأثناء كان المسلمون مقسمون إلى أربع مجموعات :مجموعة عمرو بن العاص في فلسطين، مجموعة شرحبيل بن حسنة في الأردن، مجموعة يزيد في قيسارية، ومجموعة أبي عبيدة وخالد في حمص وشمالها .ولا شك أن هذا الانتشار الواضح لفيالق المسلمين

يجعلهم عرضة لخطر تدميرهم متفرقين دون أن يكون هناك فرصة فخوض معركة ناجحة .هـذا الموقـف حدا بهرقل أن يضع موضع التنفيذ خطته لإبادة تلك القوات الغازية.

لتنفيذ خطة هرقل، دعمـت قيسـارية مـن البحـر وارتفعـت قواتهـا إلى ((40ألـف مقاتـل، بهـدف تشتيت قوات يزيد بن أبي سفيان وحرمانه من الانضـمام إلى زملائـه القـادة الآخـرين .أمـا بقيـة الجـيش الإمبراطوري فخطط له حسب توجيهات الحرب الرئيسة التالية:

1- يتحرك قناتير على الطريق الساحلي حتى مدينة بيروت حيـث يتجـه منهـا شرقـاً نحـو دمشـق لعزل قوات أبي عبيدة وخالد في الشمال.

2- يتقدم جبلـة بقواتـه مـن حلـب إلى الطريـق المبـاشر المـؤدي إلى حمـص مـاراً بحـماة لتثبيـت المسلمين جبهويا في منطقة حمص، وقد قصد هرقل بذلك مجابهـة العـرب المسـلمين بـالعرب المسـيحيين وكما قال لجبلة لا يقتل الشيء إلا نوعه ولا يفل الحديد إلى الحديد.

3- يتقدم تراجان بين الطريق السـاحلي وحلـب، ويقـترب نحـو حمـص مـن الغـرب لضرب جنـاح المسلمين الأيسر، في نفس الوقت الذي يواجهون جبلة جبهوياً من الشمال.

4- يهاجم جويجوري حمص من الشمال الشرقي لضرب جنـاح المسـلمين الأيمـن، بضربـة موقوتـه ومتوافقة مع ضربة تراجان.

5- يتقدم جيش ماهان خلف جيش جبلة ليشكل الاحتياط لمجموعة الجيوش الإمبراطورية.

في أواسط حزيران عام (636م) بدأت القوات الرومانية تقدمها حسـب الخطـة الموضـوعة، وعنـدما وصلت طلائع قوات جبلة إلى حمص، لم تجد من تجاربه .كـذلك قنـاتير الـذي وصـل إلى دمشـق والسرور يعتريه لقطع خطوط انسحاب المسـلمين وتـدميرهم، إلا أنـه لم يجـد أحـد في دمشـق أو شـمالها، فكيـف حدث ذلك.

علم المسلمون عن تحضيرات هرقل في مدينة شيزار ومن خلال أسرى الحرب الرومان .ذلك لأن المسلمين أقاموا نظام استخبارات ممتاز مما جعلهم على بينة عن أية تحضيرات أو تحشدات للقوات الرومانية في حينها .وفي الواقع فإن عملاءهم كانوا يعملون في صفوف الجيش الروماني نفسه، وبذلك تسنى لهم معرفة التحشدات واتجاهات التقدّم للقوات الرومانية، حتى التعزيزات التي وصلت إلى قيسارية وقوتها كانوا على علم بها أولاً بأول.

مع توارد تقارير المعلومات السيئة وكل تقرير أسوأ من سابقه أصبح الأفق يزداد ظلمة يوماً بعد يوم، إلا أن خالداً بحاسته الاستراتيجية الصائبة، تحقق من مفهوم عمليات الرومان المصمم وتحقق من خطورة موقف المسلمين حيال ذلك المفهوم أو التصور، وخاصة في منطقتي حمص وشيزار .وكان أفضل الأعمال المتاحة منطقيا، هو سحب قوات المسلمين من شمالي سوريا ومن فلسطين، وحشده كقوة متكاملة متراصة لمجابهة الخطة الرومانية .ويفضل ألا يكون هذا الجيش بعيداً عن الصحراء عرينه السابق وملجئه الأول .وبناء على ذلك، قدم خالد توصياته إلى أبي عبيدة الذي وافق هو وبقية القادة على هذا الرأي السديد .وعلى الفور أمر أبو عبيدة بالانسحاب من شمال سوريا إلى منطقة الجابية، وهي واقعة في منطقة عقدة المواصلات التي تربط بين سوريا والأردن وفلسطين، كذلك، وبصفته قائداً عاماً للقوات، أمر كلا من عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد، للتخلي عن المناطق المحتلة والانضمام إلى بقية القوات في الجابية .وهكذا، وقبل وصول الرومان إلى دمشق، كان أبو عبيدة وخالد وبعض قوات يزيد قد تجمعوا في الجابية، بينما كانت بقية قوات المسلمين في طريقها إلى مكان الحشد المنتخب .واستطاعوا بذلك سحب أنفسهم من بين فكي الموت المخطط لهم.

كان للمعاملة الكريمة التي قدمها أبو عبيدة لأهالي حمص عند التخلّي عنها، أكبر الأثر في نفوس أهلها، وأنارت نور العدل والحقيقة الكامن في نفس ذلك القائد الشجاع النبيل، إذ عند احتلال حمص من قبل المسلمون، قاموا بجمع الجزية من السكان المحليين، وهذه الضريبة كما هو معروف تجمع من غير المسلمين مقابل

حمايتهم واستثنائهم من الخدمة العسكرية،[1] ولكن وبما أن المسلمين الآن يغادرون المدينة ولـن يكـون باستطاعتهم تقديم الحماية لأهلها، فلقد أمر أبو عبيدة باجتماع عام للأهالي، وأعاد لهـم مـا قـدموه مـن جزية، ولم يكتف بذلك، بل كتب إلى بقية القادة في الأمصار الأخرى، أن يقوموا بنفس العمل الذي قام بـه لسقوط السبب الرئيسي للجزية وهو حماية المـواطنين ضـد أي اعتـداء، وقـد نفـذت تعليماتـه مـن قبـل جميع القادة بدقة .هذه المكرمة ربما لم تكن لها سابقة في أي جيش سبقه أو ربما بعده.

بدأ أول اتصال بين طلائع الجيش الرومان المؤلفة من جنـد جبلـة وحجابـات الجـيش الإسـلامي بـين دمشق والجابية .وأصبح قلق أبو عبيدة يزداد مـع دنـو أجـل المعركة الفاصـلة والتـي بلـغ عـدد الجـيش الروماني حسب المصادر الإسلامية ما يزيد على (200) ألف مقاتـل .ولـذلك أمـر بعقـد مجلـس الحـرب للتشاور والتوصل إلى أفضل خطة ممكنة .طرح خلال الجلسة عدة أفكار:

الانسحاب إلى الجزيرة العربية، وتعود القوات إلى مواطنها، إلا أن نصيب هذا الرأي كان الرفض .دعا آخرون إلى البدء بالقتال فوراً وفي نفس المكان، وقد أيد هذا الرأي من قبل معظم الحـاضرين، وعـلى أيـة حال لم يكن الموقف يتسم بالحماس بل بالتصميم على القتال إيماناً بالمبـدأ والهـدف مـن القتـال .في تلـك الأثناء كان خالد صامتاً يستمع إلى أن سأله أبو عبيدة عن رأيه، فقـال :رغـم أن رأيي يختلـف عـما ذكـر إلا أنني لن اعترض على تلك الأفكار توحيداً للموقف، ومع إصرار أبو عبيدة لاسـتماع آرائـه أجـاب :أرى أيهـا القائد، أن مكاننا هذا يساعد العدو على تحقيق غايته، سيما وأن هناك ((40) ألـف في قيسـارية بقيـادة قسطنطين –الابن الأكبر لهرقل –ولذلك أرى أن تضع بلدة أزرع من خلفك، وتتخذ اليرموك خطاً دفاعيـاً، حيث يتسنى للخليفة إرسال التعزيزات لكل، كما أن السـهول الممتـدة أمامـك، سـتهيء مجـالاً للمنـاورة جيدة للفرسان .

---

[1] البلاذري - صفحة 143

تمت الموافقة على خطة خالد بإجمال الآراء، وبدأت التحركات منذ تلك اللحظـة، ووضـع خالـد عـلى رأس أربعة آلاف فارس كحرس مؤخرة .وبـدلاً مـن أن يبقـى في الجابيـة، تقـدم شـمالاً واصـطدم بطلائـع الجيش الروماني، واستطاع الضغط على مقدّمة تلك القوات التي أخذت تتراجع نحو دمشق .وبذلك جعل الرومان أكثر حذراً في تقدمهم، لإفساح المجـال أمـام جـيش المسـلمين، مـن الانفتـاح في المواقـع الدفاعيـة المنتقاة –انضم خالد إلى بقية القوات بعد أيام قليلة من ذلك.

أقام المسلمون معسكراتهم بضعة أميال جنوب شرقي سهل اليرموك –المنطقة الواقعة شمال شرقـي النهر –وربما كانت بين بلدة نوى والشيخ مسكين –الحاليتيّن .–هذا الانفتاح يؤدي إلى مجابهة الرومـان من الشمال على نحور أزرع، ومن الشمال الغربي ضد محور القنيطرة –الشيخ مسـكين، وفي هـذا المكـان انضم كل من شرحبيل وعمرو يزيـد بقـواتهم إلى بقيـة القـوات، عـلى يمـين قـوات المسـلمين هـذه ، تقـع المنطقة البركانية الجبلية، والتي تمتد من الشمال إلى شرقي أزرع وكذلك جبل الـدروز، الـذي يقـع شـمال وشرقي بلدة بصرى[1].

بعد أيام قليلة، تقدّم الجيش الرومـاني، وفي طليعتـه الغساسـنة، بقيـادة جبلـة .واتصـلوا مـع قـوات المسلمين السائرة شمالي سهل اليرموك وكان اتجاه التقدّم من الشمال الغربي، حيث كانت معسكراتهم قد أقيمت شمال وادي الرقاد .بلغ طول معسكر الرومان ((18ميلاً .بناء على ذلك، أجرى أبـو عبيـدة بعـض التعديلات على معسكر المسلمين ليتلاءم مع اتجاه الجبهة الفاصـلة، والتـي كانـت تمتـد مـن اليرمـوك إلى طريق الجابية .وهذا ما اقترحه خالد في البداية .أما مؤخرة القوات فكانـت باتجـاه أزرع والجنـاح الأيسر يستند إلى نهر اليرموك .بدأ الجيشان تحضيراتها للمعركة، من استطاع إلى تحضير خطط، إلى تفقد الأسلحة إلى إصدار الأوامر.

[1] الواقدي، صفحة 128.

في تلك الأثناء، وصلت رسالة من هرقل إلى قائد الجيوش الرومانية الملك ماهـان، يـأمره فيهـا باتبـاع جميع الفرص المتاحة للسلام قبل شن القتال .أرسل ماهان أحـد قـادة الجيـوش –جويجـوري –لمباحثـة المسلمين، عارضاً عليهم الانسحاب وعدم العودة إلى سـوريا، مقابـل أخـذ جميـع مـا غنمـوه في حـروبهم السابقة .إلا أن جواب أبو عبيدة كان سلبياً .أرسل ماهان جبلة بن الأيهم، لعله كعربي يسـتطيع إقنـاعهم بالشروط .إلا أن حظ هذا لم يكن بأفضل من سابقه.

ولما لم تفلح تلك الجهود، أيقن ماهان أن المعركة حتمية ولا يمكن تجنبها .فأرسـل الجـزء الأكـبر مـن جيش جبلة للقيام باختبار قوة سيما وإن العرب المسيحيين كانوا خفـاف الحركـة والتسـلّح واعتـبروا أكـثر ملاءمة للقيام بتلك العملية من بقية الجيوش المثقلة بالأسلحة والتجهيزات .حدث ذلك في منتصف تمـوز (636م) لمصادف جمادى الآخرة عام ((15) للهجرة، تقدم جبلة نحو معسكر المسلمين ووجدهم عـلى أهبة الاستعداد، وأرادوا الاقتراب أكثر، وما هي إلا لحظات، حتـى قامـت مجموعـة مـن الفرسـان بقيـادة سيف اللـه المسلول بمهاجمتهم قبل وصولهم، فارتدوا إلى الخلف بعد قتال خفيف.

بعد هذه العملية توقف القتال لمدة شهر لسبب لم يرد في المراجـع، إلا أننـا نسـتطيع الاسـتنتاج بـأن المسلمون لم يكونوا في موقف قوي لأخذ زمام المبادرة والرومان لم يجرأوا على بدئها رهبة من النتائج التي حققها المسلمون في المعارك السابقة، أو طمعاً في إمكانية إنهاء النـزاع سـلماً كـما أمـر هرقـل، إلا أن تلـك الفترة كانت في صالح المسلمين، حيث وصلت إليهم تعزيزات قوامها(6)آلاف مقاتل، معظمها من الـيمن وأصبح تعداد المسلمين(40) ألفاً بما في ذلك ((1000) مقاتـل مـن صـحابة الرسـول صـلى اللــه عليـه وسلم ومن بين هؤلاء كان هناك(100)من محاربي بدر القدامى، معركة المسـلمين الأولى ضـد المشركـين، كما كان هناك عدد من علّية القوم من بينهم الزبير –ابن عم رسول اللـه صـلى اللــه عليـه وسـلم كـما كان أبو سفيان وزوجته هند.

حاول ماهان أن يرمي آخر سهم للسلام في جعبته، فطلب من أبو عبيدة إرسال وفد للمفاوضة، ووقع الاختيار على خالد وعدد من الفرسان .عرض ماهان على المسلمين من بين ما عرض، مالاً لكل مقاتل من المسلمين بما في ذلك الخليفة في المدينة .لكن جواب خالد كان أحد أمور ثلاثة، إما الإسلام أو الجزية أو السيف .واختار ماهان العمل الممكن الثالث .وبالرغم من طبيعة هذه المحادثات إلى أن كلا من الرجلين أعجب بالآخر .إعجاب العسكري القدير بقرينه .أمضى الجانبان سحاب ذلك اليوم، بالتحضير للمعركة من إصدار أوامر، وانفتاح الألوية والكتائب في أماكنها وتفقد الأسلحة والتجهيزات .وتبع ذلك إقامة الصلوات والدعاء إلى الله لإعطائهم النصر من عنده وكان ذلك بطبيعة الحال موجه من الجانبين لنفس الإله الذي خلق الكون وصوره[1]().

كانت منطقة المعركة كما ذكر سابقاً، تشمل سهل اليرموك –جزء من سهول حوران –الذي أحاطته الوديان العميقة من الغرب والجنوب .حيث يقع إلى الغرب وادي الرقاد، الذي يسير من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مسافة ((11) ميل، حيث يلتقي باليرموك عند الياقوصة، وحيث يشتد انحدار ضفافه وصعوبتها كما قرب من نقطة التلاقي .مع ذلك، كان هناك عدد من الثغرات البسيطة التي يمكن اجتيازاها، وخاصة في الجزء العلوي منه، إلا أخطرها كانت عبر مخاضة تقع عند بلدة كفر الما –اليوم –أما جنوب منطقة أخطرها العمليات، فيستند على مجرى نهر اليرموك، الذي يبدأ من بلدة (جلين) حيث يصب فيه نهر الحرير الذي يبدأ من الشمال الشرقي أيضاً.

وينفرج مسافة ((15)ميل حيث يلتقي به وادي الرقاد، ومن هناك يستمر في تعرج غرباً حتى يصب في نهر الأردن جنوب بحرية طبريا .يستمر ذلك السهل شمالاً حتى دمشق تقريباً، أما شرقاً فيمتد مسافة ((30) ميل تقريباً –من وادي الرقاد حتى أسفل تلال أزرع .دارت المعركة على أوسط السهل وغربيه .كان أهم معلمين في ساحة

---

[1] الطبري، الجزء 2، صفحة 595.

العمليات، هما نهرا اليرموك والرقاد وضفاف كل منهما ترتفع إلى (1000)قـدم وتتصـفان بالانحـدارات الشديدة، والقطوع الصخرية العمودية، وهذه القطوع منتشرة، إما في أسفل الواديين أو في قممها أو بـين ذلك .وتتراوح ارتفاعات هذه القطوع بين ((100)إلى ((200)قدم، وتزداد وعورة هذين الواديين أكـثر، كلما قربنا من تلاقيهما .أما أهم معلم في سهل اليرموك فهو تل السمن الذي يقع على مسافة ثلاثـة أميـال جنوب غربي بلدة نوى الحالية، وتأتي أهمية هذا المعلم لكونه يرتفع ((300) قدم عـن الأرض المحيطـة، ويهيء مجالاً –للمراقبة الجيدة تماما .وكان أن سمي هـذا التـل بعـد المعركـة بتـل (الجمـوع) لاحتشـاد جنود من جيش المسلمين عليه .بقية السهل أرض منبسطة، تنحدر بلطف من الشـمال إلى الجنـوب، مـع وجود ساحات من الأرض المتموجة، ويخترقه نهير آخر هو (علان) الذي يتجه جنوباً غرباً حتـى يصـب في وادي اليرموك .تشكل آخر خمسة أميال منه أصعب أجزائـه .إلا أن هـذا الجـزء لـيس بصـعوبة الوديـان الأخرى ولا يشكل مانعاً قوياً .وباختصار يمكـن اعتبـار تلـك المنطقـة –سـهل اليرمـوك –منطقـة مثاليـة لاستخدام المشاة والفرسان، لما تقدمه من مجال للمناورة والكر والفر باستثناء الوديان.

فتح ماهان القوات الإمبراطورية أمام نهر (عـلان)، ونشر جيوشـه الأربعـة النظاميـة، لتشـكيل خـط المعركة، والذي امتد مسافة (12) ميل بين نهر اليرموك وتل الجابية، وقـد وضـع جـيش جريجـوري عـلى الجناح الأيمن ، وجيش قناتير على الجناح الأيسر، أما القلب –المركز –فقد أسـند إلى جـيش تراجـان وإلى الجيش الأرمني –جيش ماهان نفسه –، وكلاهما تحت قيادة تراجان المباشرة .وزعت الفرسان الرومانيـة بالتساوي على الجيوش الأربعة، وكل جيش من تلك الجيوش وضع مشاته في الأمام، وفرسـانه إلى الخلـف كاحتياط .أما جيش جبلة العربي فقد اسند إليه القيام بواجب القوات الساترة للجيـوش الرومانيـة، ونشر بناء على ذلك أمام خط القتال المذكور بمواجهة المسلمين .كان معظم جيش جبلة منقولة على الخيـول أو الجمال.

قام جويجوري قائـد الميمنـة، بـربط جنـوده الثلاثـين ألفـاً بالسلاسـل، بمعـدل (10) رجال سوية، للبرهان عـلى إظهـار الشـجاعة الفائقـة والرغبـة في القتـال إلى آخـر نفـس،

ولتخدم غرضاً آخر هو منع فرسان أعدائهم من اختراق صفوفهم .وقد أقسم الجند على القتال، توفر للجيوش الرومانية تحقيق مبدأ هام من مبادئ القتال الدفاعي أو التعرضي وهو العمق، وقد بلغ عدد صفوفهم 30صفاً[1].

عندما عاد خالد بعد اجتماعه مع ماهان، وأخبر أبا عبيدة عن نتيجة المباحثات، أصبح واضحاً لدى الجميع أن الحكم سيكون للسيف .وأن المعركة الفاصلة وشيكة الوقوع .وكقائد عام للجيش العربي الإسلامي، فإن تنظيمه لقواته للقتال وإدارته للمعركة، سيعتمد على إدراكه التعبوي لا مهارته العسكرية، وهو يعلم ذلك تمام العلم، وستكون ردود فعله للمتغيرات في الموقف القادم مبنية على حسه العام كأي قائد متزن جيد، لكنه في موقف كهذا حيث يفوقه العدو بأربعة أضعاف لم يكن سداد الرأي والإدراك العام كافيين لمجابهة الموقف، بل يتطلب نوعية خاصة وقديرة من القيادة، وقد أبدى خالداً استعداداً لعرض خدماته لتولي إدارة المعركة، بقوله لأبي عبيدة، أيها القائد، أرى أن تجمع القادة وتأمرهم بالاستماع والطاعة لما سأقول .وقد فهم أبو عبيدة مضمون طلب خالد ورحب به، وأرسل في طلب القادة وإفهامهم ضرورة إطاعة خالد بما يشور به .وهكذا انتقلت القيادة الحقيقية إلى خالد برغبة ورضى الجميع وقد قبلها أبو عبيدة بكل صدر رحب تقديراً منه للمسؤولية العظمى وبالمبدأ العظيم الذي آمن به واكتفى هو بمباشرة مسؤولياته الأخرى كقائد رمزي لتلك القوات.

بدأ خالد في إعادة تنظيم القوات إلى كتائب مشاة وفرسان في كل فيلق .وقد بلغ تعداد الجيش كاملاً (40)ألف مشاة و(10)آلاف فارس .نظمت هذه القوة كاملة إلى ((36) كتيبة مشاة، تراوح عدد كل كتيبة بين 900- 800 مقاتل .أمر الفرسان، فأعيد تنظيمهم في ثلاث كتائب كل كتيبة ((2000) فارس وترك احتياط متحرك قوامه (4)آلاف فارس .قاد كتائب الفرسان كل من :قيس بن هبيرة وميسرة بن مسروف

---

[1] الواقدي -المغازي، ص141.

وعامر بن طفيل .وبهذا أصبح كل فيلق مؤلف من ((9) كتائب مشاة، والتي نظمت علـى أسـاس قـبلي، وأصبح كل منهم يقاتل مع أبناء عشيرته وأقاربه.

فتح الجيش على جبهة طولها (11) ميل، مرتكزاً على نهر اليرموك يساراً –على بعد ميل واحـد مـن بدايته –وعلى طريق الجابية من اليمين .وضع فيلق يزيد بن أبي سـفيان، عـلى الجنـاح الخـارجي الأيسر، وفيلق عمرو بن العاص عـلى الجنـاح الخـارجي الأيمـن .ووضـع بـأمرة كـل مـن هـذين القائـدين كتيبـة فرسان .أما القلب فتشكل من فيلق أبي عبيدة على اليسار، وفيلق شرحبيل عـلى اليمـين .كـان مـن ضـمن قادة كتائب أبي عبيدة، عكرمة بن أبي جهل وعبد الرحمن بن أبي بكر .وضـع الحـرس الاحتيـاط المتحـرك، خلف القلب المباشر، ووضع أمامه كتيبة الفرسان الثالثة .هـذه القـوة المتحركـة شـكلت الاحتيـاط العـام للجيش وتأمر بأمره خالد –القائد العام –وفي حالة انشغاله في إدارة المعركة توكل القيـادة إلى ضرار بـن الأزور .كل فيلق من تلك الفيالق أبرز قوات حجاب أمامه لإدامة التماس مع القوات الرومانية، خوفاً مـن التعرض المفاجئ.

بالمقارنة مع جيش الرومان فإن جيش المسلمين، شكل خطاً رقيقاً من ثلاثة صـفوف فقـط، إلا أنـه لم يكن هناك فجوات لم تغط بالقوات على طول امتداده الجبهة .زود الصـف الأول بجميـع الرمـاح المتـوفر مع الجيش الإسلامي أما رماة السهام فقد وضعوا أيضاً منـتشرين في الصـف الأول وكـان معظمهـم مـن اليمنيين أتبع هذه الأسلوب، لكي يقـوم الرمـاة بإيقـاع أكـبر الخسـائر الممكنـة في صـفوف العـدو عنـد الالتحام القريب يعتمد على السيوف التي تعتبر السلاح الفردي –الرئيسي للمقاتل.

خطط لأن يقوم قادة الأجنحة الخارجية، باستخدام فرسانهم كاحتياط محلي للهجـمات المعاكسـة، ولإستعادة المواقع في حالة تقهقر الصفوف إلى الوراء بفعل الهجمات الرومانية .أمـا الاحتيـاط المتحـرك بقيادة خالد فيشكل احتياطاً تعبوياً للفيلقين الأوسطين، واحتياطاً عاماً لـدعم أي جنـاح هـدد وتعـرض للضغط الزائد، لإعادة السيطرة على الموقف مرة أخرى.

كلا جناحي الجيشين المتحاربين، متشابهين، إذ يستند الجناح القبلي على نهر اليرموك، وهنا يصعب تماما القيام بأي عمليات التفاف لأي من الجيشين، أما الجناح الشمالي، فمفتوح ومعرض لعمليات الالتفاف الخطرة يكن الاختلاف طبوغرافيا في طبيعة مؤخرتي الجيشين .إذ يمتد خلف المسلمين، الجزء الشرقي من سهل اليرموك حتى تلال أزرع المتكسرة، وجبل الدروز .وهذه الميّزة تهيء للمسلمين سهل النجاة في حالة تردي موقفهم .أما الجزء الجنوبي من مؤخرة الرومان فتشمل وادي الرقاد الصعب المسلك .وقد يوحي هذا بالتشجيع على عدم التراجع وبالتالي الاستماتة في القتال، لكن في حالة سوء موقفهم القتالي، وعدم تمكنهم من التراجع عبر الطريق الشمالي فإن هذا الوادي سيشكل مصيدة الموت لهم .وسيبدأ بقتال دفاعي لامتصاص هجمات الرومان، وإذابة زخم هجومهم .عندما يبدأ التعرض، بدفع الرومان باتجاه وادي الرقاد، وقتلهم أو الاستسلام.

وضع نسوة وأطفال رجال كل كتيبة خلفها مباشرة، وفي معسكرات على خط موازي تقريباً إلى خط القتال .وطاف بينهن أبو عبيدة، وأمرهن بحمل أعمدة الخيام، وتهيئة أكوام من الحجارة، لاستخدامها ضد أي مسلم منهزم، وأمرهن بمجابهة المنهزمين بأطفالهم ونسائهم، ليعودوا للمعركة دفاعاً عن أهلهم ودينهم، وهكذا عملن .كذلك قام خالد وأبو عبيدة، بالطواف على الكتائب .وخاطب كل كتيبة، بأن ساعة الامتحان والصبر دنت وأن –الضعف والجبن سيؤديان إلى الذّل، وأن من يجابه تحد السيف بشجاعة فله الشرف كله، وسيجزي على أعماله خيراً من الله، وأن الله سيكون مع جنده حاملي رسالته المؤمنين الصابرين، بينما قام القادة الآخرون والأئمة بالحث على الجهاد، وأخذ الجميع يرددون بعدهم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وبعض الآيات الأخرى المناسبة لذلك الموقف.

اشتد حر الليلة التالية في الأٍسبوع الثالث من آب عام 636م (الأسبوع الثاني من رجب سنة 15هـ) وأمضى المسلمون تلك الليلة بالصلاة والدعاء والتهليل والتكبير .وأخذوا يتذاكرون بإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة .وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سن منذ معركة بدر قراءة جزء من سورة الأنفال قبل أية معركة .وفي تلك الليلة كانت تلك الآيات الكريمة تتلى من قبل الأفراد والجماعات.

كانت النيران تشتعل في المعسكرين ويمكن رؤيتها على بعد أميال عديدة كأنها كواكب تتلألأ مرحة على سطح الأرض .لكن قلوب من حولها لم تكن بتلك المرح أو النشوة، فإن التفكير فيما سيجلبه الغد، أخذ كل ابتسامة من أفواههم أو نشوة من قلوبهم .كانوا جميعاً مقاتلين أشداء هؤلاء الرومان والعرب، والأوروبيين والآسيويين، هؤلاء المسيحيين والمسلمين، كانوا أسودا للوغى أبطالاً صناديد، إلا أنهم كانوا بشراً أخذوا يتذكرون أطفالهم ونساءهم الذين ربما لن يروهم بعد الغد .تلك هي مقدّمة لمعركة اليرموك أعظم معركة في ذلك القرن وإحدى المعارك الحاسمة في تاريخ البشرية.

خوض المعركة

في فجر يوم المعركة الأول اصطف فيالق المسلمين بعد أداء صلاة الفجر بإمامة قادتهم، وما أن طلعت شمس ذلك اليوم حتى كان الجيشان مصطفين للقتال، تفصل بينهما مسافة ميل أو أقل .وكان كل جندي يعرف أن هذه المعركة ستكون طاحنة وسيكون القتال حتى آخر رمق في الحياة .حطت جنود المسلمين في تشكيلات الرومان الرائعة التي اصطفت متدرّعة سلاحها وتجهيزاتها البراقة .بالرغم من ثقة الرومان بأنفسهم لكثرة عددهم، إلا أن إنجازات المسلمين القتالية خلال السنتين الأخيرتين، جعلتهم ينظرون إلى الجند الإسلامي بعين الحذر والاحترام.

برز بعد ساعة من الانتظار أحد الجنرالات الرومان اسمه جورج إلى ساحة الوغى من قلب الجيش الروماني باتجاه قلب جيش المسلمين يقال أنه أحد المسيحيين العرب، وسأل عن خالد بن الوليد الذي سارع لمقابلته جذلا، وما أن اقترب منه خالد حتى بادر جورج بسؤال بالعربية، هل صحيح أن الله أرسل سيفا من السماء لنبيكم، وأن هذا أعطاك إياه، وأن هذا السيف إن سحب في وجه الأعداء يهزمهم لا محالة .إجابة خالد كلا، سأله جورج :لماذا تسمى بسيف الله المسلول؟ أخبره خالد بالقصة،

سأل جورج :وإلى أي شيء تدعوني؟ !أجابه خالد[1]: بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن تؤمن بما أتى به رسولنا من عند الله.

وإن لم أستجب؟

إذن الجزية وستكون تحت حمايتنا.

وإذا لم أستجب لذلك؟

سيكون السيف بيننا.

ما هو مكان من يتخذ دينكم اليوم؟

في ديننا هناك مكان واحد فقط .وهو أن الجميع سواسية.

أجابه جورج حينذاك، إنني أقبل الآن دينكم وأعلن إسلامي .تملكت الجميع الحيرة من هذا الانتظار وتلك المحاورة، التي لم يسمعها البعيدون وزادت حيرتهم عندما اتجه القائد الروماني وخالد إلى جيش المسلمين، وعند وصولهم كرر جورج بعد خالد، لا إله إلا الله محمد رسول الله .(وبعد ساعات قليلة من بدء المعركة أبلى هذا القائد بلاء رائعاً في القتال وقدر له الاستشهاد في تلك المعركة) .وهكذا كان بدء معركة اليرموك.

والآن جاء دور المبارزة بين أبطال الجانبين، وكأن ذلك كان تحية للمعركة .كانت النتيجة لذلك اليوم في صالح المسلمين، استطاع عبد الرحمن بن أبي بكر أن يقتل خمسة من صناديد الرومان استمرت المبارزة حتى منتصف ذلك اليوم وعندها رأى ماهان –القائد العام للجيوش الرومانية –أن الموقف ليس في صالحه، ليس في فقدانه أفضل ضباطة فحسب، بل أن التأثير المعنوي سيكون سيئاً على جنده .وحبذ أن يقوم بمعركة شاملة لعل القوة العددية التي يتمتع بها تتغلب على مهارة الفرسان المسلمين .لذلك قرر القيام بتعرض محدود على جبهة واسعة، لاختبار قوة المسلمين، آملاً في نفس الوقت أن يستطيع أحداث ثغرة في صفوفهم

---

[1] الواقدي- المغازي صفحة 101-102.

بعد ذلك بقليل تقدم عشرة صفوف من المشاة الرومانيين للإمام –حوالي الثلث –تحركت هذه الموجات البشرية ببطء وحذر، وحالما وصلت إلى مرمى السهام، تعرضت تلك الصفوف إلى رشقات كثيفة من السهام أوقعت خسائر لا بأس بها إلا أن تقدمهم استمر حتى قربوا من الجند المسلمين الذين رموا الرماح واستولوا سيوفهم، والتحم الجانبان في قتال قريب .لم يكن الهجوم الروماني من الشدة بمكان لعدم توفر العزم على الضغط بشدة سيما وأن هناك أعداد كبيرة منهم لم تكن لديها خبرة القتال والاندفاع الذي كان متوفراً في جانب المحاربين المسلمين .ويمكن وصف قتال هذا اليوم بأن كان ثابتاً ومعتدل الشدة مع غروب شمس ذلك اليوم انفصل الجيشان عن بعضهما وعادا إلى معسكريهما .وكانت الخسائر خفيفة في كلا الجانبين إلا أنها كانت في جانب الرومان أكثر.

مضت الليلة بسلام ما عدا بعض المناوشات التي دارت بين دوريات المسلمين وبعض عناصر الإنقاذ للموتى الرومانيين عند عودة المسلمين إلى معسكراتهم استقبلهم النسوة للتحية والتشجيع ولمسح العرق والدم من وجوههم وأسلحتهم بأغطية رؤوسهن مما كان له أجمل الأثر في نفوس المسلمين كما أن زيادة الخسائر في الجانب الروماني أعطى مزيداً من الثقة لنفوس الجند المسلمين وأمضوا بقية الليلة بتلاوة القرآن والدعاء إلى الله بإحراز النصر على الأعداء.

في تلك الليلة، استدعى ماهان مجلس حربه، لبحث الخطط القادمة وأراد تغيير تكتيكه للقتال اللاحق بناء على ذلك قرر أن يشن هجومه مع الضوء الأول لليوم التالي، مستغلاً ساعات الظلام لتشغيل وتهيئة القوات، على أمل أن يفاجئ المسلمين قبل التهيؤ التام للقتال .بالإضافة إلى أن قوة الهجوم ستكون أكبر من معركة الأمس .يقوم الجيشان المركزيان بهجوم على قلب جيش المسلمين بينما يقوم جيشا الجناحين بتوجيه ضربتين رئيسيتين، لدحر جناحي المسلمين للخلف أو دفعهما باتجاه القلب .وليكون في موقع مسيطر، أمر ماهان بنصف سرادقة، على رابية مسيطرة تقع خلف الجناح الأيمن لجيوشه ووضع حرسه المؤلف من (2000) أرمني حول السرادق لحمايته.

كان المسلمون يؤدون صلاة فجر اليوم التالي، عندما تناهي لمسامعهم قرع الطبول المتقدّمة، ووصول بعض جند المواقع الخارجية –القوات الساترة –للإبلاغ عن بدء هجوم الرومان .بغت المسلمون بهذا الهجوم، إلا أن خالد كان قد فتح خطاً من القوات الساترة قوياً أثناء الليل، وقد تلقت تلك القوات هجمات الرومان، وحققوا المهمة بتأخير الرومان حتى توفر وقت كاف لبقية الجيش من التدرع بسلاحه، والإسراع إلى مواقع القتال المخصصة قبل وصول الطوفان إليهم، أكثر من ذلك، السرعة التي تمت بها الاستعدادات الإسلامية على غير ما توقع الرومان.

كما خطط الرومان للمعركة، فقد كان الهجوم على القلب هجوما مبيتاً ولذلك بقي القلب الإسلامي متماسكاً وقوياً، إلا أن الجناحين تلقيا الضربة الأعنف من الجيش الروماني فعلى جناح المسلمين الأيمن بقيادة عمرو بن العاص قام بالهجوم قناتير وجيشه السلافي الذي باء بالفشل في تحقيق مهمته في الموجه الأولى من الاقتحام، عاد وكرر هجومه بقوات جديدة ولم يكن حظه أفضل هذه المرة، إلا أن هجومه للمرة الثالثة وبقوات جديدة أيضاً وبعزيمة أقوى أدى إلى تقهر جناح المسلمين الأيمن باتجاه المعسكر وقسم آخر باتجاه قلب جيش المسلمين باتجاه فيلق شرحبيل عند ذلك أمر عمرو بن العاص احتياطه المكون من 2000 فارس بالقيام بهجوم معاكس واستطاع دحر السلاف إلى الخلف وقاموا بمطاردتهم لمسافات بعيدة إلا أنهم لم يتمكنوا من مسك الأرض بقوة لمدة كافية، ولقيام السلاف بهجوم مضاد أجبرهم على التراجع باتجاه المعسكر أيضاً .وحال وصول الفرسان مع المشاة معسكر المسلمين قوبلوا بصف من النساء المسلمات بالأعمدة والحجارة وأخذن يضربنهم ويهزئنهم بكلمات جرحت كبرياء أولئك الصناديد، فاستداروا وراء الأعداء واستطاع عمرو توجيه معظم فيلقه في عملية هجوم معاكس آخر ضد جيش قناتير بروح وثابة مملوءة بالغضب والحقد.

لم يكن الموقف على مسيرة المسلمين بنفس الدرجة من السوء التي وصلت إليها ميمنتهم، لكن ما حدث هنا يشبه ما حدث على الميمنة، إذ قام الرومان بهجومهم الأول وصده ثم قاموا بهجوم آخر أكثر عنفاً، استطاعوا خلاله فتح ثغرة في جيش

يزيد، إلا أن الانـدفاع كـان بطيئاً بسـبب السلاسـل التـي ربـط جريجـوري جنـده بهـا ولكنـه انـدفاع صلب .شن يزيد أيضاً هجومه المعاكس بفرسانه إلا أنهـم دحـروا، وبعـد مقاومـة عنيفـة تراجـع فيلـق يزيد، بات معسكر المسلمين وهناً جوبهوا بما جوبه به فيلق عمرو وكانـت في مقـدمتهن هنـد وخولـة بنت الأزور[1].()

صدف أن أول فارس مسلم يصل إلى المخيم هو أبو سفيان فتلقته هنا –زوجته –وضربت هامـة حصانه .إلى اين؟ يا ابن حرب؟ عد للقتال وأظهر شجاعتك لتكفر عن سيئاتك ضد رسـول اللــه .قالـت له زوجته .ولمعرفة أبو سفيان بشراسـة زوجتـه عـاد أدراجـه إلى المعركـة لا يلـوي عـلى شيء .ولم يكـن نصيب البقية بأحسن من نصيبه، وسرعان ما عاد الجنـد إلى المعركـة بـروح أشـد عنفـاً وتصـميماً عـلى القتال.

بينما كان القتال الشرس يدور على الجناحين، كان خالد في القلب يرقب المعركة، ولم يشـأ التـدخل إلا عندما تسوء الظروف، ويصبح لزاماً عليه استخدام الاحتياط العام .اتجه أولاً إلى الميمنـة عنـدما بـدأ عمرو بن العاص تعرضه بعد اندحاره، وهاجم خالد جيش قناتير من الجنـب بيـنما عمـرو بـن العـاص هاجمه جبهوياً .بعد هنيهة بدأ الرومان بالتقهقر للخلف وعادوا إلى مواقعهم السابقة واستطاع عمـرو بن العاص من استعادة الأرض التي فقدها، وأخذ يعيد تنظيم فيلقه استعداداً للجولة القادمـة .حينئـذ استدار خالد بقوة فرسانه الاحتياطية تجاه الجناح الأيسر في نفس الوقت أعاد يزيد هجومه ضد جيش جريجوري بهجوم معاكس جبهوي.

أفرز خالد كتيبة فرسان تحت قيادة ضرار بن الأزور ليهاجم جبهة جيش تراجان بعملية قصـد بهـا تهديـد انسحاب جناح الجيش الروماني الأيمن من مواقعه المتقدّمة .قام هـو نفسـه عـلى رأس بقيـة القـوة الاحتياطيـة، بمهاجمة جناح جيش جريجوري وهنا أيضـاً تراجـع الرومـان تحـت وطـأة هجـومين معاكسـين جبهويـاً وجنبيـاً

---

[1] الواقدي - صفحة 149.

في تلك الأثناء هاجم ضرار جبهة تراجان، ورأى الأخير وحرسه في مقدّمة الصفوف فهاجمه ضرار بمعركة قصيرة خر تراجان على أثرها صريعاً .إلا أنه نتيجة للضغط المتزايد اضطر ضرار للانسحاب إلى خط قتال المسلمين[1].

مع غروب شمس اليوم الثاني للمعركة، كان جيشا الالتفاف الرومانيين قد دحروا إلى الخلف، كما أن جيشا الوسط قطعا الاتصال بجيش المسلمين والانسحاب إلى موقعهما الأصلية .خلال هذا اليوم كان موقف المسلمين حساساً للغاية وبخاصة الجناح الأيمن الذي تلقى الصدمة الأثقل .مع ذلك ما أن انتهى ذلك اليوم حتى عاد المسلمون إلى مواقعهم الأساسية، بعد دحر جناحي الرومان وتراجع قلبهم إلى مواقعهم التي انطلقوا منها في الصباح .على أية حال دار القتال دفاعيا من جانب المسلمين كما خطط له، ولم تكن الهجمات المعاكسة التي قاموا بها، سوى جزء من الإجراءات الدفاعية العامة .كانت الروح المعنوية لدى الجيش الإسلامي عالية، ليس فقط بتعرضهم لهجوم رئيسي وصمودهم ضده بل أنهم استعادوا زمام المبادأة مع انتهاء ذلك اليوم واستعادوا ما فقده من أرض.

في الجانب الروماني لم تكن الروح بنفس ارتفاع روح المسلمين، وذلك لفشل هجومهم الرئيسي ودحره من قبل المسلمين، أضف إلى ذلك الهجمة الجريئة التي قام بها ضرار أودت بحياة تراجان أحد القادة البارزين في الجيش الروماني، عدا عن آلاف القتلى الذين تجندلوا على سهل اليرموك ذلك اليوم .نصب ماهان قائداً جديداً بدلا من تراجان هو (قورين) وعين قناتير على رأس الجيش الروماني أيضاً، ذلك لنيته بتوجيه الضربة الرئيسة في اليوم التالي على جناح المسلمين الأيمن وعلى الجزء الأيمن من قلبهم.

حتى هذا الوقت لم تصل المعركة إلى أوج قوتها .مع دخول اليوم الثالث أشتد لهيب المعركة شيئاً فشيئاً وكان للمسلمين فيه اليد الطولى على أعدائهم خلال

---

[1] الطبري/ الجزء2- صفحة 597

هذا اليوم، لم يتحرك جيش السلاسل لكثرة الخسائر التي عانها في اليوم السابق .أما جيش قناتير فقد قام بجهد محدود ضد جبهة أبي عبيدة، كإجراء تثبيتي لاحتياط المسلمين العام، الذي ينفتح خلف فيلق أبي عبيدة، أما الأرمن الجناح الأيمن فوجهوا ضربتهم ضد الجناح الأيمن للمسلمين، متخذين الحدود بين فيلق عمرو وفيلق شرحبيل مركز دائرة هجومهم .وكما حدث بالأمس فقد صدت الموجه الأولى من الهجوم، إلا أن ميزان التفوق العددي في جانب الرومان، وهكذا وقبل حلول منتصف النهار، استطاع قناتير اختراق صفوف المسلمين من خلال عدة ثغرات واندحر فيلق عمرو باتجاه المخيم وكذلك فصل قسم من فيلق شرحبيل الذي تعرض لهذه الهجمة العنيفة .ومرة أخرى تلقتهم النسوة بأسلحتهن، أعمدة الخيام والحجارة وألسنة ماضية، مما أجبر المسلمين على تفاديهم ومواجهة الرومان.

أوج المعركة

شكل الجزء الأكبر من القوات المندحرة، خطاً دفاعياً ثانياً لإيقاف الرومان، وشن عمرو هجوماً ضد الرومان بفرسانه ومشاته، لدحرهم للخلف إلا أن نجاحه كان محدوداً في تلك الأثناء تفاجأ خالد بسيدة مسلمة قادمة إليه لتنقل إليه فكرة اختمرت في ذهنها، فقالت :يا ابن الوليد، يا أحد أنبل شجعان العرب، أعلم أن الرجال يبقون مع قادتهم في القتال، وإن ثبت القادة ثبت الجند، أما إذا هزم القادة فسيتبعهم جنودهم .شكر خالد تلك السيدة النبيلة وشكرها بأدب لنصيحتها تلك وأكد لها أن قادة هذا الجيش لن يهزموا بعون اللـه.

بدأ خالد يشن هجوماً معاكساً مركزاً بقوة الاحتياط المحموله على الخيل ووجهها ضد جناح قناتير الأيمن، وفي نفس الوقت، التف عمرو بن العاص بكتيبة فرسانه، وهاجم جناح قناتير الأيسر، بينما قامت مشاته ومشاة شرحبيل بهجوم معاكس جبهوي رغم شدة ذلك الهجوم إلا أن الرومان صمدوا صمود الأبطال .ومع مغيب الشمس استطاع المسلمون دحرهم إلى مواقعهم الأساسية، واستعيدت المواقع كما كانت في بداية المعركة، ولكن ثمن ذلك كان باهظاً في صفوف المسلمين.

لقد كان هذا اليوم أقسى من سابقيه، وتكبد الرومان خسائر تفوق كثيراً خسائر المسلمين، مما أثـر على الروح المعنوية للجيش الروماني، إذ رغم الهجمات المتكررة لم يحقق القادة الرومان أي انتصـارات، بالإضافة إلى الأثمان الباهظة لتلك الهجمات .كما أنهم لم يكونوا بأحسن حال عما كان عليـه الموقـف في بداية المعركة، مما جعل ماهان يوبخ قادته توبيخاً شديداً، ووعدوه بالنجاح خلال اليوم التـالي للقتـال، والذي كان في الواقع أكثر الأيام حساسية للمعركة، اليوم الرابع.

أمضى خالد وأبو عبيدة تلك الليلة، بالتجول على معسكرات المسلمين موجهين ومشجعين، وتفقدوا الجرحى وواسوهم وأمروهم بالاستمرار في القتـال عـلى المسـلم أن يتعـرض لإصابة بليغـة لـيخلى إلى الخلف للمعالجة ما عدا ذلك فإن المصابين الآخرين يمضون سويعات قليلـة لتضـميد الجـراح وبعـدها يعودون إلى ركب الشرف والجهاد.

تميّز فجر اليوم الرابع للمعركة بالتخوف والرهبة من النتائج، واعتبر الرومان هذا اليوم هو اليـوم الحاسم، وذلك لأن جميع هجماتهم حتى ذلـك الوقـت لم تـؤت ثمارهـا، تحقـق خالـد مـن أن المعركـة وصلت ذروتها، وأن نتائج عمليات ذلك اليوم سـتقرر مصيرها كـما أن تكبيـد الرومـان خسـائر كبـيرة، بالإضافة إلى الآلاف التي تكبدوها، سيؤدي إلى أخذ زمـام المبـادرة مـن أيـديهم، وذلـك بشـن عمليـات التعرض المعاكسة من قبل المسلمين .أما معظـم خسـائر المسـلمين حتـى ذلـك اليـوم، فقـد وقعـت في صفوف رماة السهام المنتشرين في الصف الأول، ولم يبق منهم سـوى ألفـين ملائمـين للقتـال وقـد أعيـد توزيعهم بمعدل (500) بكل فيلق .يضاف إلى ذلك التعـب والإرهـاق الـذي لحـق بالمسـلمين نتيجـة القتال المستمر دون تبديل، لقلّة عددهم.

كان اهتمام خالد منصباً على الجناح الأيمن الذي يقوده عمرو بن العاص والذي يأتي بعد خالد من حيث المقدرة القتالية، بالإضافة إلى صفة الدهاء التي امتاز بها بين العـرب، مـما جعلـه أكـثر مـن كفـؤ لمواجهة جنرالات الرومان.

قــرر ماهــان بــدء عمليــات اليــوم الرابــع، بشــن هجــوم عــلى نصــف جبهــة الجيش الإسلامي الأيمن، كما فعل في اليوم السابق، وبعد دفع ذلك النصـف إلى الـوراء،

يقوم بمهاجمة النصف الأيسر لتدميره .تقدم الجنرال قناتير بجيشه السلافي والأرمني، وهاجم جبهة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة .أدت هذه الهجمة إلى دفع فيلق عمرو للوراء ولكن ليس لمسافة طويلة رهبة من النساء اللواتي تهيأن لهم بالمرصاد .توقف عمرو وفيلقه واستلوا سيوفهم وعملوا في رقاب السلاف الذين تكبدوا خسائر كبيرة في ذلك اليوم .أما جبهة شرحبيل، فقد هاجمها الجيش الأرمني مسنداً بجيش جبلة .واستطاع إحداث أخطر خرق في صفوف المسلمين، مما أجبر الآخرين على التقهقر للخلف بعملية إعاقة وتأخير نجح في ذلك، لكنه لم ينجح في دحرهم للخلف .هنا تحقق خالد من ضرورة تدخل الاحتياط ضد هذا الخرق.

لقد خشي خالد أن يكون هجوم الرومان بقوة على طول الجبهة في آن واحد لأن احتياطه في هذه الحالة غير قادر على مجابهة جميع الثغرات التي يمكن أن يحققها العدو في صفوف المسلمين، ففي اليوم الثاني للقتال استطاع خالد استعادة الموقف على الجناحين، بضربة قوات العدو وعلى الجناح الأيمن أولاً، حتى إذا انهار، استدار إلى الجناح الأيسر بناء على ذلك وعندما رأى تضعضع موقف عمرو وشرحبيل أمر أبا عبيدة ويزيد، بالقيام بعملية هجوم تخريبي على جناح الرومان الأيمن .وهكذا عندما قارب النهار على الانتصاف كان الفيلقان ملتحمين مع جيش قورين وجيش جويجوري.

بعد أن اطمأن خالد على ميسرته، قرر ضرب الأرمن الذي حققوا بعض النجاحات على ميمنته، وقسم قوته الاحتياطية إلى جزئين متوازنين، الأول تحت قيادة قيس بن هبيرة، وأبقى الجزء الثاني تحت قيادته هو وفي الحال تقدم مسرعاً بقوته والتف خلف فيلق شرحبيل، وبرز ضد الجناح الشمالي للجيش الأرمني، وهنا تشكل (3) هجمات معاكسة ضد الجيش الأرمني وجيش المسيحيين العرب .خالد من الشمال فقيس من الجنوب وشرحبيل من الوسط.

دار قتال مرير في هذا القاطع من ساحة المعركة، اسفر عن تقهقرات قوات الأرمن حتى وصولا إلى مواقعهم السابقة، تاركين وراءهم خسائر كبيرة إلا أن الخسائر الأكبر وقعت بين صفوف جيش جبلة .عندما كان الأرمن يتقهقرون

فزعين، تحول عمرو بن العاص إلى السلاف الذين سرعان ما لحقوا بزملائهم لانكشاف جناحهم الأيمن بسبب تراجع الأيمن[1].

وبهذا تكون مواقع عمرو وشرحبيل مع مساء ذلك اليوم قد استعيدت كما كانت في الصباح .في نفس الوقت، كان القتال على أشده على الجناح الأيسر للمسلمين، ومما زاد في حراجة الموقف أن جميع الاحتياط العام الإسلامي اشغل على الجناح الأيمن، ولم يتسنَ لأبي عبيدة ويزيد أن يحصلا على أي دعم منه .مع ذلك كان النجاح حليفهما عندما بدءا عملياتهما وتعمقا في مواقع العدو، إلا أن جيشاهما اصطدما بسد منيع من رماة السهام الرومان الذي امطروا ساحة المعركة بآلاف مؤلفة من السهام والتي كانت أبعد مدى من أقواس المسلمين، مما أوقع إصابات كثيرة بين صفوف المسلمين .ومن بين تلك الإصابات ((700مسلم فقدوا إحدى عيونهم، ومن بينهم كان أبو سفيان .كان هذا اليوم حقاً هو أسوأ يوم للمسلمين، مما أجبر جناحهم الأيسر على التراجع تخلصاً من تأثير سهام الرومان وبأمر من قائدي الفيلقين.

إلا أن ماهان والقادة الرومان، وبعد أن رأوا ما حل بجناح المسلمين الأيسر ارادوا استمثار الفوز، فاستمروا في التعرّض ضد ذلك الجناح، وهكذا التحكم جيشا الجناح الأيمن الروماني بفيلقي الجناح الأيسر للمسلمين، أدى ذلك إلى مزيد من التراجع من جانب المسلمين .ما عدا كتيبة عكرمة التي صمدت وكانت تعمل على جناح أبي عبيدة الأيسر .عندما رأى هذ القائد الشجاع ما حل بجيشه ، نادى الأبطال، لأداء قسم الموت، فتقدم منه (400) مقاتل وأقسموا يمين الهلاك، وانقضوا على الجيش الروماني كالذئاب الجائعة، وقد أسفر ذلك عن إصابة عكرمة وابنه عمرو بجروح قاتلة.

لم يصل فيلقا أبي عبيدة وزيد أثناء تراجعهما إلى معسكر المسلمين ذلك لأن نساءهم قد هرعن إلى المعركة وقد حمل قسم كبير منهن السيوف للتشرف في طلب الشهادة،

---

[1] الواقدي - صفحة 153.

حتى النساء، عرفن أن هذه المرحلة من المعركة، هي أشد المراحل حساسية وتأثيراً على مستقبل القتال .تقدمت النسوة وقد تسلحن بالسيوف والأعمدة لمقاتلة الرومان وبالمياه والعقاقير لإرواء ظمأ المسلمين ومعالجتهم من بين أولئك النسوة خولة بنت الأزور، وزوجة الزبير، وأم حكيم، وقد تخطين الصفوف إلى صف المسلمين الأول القتالي، وقد أدى ذلك كله، إلى تحول مجرى المعركة جذرياً، ذلك أن المسلمين عندما رأوا نساءهم يقاتلن جنباً إلى جنب معهم، بل في بعض الحالات أمامهم، تحولوا إلى أسود والتحموا مع الرومان مستخدمين السيوف والخناجر، ولم يبق دور للاستراتيجية ولا المناورة، بل أصبح الموقف يتطلب الجهد الفردي، لامتحان الصبر والشجاعة والمهارة في استخدام السلاح .وبرز مدى عمق الإيمان بالعقيدة والهدف، واختلف الحابل بالنابل وانشغل القادة بقتال فردي كجنودهم، ووصلت المعركة السابقة بخسائر فادحة، ولم يكن نصيب المسلمين بأقل منهم نسبياً، إذ ندر أن سلم المقاتلون من أي إصابة في ذلك اليوم، لكن قلوبهم كانت جذلة للنتيجة التي وصلت إليها القتال، وأفشلا الانتصار الروماني الذي كاد يؤدي بهم إلى الهلاك .كان أكثرهم جذلاً هو خالد الذي عرف أن ساعة الخطر قد فاتت وأن نجاح المسلمين أصبح أكثر منالاً((.[1]

مع حلول الظلام وسكون الليل، انصرف الجمع إلى مواقعهم لإعادة التنظيم والمعالجة والإطعام، في تلك الأثناء، وفي ركن قاطع فيلق أبي عبيدة الأيسر جلس خالد بن الوليد القائد العام للمسلمين، جلس على ركبتيه وقد وضع على إحداهما رأس عكرمة وعلى الثانية رأس ابنه عمرو، يعانيان من سكرات الموت الأخيرة .وخالد بن الفينة والأخرى يسكب قطرات ماء في فم الأب وابنه ويواسيهما ويبشرهما بأريج الجنة مأوى الشهداء والصالحين .وما هي إلا لحظات حزينة مرت حتى أسلما روحيهما الطاهرتين إلى بارئهما عز وجل، بين يدي قائدهم الشجاع الحبيب، سيف الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم اللذان استلاه ضد الطغاة الظالمين.

[1] الواقدي - صفحة 152.

مرت تلك الليلة بسلام، إن أستطعنا مجازاً استخدام هذا التعبير على رجال أثخنتهم الجراح وأرهقهم القتال .عادة ما كان أبو عبيدة يعين أحد القادة وعدداً من الضباط ليقوموا بجولات على الوحدات والخفارات للتأكيد من التهيؤ والترقب، إلا أنه في تلك الليلة ولقلبه الرحيم، لم يشأن أن يعمل ذلك بل قام هو نفسه، يرافقه رهط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقيام بواجبات ضابط الخفر، وسرعان ما تلاشت تخوفاته إذ رأى القادة الآخرين يقومون بنفس العمل، ومن بينهم الزبير وزوجته التي كانت ترافقه ممتطية جواداً كزوجها.

اصطف الجيشان في مواقعهما القتالية مع ظهور تباشير صباح اليوم الخامس، ولكن الجند لم يكونوا بحالة من النشاط واليقظة في شيء، ذلك لأن بجانب كل جندي غير جريح زميلاً له يعاني من الآلام والإرهاق .أمعن خالد النظر باتجاه الجيش الروماني، واحتار لعدم ظهور أي حركة تدل على التعرض أو القتال، وبعد ساعات قليلة تقدم الصفوف أحد الرومان متجهاً نحو المسلمين .كان ذلك رسولاً من ماهان يعرض عقد هدنة لعدة أيام، وقد طابت الفكرة لدى أبو عبيدة، إلا أن خالد أعاد بجواب سلبي .كان حدس خالد أن رغبة القتال لدى الرومان قد تلاشت، وكان حدسه في مكانه، أعيد تجميع كتائب الفرسان بقوة واحدة متكاملة وصل عددها إلى ((8آلاف فارس تقريباً.

بزغ فجر اليوم السادس للمعركة صافياً ناصعاً –الأٍسبوع الرابع من آب عام 636م (الأٍسبوع الثالث من رجب عام 15هـ) وقد تهيأ المسلمون وكلهم أمل في تحقيق مهام الخطة، التي رسمتها لهم قادتها وامتدت أمامهم صفوف الرومان المتراصة، الذين كانوا أقل أملاً ولكن لم تنقصهم الشجاعة أو رغبة متبقية لقتال.

ما أن ارتفعت الشمس من فوق جبل الدروز، وبسطت أشعتها الذهبية على سهول حوران حتى تقدم جريجوري على رأس جيش السلاسل من قلب الجيش الإمبراطوري قدم هذا القائد ومهمته قتل قائد المسلمين، والتأثير على معنوياتهم .ما أن وصل حتى نادى للمبارزة بأعلى صوته، وطلب بالذات قائد المسلمين .وسرعان ما اندفع أبو عبيدة رغم الحاح خالد وبقية القادة عليه بالعدول، لما اشتهر عن

جريجوري من قوة فائقة، ومهارة قتالية ممتازة .بدأت المبارزة بالسيوف بين القائدين وهما ممتطيين جواديهما، وقد أذهلا الجميع لبراعتهما في مبارزة السيوف، وما هي إلا لحظات حتى انكفا جريجوري عائداً باتجاه جيش الرومان مسرعاً، وتبعه أبو عبيدة، الذي لم يجد صعوبة في اللحاق به، فما كان من جريجوري الذي قام عمداً بتلك المناورة البارعة، إلا أنه وجّه ضربة بسيفه كادت أن تكون قاتلة، إلا أن أبا عبيدة تفادها بسرعة ووجه ضربة مماثلة إلى أسفل عنق جريجوري، فجندله مترنحاً إلى الأرض يتخبط بدمائه عاد بعدها أبو عبيدة إلى صف المسلمين مزهواً بالفخار والنصر.

حال عودة أبي عبيدة من المبارزة، أسرع خالد بحصانه نحو فرسان المسلمين –القوة الاحتياطية –الذين كانوا يتمركزون خلف فيلق عمرو بن العاص وأعطى الإشارة إلى فيالق المسلمين بالهجوم .تقدّم المسلمون للأمام واشتبك قلب وميسرة المسلمين مع الجبهة الرومانية، أما الفرسان فأسرعوا بمهاجمة جناح ميسرة الرومان الشمالي، ومن هناك أفرز خالد كتيبة فرسان لمشاغلة وتثبيت فرسان الرومان لتلك الميسرة، ووجه بقية القوة بهجمة قوية على الجناح الأيسر الروماني، في نفس الوقت الذي قام به عمرو بمهاجمة ميسرة الرومان السلاف جبهوياً .أبدى السلاف مقاومة شجاعة، إلا أنهم تحت ضربات خالد وعمرو وعدم إسنادهم من بقية فرسان الرومان كل ذلك أدى إلى تقهقرهم للخلف، باتجاه قلب الجيش الروماني –الأرمن.

بعد أن تحطم الجناح الأيسر للرومان، استمر عمرو بضغطه باتجاه اليسار وهاجم جناح الأرمن الأيسر المكشوف، الذي دبت به الفوضى حال وصول السلاف المكسورين إليهم .في تلك الأثناء، اتجه خالد بفرسانه نحو اليسار، واشتبك مع فرسان الرومان أيضاً الذين ثبتوا من قبل كتيبة فرسان مسلمة التي أفرزها خالد في بداية الهجوم كما سبق أن ذكر.

بدأت المرحلة الثانية من تعرض المسلمين، بتقدم شرحبيل وفيلقه لمهاجمة جبهة الجيش الأرمني في نفس الوقت الذي كان فيه عمرو بن العاص يهاجم جناحيهم

الأيسر، أما خالد فاستمر في هجومه ضد فرسان الرومان بشدة مما أجبرهم على التقهقر، والذي تحول بعد بعض الوقت إلى هزيمة باتجاه الشمال، طالبين النجاة بأرواحهم –لقد ملوا القتال وعانوا الأمـرين منه.

لقد كان قصد خالد من تلك المناورة البارعة .هـو عـزل سـاحة المعركـة الرومانيـة والتـي يشـغل معظمها المشاة، عزلها من الفرسان الذين يعتبرون عاملاً حاسماً في تغيير سير المعارك.

لما رآى هامان ما حل بفرسان الميسرة، أمر بحشـد الفرسـان كقـوة متكاملـة خلـف قلـب الجـيش الروماني، لشن هجوم معاكس وإعادة احتلال المواقـع المفقـودة، إلا أن الوقـت كـان قصـيراً سرعـان مـا تعرضت هذه القوة وقبل تكاملها إلى هجوم جبهوي وجانبي من قبل فرسان المسـلمين الأخـف حركـة والأكثر مرونة في المناورة، مما جعلها بعـد هنيهـات تـولي الأدبـار باتجـاه الشـمال آخـذةً معهـا ماهـان قائدها وراعي صمودها قبل لحظات .وهكذا عزلت المشاة بهروب ((40ألف على رأسهم ماهان وكـان معظمهم من الفرسان النظاميين في الجيش الإمبراطوري.

في تلك الأثناء كان الأرمن يقاومون عمرو وشرحبيل بكل شراسة ورغم محاولتي اقتحـام قـام بهـما القائدان حتى الآن، ولم يكن هذا غريباً على محاربي الأرمن الأِشداء الذين كانوا من أشجع وأمهـر رعايـا الإمبراطورية الرومانية، كان أبو عبيدة ويزيد أيضاً يهاجمون جبهة الرومان ولكن دورهـم كـان تثبيـت تلك الجبهة فقط أي تثبيت جيش قورين وجيش السلاسل بقيادة جريجوري.

بعد أن انهى خالد أمر الفرسان الرومان، شن هجومه التالي على مؤخرة الجيش الأرمني.

وفي هذا الموقف العصيب وبعد مهاجمتهم من ثلاث جهات، لم يبق للأرمن إلا أن يطلبوا السـلامة في الاتجاه الجنوبي الغربي، وهذا ما خطط له قائد المسلمين –خالد.

بعد انهيار الجيش الأرمني وانسحابه بطريقة فوضوية مع بقايا السلاف هـرب الجميـع باتجـاه وادي الرقـاد .أمـا بقيـة الجـيش الرومـاني فعنـدما رأوا مـا حـل في جنـاحهم الأيسر ومـؤخرتهم، بـدأوا بانسحاب منظم باتجاه الغرب .ما أن انتهى نهار ذلك اليـوم حتـى كانـت المشـاة الرومانيـة في تقهقـر وانسحاب، بعضها كان الفزع يسيطر عليه، والبعض الآخر كان ينسحب بكل نظام واتـزان .أمـا فرسـان المسلمين، فقد تقدموا من شمال الجيش الرومان لقطع الطريق أمام المنسحبين بالرغم من تـأخرهم في هذا الإجراء، مما أفسحَ المجال أمام آلاف من السلاف والأرمن بالهروب كما مر.

كان هدف الرومان المنسحبين هو الحصول على أطول مسافة فاصلة ممكنة بيـنهم وبـين الجـيش الإسلامي، لإنقاذ أرواحهم ولعلمهم بأن طريق الهروب الشمالي سـد مـن قبـل فرسـان المسـلمين، اتجـه معظمهم غرباً حيث يعترضهم وادي الرقاد، وكان القادة يتقدمون جنـودهم باتجـاه مخاضـة معروفـة على ذلك النهر وحيث تتوفر الطرق الجيدة نسبياً .كانت طريـق النـزول إلى ذلـك الـوادي مـن الجهـة الشرقية سهلة نسبياً وكذلك العبور، أما قمة الضفة الغربية له فهي صعبة تماماً وتشـكل مضـيقاً خطـراً ويكفي ثلّة من الشجعان أن تقف في وجه قوة كبيرة تفوقها أضعافا.

استطاعت أعداد كبيرة عبور النهر للغرب، إلا أن مقدمتهم سرعان ما فوجئـت عنـد قمـة الضـفة الغربيـة بوجود مجموعة من المسلمين مستلين سيوفهم ومتحفزين للقتال، يتقدمهم محارب يافع عـاري الصـدر، ذلـك هو ضرار بن الأزور، الذي كان قد أرسله خالد على رأس (500) فارس في الليلة السابقة للقيام بعمليـة التفـاف واسعة من شمال ميسرة الرومان، والتقدّم خلف قواتهم، على ذلك المضيق المشار إليه، وكانوا مهيئين لاسـتقبال فلول الروم الذين أخذ منهم الخوف والتعب كل مأخذ .وما أن دنت مقدّمة فلول الروم حتى بدأت مجموعـة ضرار تمطرهم بالحجارة رمياً ودحرجة مما أدى إلى تسـاقط تلـك الفلـول إلى الخلـف، وكـل مجموعـة تسـبب

في سقوط ما بعـدها وكأنـه انهيـار بشري متجـه إلى أسـفل الـوادي مقرونـاً بالصـياح والأنـين والصراخ والعويل[1].

ولما رأى القادة الرومان ما حل بمقدمتهم، ولصعوبة المناورة للقضاء على كتيبة ضرار، وهي طريـق الانسحاب الأمين والوحيد أمامهم، لم يكن لهم خيار سـوى الـدفاع عـن أنفسـهم ضـد فيـالق المسـلمين المهاجمة من الشرق، فاتخذوا من قمة الضفة الشرقيـة موقعـاً دفاعيـا يسـتند يمينـه عـلى حافـة وادي اليرموك وظهره إلى وادي الرقاد، ووقعوا بين فكي الكماشة.

وهكذا في ساعات ما بعد ظهر اليوم السادس من القتال، بدأت المرحلة الثالثة مـن الرومـان التـي احتشدت في بداية المعركة .تقدم المسلمون الآن على شكل نصف دائـرة مترابطـة بعـدد يقـارب (30) ألفاً، وهنا انتهى دور القائد الذي أوصل جنده إلى هذا الموقف المثالي للقتال وبقي الدور للفرد لإظهـار قوته وبراعته في القتـال الفـردي وهكـذا اسـتل القـادة سـيوفهم وتحولـوا إلى محـاربين فـرديين كبقيـة جندهم، وأطبقت أسود الصحراء على فريستها الشرسـة وسـاد الجـو صريـر السـيوف وقعقعـة الرمـاح وصياح الحرب من قبل المسلمين والولولة والعويل من الرومان .وبدأت المجزرة لفلول جـيش الرومـان في ذلك الوادي ونظراً لصعوبة الأرض وشدة انحدارها وهلع الرومـان وتـراجعهم، أدى ذلـك إلى وقـوع خسائر كبيرة بينهم نتيجة تلاصق كتلهم البشريـة وتـدحرجهم باتجـاه قعـر الـوادي وضـغط صـفوفهم الأمامية على الخلفية .وهكذا أخذت الأمواج البشرية تتهاوى باتجاه الـوادي موجـة بعـد أخـرى حتـى أرخى الليل سدوله وأصبحت الرؤيا عديمة لا تسمح بالمزيد من القتال[2].

وهكـذا انتهـت معركـة اليرمـوك أعظـم نصر حققـه خالـد بـن الوليـد –سـيف الـلـه المسلول في صباح اليوم التالي، بينما كان المسلمون يدفنون شهداءهم ويحصـدون الغنـائم، قـام خالـد عـلى رأس فرسـانه بعمليـة مطـارده لماهـان عـلى طريـق دمشـق

[1] الطبري/ الجزء الثالث - صفحة 100، البلاذري، صفحةت 142.

[2] الطبري، الجزء 3، صفحة 98.

وكقائد كسير القلب، أبيد جيشه، كان ماهان يسير على مهل نحو دمشـق، كـما أنـه لم يتوقـع أن يقـوم المسلمون بمطاردته بتلك السرعة، ولكن سرعان ما اتصل خالد وفرسانه بمؤخرة قوات ماهان المنسـحبة، وهاجمها على الفور، مما أجبر ماهان على الرجوع إلى المؤخرة ليستطلع الأمر، فكان منية ملك أرمينيـا، والقائد العام للجيوش الإمبراطورية الرومانية الشرقية قادته إلى حتفه.

وهكذا تمّ قتله على يدي أحد فرسان المسلمين .وبعد موته تفرق فرسـان الـروم جماعـات صـغيرة تطلب النجاة لأرواحها باتجاه الشمال والغرب للإفلات من قبضة المسلمين تقدّم خالد إلى دمشق التـي استقبلته بزهو وافتخار بالاتفاقية السابقة معه فوعدهم ذلك، ثم عاد وانضم إلى بقية الجيش في سهل اليرموك.

كانت معركة اليرموك أسوأ هزيمـة بهـا الإمبراطوريـة الرومانيـة الشرقيـة وأدت إلى انتهـاء الحكـم الروماني على سوريا إلى الأبد، حيث غادرها هرقل بعد شهر من انطاكيا بطريـق الـبر إلى القسـطنطينية مودعاً سوريا وقلبه ينزف دماً ويعصره الحزن، بوداعه الشهير وداعاً يا سـوريا الجميلـة وداعـاً لا لقـاء بعده.

كمثل جيد من أمثلة العمليات العسكرية تعتبر معركة اليرموك غنية بالـدروس والعـبر العسـكرية لقــد شــملت تلــك المعركــة عــدة أشــكال للمنــاورات التعبويــة مثــل معركــة التصــادم أو التصــادم الجبهوي والاختراق الجبهوي والهجوم المعـاكس والتصـدي بعنـاد للهجـمات .كـذلك شـملت هجـمات جانبية، وهجمات خلفية ومناورات إحاطة والتفاف .ثبات خالد واكتفاؤه خلال المرحلة الدفاعيـة التـي استمرت أربعة ايام، بهجمات معاكسة محدودة هـدف منهـا إلى اسـتعادة التـوازن التعبـوي الـدفاعي وأدى ذلك كله إلى امتصاص قوة الرومان تدريجياً ولم يقم بشن تعرضه العام إلا بعـد أن تأكـد مـن أن الرومان فعلاً وصولا إلى مرحلة حرجة وموقف ضعيف، مـما أدى عـلى أفضـل النتـائج وذلـك في اليـوم الأخير للقتال .خلال هذا اليوم طوى خالد الجيوش الرومانية من الجوانب باتجـاه القلـب طيـا، ولكـن ذلك تمّ بعـد عـزل القـوة المتحركـة فيـه –الفرسـان –وأخرجهـا مـن المعركـة مـما جعـل مشـاتهم في

موقف أشد حراجة وضعفاً، بدأ بعدها بهجومه التدميري، لاستثمار فوز تلك المعركة في احتلال جميـع سوريا دون التعرض لقتال جـدي .وهكـذا سـحق الجـيش الرومـاني بـين سـندان وادي الرقـاد ومطرقـة المسلمين وتحول إلى رماد ذرته رياح التاريخ إلى غير رجعة.

معركة القادسيّة

كما كانت معركة اليرموك هي الفاصلة بالنسبة للحرب ضد الروم في سوريا، فقد كانت معركة القادسية هي الأخرى فاصلة بالنسبة للحرب ضد الإمبراطورية الفارسية، لقد قررت هذه المعركة في خلال أربعة أيام مصير أكبر إمبراطورية في الشرق (فارس) فقوضت بنيانها وحطمت أركانها ورفعت أعلام العرب فوق إيوانها .لقد كانت تلك المعركة جديرة بأن تكون عبر التاريخ لأنها خاتمة عصر وفاتحة عصر رفعت دولة فتية إلا وهي الدولة الإسلامية المجيدة على أنقاض مملكة عجزت فغيرت وجه الشرق القديم .وفيها تجلّت عبقرية القائد الفذ سعد بن أبي وقاص الذي استطاع بحنكته وحسن إدارته للقوات أن يثبت أقدام الدولة الإسلامية في بلاد فارس.

الموقف العام

ذكرنا في حملة خالد بن الوليد على العراق أنه قام بتدويخ دولة الفرس ولم تكن الضربة قاضية ففرس لأنها كانت دولة عظيمة لكثرة مواردها ووفرة السلاح وقوة ومنعة جيشها.

تولى المثنى بن حارثة الشيباني أمور البلاد المفتوحة في العراق بعد سفر خالد لمنازلة دولة الروم كما مرّ سابقاً في معركة اليرموك .تنبه الفرس إلى فتوحات خالد في بلادهم والخطر الذي يهددهم فاتخذوا كافة التدابير ووحدوا صفوفهم وأعدوا تنظيم في الداخل وأخذوا يستعدون لمبادرة العرب بالقتال والقضاء عليهم قبل أن يتمكنوا من قهر الفرس وقد عيّن رستم قائداً للجيش الفارسي ومنح سلطات واسعة لاتخاذ ما يراه مناسباً من التدابير لقتال المسلمين، فحشد قوات عظيمة وحرض زعماء البلاد التي فتحها المسلمون على الثورة وبدأوا بالتحرش بالمسلمين.

جلا المسلمون عن بعض الأماكن التـي فتحوهـا وأسـندوا ظهـورهم إلى الصـحراء لأن القـوى التـي بقيت لم تعد تكفي لصد الفرس، وأخذوا يحاربون حرباً غير نظامية مكتفين بشن الغـارات عـلى مراكـز أعدائهم وإزعاجهم دون أن يشتبكوا في معركة فاصلة لعدم تكافؤ القوى.

سافر المثنى إلى المدينة وأطلع الخليفة على الموقف وعلى تدابير الفـرس وطلـب النجـدة وبعـدها عاد إلى الحيرة وبرفقته أبو عبيدة بن مسعود الثقفي وبعض الصحابة من الجند، وقد تولى أبـو عبيـدة قيادة ميدان العراق، واشـتبك مـع الفـرس في معـركتين هـزمهم في الأولى واستشـهد في المعركـة الثانيـة وانهزم جيش المسلمين بخسائر فادحة، فتولى المثنى القيادة واستعاد السيطرة عـلى الموقـف وكتـب إلى الخليفة يشرح له الموقف وطلب النجدة.

تجمع الجند من جميع البلاد وتمّ حشد قوة كبـيرة في المدينـة فغادرهـا الخليفـة عمـر عـلى رأس هذه القوة وكتم أمرها على كل إنسـان .وبعـد أن صـلى الخليفـة بـالجموع المحتشـدة شرقـي المدينـة أبلغهم بقصده ورغبته في إنجاز أمر دولة الفرس وبعدها قالوا له سر بنـا إلـيهم فـنحن عـلى اسـتعداد للقائهم، فقال لهم :استعدوا وأعدوا وبعد ذلك الاجتماع دعا عمر بن الخطاب رضي اللـــه عنـه وجـوه الصحابة وأهل الرأي وهم رجال الدولة وأقطابها وأجمع الكثيرون على أن لا يسير الخليفـة بنفسـه بـل عليه أن ينتدب غيره لقيادة الجيش وأن يبقى هو في المدينة .وأشاروا عليه بانتداب سعد بن أبي وقاص وقال (إنه الأسد عاديا) فأقرت القيادة لجند العراق إلى القائد سعد بن أبي وقاص.

الموقف الخاص:

سار سعد بجيشه حسب تعليمات الخليفة حتى وصل زرود (هي رمال بين المدينة والكوفة وتبعد عن الكوفة نحو 50كم) ونزل فيها حيث تلاحقت به بعض القوات العربية وهناك جـاءت نعـي المثنـى بن حارثة متأثراً من جراحه وقد ترك المثنى لسعد كتاباً ضمنه خلاصة تجاربه في الحـرب الطويلـة ضـد الفرس.

أتم سعد تعبئة قواته في زرود، ثم تابع الزحف وأخذ ينظم قواته استعداد لخوض المعركة .وفي هذا المكان وصلت تعليمات جديدة من الخليفة عن كيفية تنظيم الجيش إلى حظائر كل منها مؤلف من عشرة رجال وتأليف الكتائب من عدة عشرات، وقال عمر في تعليماته بعد أن يعرف كل جندي عريفه وكل عريف قائده، وكل كتيبة رئيسها وتنتهي من التعبئة سير كتائبك وهي على أتم نظام وواعدها الاجتماع في القادسية قد اختيرت القادسية بأن تكون قاعدة لجيش المسلمين في هذه المرحلة.

أما الفرس فقد حشدوا كل ما استطاعوا من قوة في الفترة الواقعة بين ارتداد المسلمين إلى حدود حراء وبين قدوم سعد، لأنهم أدركوا أنهم على أبواب معركة فاصلة ربما يقضي على دولتهم .وتقدر القوات التي حشدها الفرس في القادسية بمائة وعشرين ألف جندي بقيادة رستم أكبر قوادهم وأعظم رجالهم، وغادر المدائن إلى الحيرة حينما علم بسير سعد من المدينة وباستعداد العرب للحرب.

عهد (يزد جرد) إلى أكبر قواده وهو رستم بقيادة الجيش الفارسي وكانت عدته مائة وعشرين ألفاً، معهم ((33فيلاً، وكانت الفيلة في ذلك الوقت أشبه بالدبابات في وقتنا هذا .فسار رستم من الحيرة حينما علم باقتراب جيش سعد وعكف يتهيأ ويعد العدة للمعركة الفاصلة، فرتب رستم جيشه وبعث على مقدمته (الجالينوس) في (40) ألف وجعل على ميمنته (الهرمزان) وعلى ميسرته (مهران) بن (بهرام) الرازي وعلى مؤخرة الجيش (البيرزن) وكان جميعهم عدة فارس من قوادها وضباطها دفعت بهم جميعهم إلى المعركة .واتخذ رستم كافة التدابير الحاسمة لتضمن له النصر فرتب نقاط الأخبار للاستطلاع عن المسلمين وكذلك فعل سعد وبقي يطلع الخليفة (عمر) عن أحوال وتطورات الموقف.

لقد وصلت سعد أوامر من الخليفة أن يرسل وفداً إلى كسرى لتبشير الفرس ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وذلك حقنا للدماء وتجنباً للحرب .أرسل سعد إلى كسرى وجرت مفاوضات ولكن كسرى طرد الوفد .وبعد ذلك جرت مفاوضات بين

سعد ورستم نفسه تجنباً للحرب ولكنها لم تصل إلى النجاح في مهمتها وبذلك أصبحت الحرب فهي القول الفصل بين الطرفين.

سير المعركة

لما لم تثمر الوسائل السلميّة لمنع الحرب واستنفذها المسلمون أصدر سعد إنذاراً إلى قادة جيشه بالتأهب للقتال وشمل الأمر كيفية ترتيب الصفوف وإضرام نار في صدور الجند وقد حث خطباء المسلمين الجيش على الصبر والثبات وبينوا لهم أجر الجهاد .وبعد تعبئة الجند صلى الناس صلاة الظهر وبعد ذلك بدأ سعد في التكبير وقد اتفق مع قواد جيشه على أن تكون التكبيرة الرابعة إيذاناً بابتداء القتال وعندما أخذ سعد في التكبير وكانت انظار المسلمين مشرئبه إليه والقلوب خافقة وعندما كبر التكبيرة الثالثة برز أهل النجدات وانشبوا القتال مع الفرس وحينما كبر التكبيرة الرابعة حمل جيش المسلمين حملة عامة .وقد مرت معركة القادسية في المراحل التالية:

عمليات اليوم الأول :بدأ القتال عند الظهر واستمر حيث الهزيع الأول من الليل وقد رجحت كفة الفرس، حيث أجفلت خيل العرب من فيلة الفرس في ابتداء القتال، ولم يستطيع أصحاب الخيل على ردها وبذلك تعرقلت حركاتهم، ولكن رماة المسلمين سدوا جانبا من النقص، إذ انصرفوا إلى متابعة ركاب الفيلة فقتلوا عدداً منهم، فشردت الفيلة وعادت إلى أماكنها وخفف ذلك عن خيالة المسلمين .وقد سمي العرب هذا اليوم بيوم (آرماث) وقد أدار سعد المعركة من شرفية قلعته لأنه كان مصاباً بدمامل في جسمه، وكان يوجه أوامره بواسطة أوراق صغيرة فتبلغ إلى قادته للعمل بموجبها.

عمليات اليوم الثاني :في اليوم الثاني جلل العرب الإبل وبرقعوها حتى صار شكلها غريباً ونزلوها في الميدان فخافتها الفيلة ونفرت منها، لأنها لم تألف هذا المنظر، ولقي أصحابها عبئاً كبيرة في السيطرة عليها وبناء على أمر الخليفة وصل في هذا اليوم إلى المسلمين مدد من الشام عدته عشرة آلاف مقاتل على رأسهم هشام بن عتبة بن أبي وقاص فاشتدت عزائم المسلمين بوصول هذا المدد وحملوا حملة

صادقة ودام القتال حتى نصف الليل .وسمي ذلك اليوم بيوم (اغـواث) لأن الغـوث جـاءهم فيـه مـن الشام فافترق الفريقان وكانت الكفة الراجحة للمسلمين ومعنوياتهم عالية، كما كان سعد يدير المعركة من شرفة قصره.

عمليات اليوم الثالث :استؤنف القتال ضحى اليوم الثالث بحملة شديدة من المسلمين آملين إنهاء أمر الفرس، فقابلهم هـؤلاء بحملـة مثلهـا لأنهـم أدركـوا أن انهـزامهم يعنـي فنـاءهم ثـم ظهـر بعـض الفدائيين العرب وصوبوا رمـاحهم إلى عيـون الفيلـة وأدخلـوا فيهـا، فبـدأت الفيلـة بالارتـداد مـذعورة فأوقعت الأضطراب والذعر في صفوف الفرس واندفع العرب بحملة قوية واسـتمر القتـال طـول الليـل وكان كل جانب يرجوا الفوز والنصر .وسمي هذا اليوم بيوم(عماس)

عمليات اليوم الرابع :قام خطباء المسلمين في صباح هذا اليوم يحضون على الثبات والنصر فشـدد المسلمون الحملة على جناحي الفرس وصـدقوا في حملتهـا وعنـد الظهـر تقهقـر جناحـا الفـرس وثبـت الفرس في القلب وكان فيه رستم وعلى رأسه راية فارس الكبر ى، فحول سـعد ثقـل الهجـوم إلى القلـب واصدر أوامر بأن تشترك قوى المسلمين كلها في الحملة على القلـب فهجمـوا هجمـة شـديدة اضـطرب معهـا جـيش الفـرس، وتسـابق الفـدائيون العـرب إلى سرادق رسـتم الـذي حـاول الفـرار حيـنما شـعر بوصولهم، فلحق به (هلال بن علقمة) فقبض على رستم وقتلـه ثـم صـعد سريـره وقـال :(لقـد قتلـت رستم ورب الكعبة) فهلل المسلمون وكبروا وتضاعفت معنوياتهم فاندفعوا بحملتهم بكل حماس فـولى من بقي من جيش الفرس الأدبار .وغنم ضرار بن الخطاب راية الفرس وبـدأت عمليـة المطـاردة فقتـل قسم من الفرس وأسر القسم الآخـر .وقـد قـدرت خسـائر المسـلمين في القادسـية بــ(7500) وقـتلى، والفرس أضعاف ذلك، وكان جيش سعد لا يتجـاوز ألــ (40) ألفـاً والأرجـح أن واقعـة القادسـية أنهـا حدثت في شهر شعبان سنة (14هـ 637م).

الدروس المستفادة:

كانت خطة منازلة الفرس تعرضية من أعلى مستوى في القيادة منذ أعلن الخليفة عن التعبئة العامة في بلاد العرب والتصميم على إنهاء أمر دولة الفرس .وكان القائد العام للجيش هو الخليفة نفسه وكان يتدخل في الجيش تدخلاً ظاهراً ولا يتحرك القواد إلا بأمره ولا يحاربون إلا بإذنه وكان وهو في المدينة يدير القطاعات الإسلامية في خضم المعركة وبذلك كانت أوامر الخليفة إلى سعد واضحة وخصوصاً عن أخذ الحيطة وتنظيم وتعبئة الجيش الإسلامي على أحسن ما يمكن .وبذلك حرص سعد على تنفيذ الواجب الملقى على عاتقه وهو إنهاء أمر فارس، وبذلك برز المبدأ الأول من مبادئ الحرب وهو انتخاب الهدف وبالإضافة لهذا طبق سعد المبادئ التالية:

التعرض والمبادرة :وضع سعد مبدأ التعرض نصب عينيه، وركز على هذا المبدأ منذ دخوله حدود العراق وأخذ بزمام المبادرة من أول المعركة حتى نهايتها .فكان جيشه هو البادئ بالهجوم دائماً خلال أيام القتال.

المرونة :عندما انكشف جناحا الفرس في اليوم الرابع شدد سعد على مبدأ المرونة وركّز هجومه على قلب العدو وحول ثقل المعركة إلى هذه الجهة فعرف بعقليته كقائد مكان الضربة الحاسمة في الوقت الحاسم، وقد كانت خطته وأوامره بسيطة لذا جرى تنفيذها وتحويرها لما كان يراه في المعركة وبوقت قصير .والبساطة تضمن سهولة التنفيذ وتساعد كثيراً على كسب النصر.

المفاجأة :إن المرونة التي عمل بها في المعركة والبساطة في الخطة والأوامر جعلته يسبق أعدائه دوماً ومفاجأتهم بصورة تعبوية حتى في أثناء احتدام المعركة .وكان إظهار شكل الإبل غريباً لتخويف الفيلة في اليوم الثاني مفاجأة في التنظيم والمفاجأة من أشد العوامل تأثيراً في الحرب وأقواها إذ بها يمكن الحصول على نتائج خطيرة والفوز بالنصر.

المعنويات :أولى سعد إدامة المعنويات اهتمامه فكان خطباء المسلمين يثيرون حماس الجند كل يوم قبل بدء القتال وكان لوصول المدد من الشام وغارات الفدائيين العرب على فيلة الفرس الأثر الأعظم في رفع المعنويات.

الإدارة :أصدر سعد التعليمات الوافية سلفاً لنساء العرب في القادسية للعناية بالجرحى وتجهيز الطعام والماء للمقاتلين وكذلك خصص أماكن دفن الشهداء الذي كان يجري كل يوم بعد انتهاء القتال .والناحية الإدارية مهمة للغاية وينبغي أن تعطي نفس الأهمية المعطاة للعمليات فكلتا الناحيتان خطيرتان وحيويتان وبدونهما معا لا يحرز النصر.

أما صفات القيادة البارزة في سعد فقد ظهرت فيه الشجاعة وخصوصاً عندما كان يدير المعركة وهو مريض وكان يتصف بالعزم والتصميم لأنه كان مصمماً على كسب النصر .وكذلك اتصف سعد بالإبداع الذاتي وخصوصاً في تعديل خططه وعمل الحيلة ولتخويف فيله العدو .وبالإضافة لما تقدم كانت صفات المثابرة والثبات والكفاءة والمعرفة والحماس والنشاط لإنجاز الواجب المطلوب منه أمثلة بارزة في هذه المعركة الخالدة.

الفائدة.

كانت معركة القادسية معركة تاريخية فاصلة، ثبتت أركان الإمبراطورية الإسلامية كما ثبتتها موقعة بدر الكبرى في الجزيرة العربية وقد تم للمسلمين من بعد القادسية احتلال فارس والقضاء نهائيا على سلطة الأكاسرة وعظمة الدولة الفارسية ويمكن القول بأن القائد سعد بن أبي وقاص كان يعتمد على حكمته الجبارة على إيمانه الصحيح الأكيد بتنفيذ الواجب المعطى له من قبل الخليفة عمر بن الخطاب للمحافظة على المدن الإسلامية وحدود المسلمين آنذاك .لقد اعتمد سعد في تعبئة جنده وجيشه على حسن النية والتصميم القائم على هزيمة دولة الأكاسرة الطغاة، ولكن جاء الوقت الذي قضي فيه على اسم أي خارج على الإسلام فلنأخذ من عبرة الماضي ونتصح بأنظمة وتخطيط القادة المسلمين الذين لمعت شهرتهم في ميادين الحروب الحاسمة وفي عنفوان الدولة الإسلامية.

تحليل الأحداث في معركة القادسية

هي معركة وقعت في 13شعبان 15هـ635م –وقبل في 16هـ 636م –بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاس والفرس بقيادة رستم فرّخزاد في القادسية انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

أسباب المعركة:

في عام 14هـ جمع يزدجرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفير العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق والناس لا يدرون ما يريدون أن يصنع عمر، واستشار عمر الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقرروا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسوم ويقيم هو ولا يخرج واستشارهم في من يقود الجيش فأشير إليه بسعد ابن أبي وقاص رضي اللـه عنه.

المسير إلى القادسية:

استدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوزان فولاه الجيش وأمره بالسير ومعه أربعة آلاف ثم أمده بألفي جندي وكان مع المثنى ثمانية آلاف ومات المثنى قبل وصول سعد وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفاً .

كان منهم تسعة وتسعون بدرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبد اللـه ابن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي

على المجردة وعلى الرجالة جمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاتب زياد بن أبية وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد وفداً إلى رستم فيهم :النعمان بن مقرن المزني ويسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته (الجالينوس) وجعل في ميمنته (الهرمزان) وعلى الميسرة (مهران بن بهرام) ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف حتى وصل القادسية ومعه ثلاثة وثلاثون فيلاً.

القتال:

وعبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفطة لأن سعداً أصابته دمامل في فخذية وإليتيه فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبيرة الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم.

ولما رأت خيل المسلمين الفيلة نفرت وركز الفرس بـ (17) فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا بلاء حسناً وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئاً بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا ردء للناس وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى أرماث وهو الرابع عشر من المحرم.

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم وسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام وكان في مقدمتها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصولا تبعتهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بهذا الرعب في قلوب الفرس فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصولا من الشام فهبطت هممهم ونازل القعقاع (بهمن جاذوية) أول وصوله فقتله ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً يعجبهم فقد أكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس بالفيلة في هذا اليوم لأن توابيتها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقعة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار فلما اعتدل النهار تزاحفوا من جديد حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لا ينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس وقال :إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في الصباح في هذا اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا التوابيت فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرماث فقال لعاصم بن عمرو القعقاع :اكفياني الفيل الأبيض وقال لحمال والربيل :اكفياني الفيل الأجرب، فأخذ الأولان رمحين وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره

فضربه القعقاع فوقع لجنبه، وحمل الآخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الربيل فأبان مشفره فأفلت الأجرب جريحاً وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تزاحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلك الليلة وكان القعقاع محور المعركة.

فلما جاءت الظهيرة كان أول من زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان فانفرج القلب وأرسل الله ريحاً هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله فضرب هلال بن علقمة الحمل الذي تحته ورستم وهو لا يعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله ثم صعد طرف السرير وقال :قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي.

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر فتبعهم المسلمون يخزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوفاً.

وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ألفان وخمسمائة، ومن الفرس في الليلة نفسها عشرة آلاف ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.

سيرة الصحابي سعد بن أبي وقاص

أولاً :اسمه ونسبه:

هو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، القرشي، الزهري.

كنيته :

أبو اسحاق.

إسلامه:

أسلم قديماً على يد أبو بكر الصديق، وهو أحد العشرة المبشرين في الجنة، وهو آخرهم موتاً، وهو أحد الستة من أصحاب الشورى، وسابع سبعة في الإسلام.

كان رضي اللـه عنه مستجاب الدعوة، مشهوراً من بين الصحابة بـذلك بـدعوة مـن رسـول اللــه صلى اللـه عليه وسلم قال ..(اللـهم سدد سهمه وأجب دعوته).

وهو من أخوال النبي صلى اللـه عليه وسلم، وهو أول من رمى بسـهم في سـبيل اللــه، قـال لـه رسول اللـه –(ارم فداك أبي وأمي)، وأم سعد هي حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس.

أوصافه الأخلاقية:

كان سعد رضي عنه راجح العقل، بعيد النظر، متين الخلقة، عف اليـد واللسـان، بـاراً بأهلـه، وفيـاً لأصحابه، أحب قريش للناس، بل أحب الناس للناس وأرفقهم بهم، يتوقى الشبهات ورعاً.

أوصافه الخلقية:

كان سعد رضي اللـه عنه قصيراً، دحداحاً، شثن الأصابع، ذا هامة، أشعراً يخضب بالسواد.

ورد أنه أسلم وعلمت أمه بإسلامه، غضبت عليه وقالت :لا أكل ولا شرب حتى ترجع عن هـذا الـدين الذي اعتنقته، وإن أنا مت، فإنك تعير بي .فقال يا أماه !لا تفعلي :فإني لا أرجع عنه ابداً .فبقيت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب، فلما علمت منه الجد، أكلت وشربت، فأنزل اللـه: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ {14} وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) لقمان 15–14

ذكر شيء من فروسيته وشجاعته وإقدامه رضي الـلـه عنه:

كان سعد رضي الـلـه عنه أحد الفرسان والشجعان من الصحابة المهاجرين والقرشيين اللذين كانوا يحرسون النبي عليه الصلاة والسلام ويلازمونه في حضره وفي سفره.

وقد ورد بسند جيد عن ابن اسحاق .قال :كان أشد أصحاب رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم أربعة :عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص رضي الـلـه عنهم .

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الـلـه عنها، قالت :(لما قدم رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم المدينة أرق ذات ليلة ولم ينم، فقال :ليت رجلاً صالحه يحرسني الليلة) .قالت عائشة :فبينما نحت كذلك، إذ سمعنا صوت سلاح، فقال رسول الـلـه من هذا قال :سعد بن أبي وقاص .فقال رسول الـلـه (ما جاء بك؟) .قال سعدك تخوفت على رسول الـلـه، فجئت أحرسك، فدعا له رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم .فأنزل الـلـه تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَالـلـه يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ الـلـه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) المائدة ..67 :رواه البخاري في صحيحه.

وروي :أن سعد بن أبي وقاص رضي الـلـه عنه هو أول من أراق دماً في الإسلام في سبيل الـلـه تعالى، وذلك أن أصحاب رسول الـلـه يتفرقون في شعاب مكة يستخفون بصلاتهم عن المشركين قبل الهجرة، فبينما سعد في نفر من أصحابه .إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وانتشبت بينهم موقعه، فضرب رجل منهم بلحي جمل، فشجه سعد رضي الـلـه عنه.

وفي معركة بدر أبلى بلاء حسناً ودافع دفاع الراغبين في طلب الشهادة، قال عبد الـلـه بن مسعود رضي الـلـه عنه :اشتركت أنا وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر يوم

بدر فيما أصبنا من الغنيمة، فما أجيء أنا وعمار بشيء، وجاء سعد بأسيرين، وكان سعد جاهداً مجاهداً في ذات الله بيده وماله ولسانه ودعائه.

ذكر وقائع إجابة دعواته رضي الله عنه:

وردد أن سعد قال لرسول الله (يا رسول الله !ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة .فقال :يا سعد !اطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوى) .وقد سبق الذكر أن الرسول عليه السلام دعا له (اللهم أجب دعوته، وسدد رميته، وحببهُ إلى عبادك).

روي أن سعد رضي الله عنه سمع رجلاً يقع في الزبير بن العوام وفي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فقال له :يا هذا !لا تقع في أصحاب رسول الله وفي إخواني .ثم أنه صلى، ثم قال :اللهم !سخطاً لك ولأوليائك، فأرني فيه آية وعبرة للناس (.ثم إن الله سلط عليه بختيا، فجعله تحت صدره بينه وبين الأرض يدوسه حتى قتله على مشهد من الناس، فقال الناس :هنيئاً لك يا أبا اسحاق !استجاب الله لك في هذا المجرم.

جمعنا الله وإياهم في مستقر رحمته ورضوانه...

معركة حطين

تمكن الصليبيين نتيجة حملاتهم المتتالية على بلاد الشام من إقامة مملكة بيت المقدس التي امتدت من لبنان شمالاً حتى العقبة جنوباً يتبعها الإمارات التالية :كونتية الرّها، إمارة انطاكية، إمارة طرابلس، وهكذا أصبح لهم عدداً من الإمارات تتبع مملكة بيت المقدس منتشرة بشكل عام على الساحل السوري بأكمله فاصلة بذلك المشرق العربي عن غربيه ومسيطرة على عقد المواصلات التجارية المهمة في ملتقى قارات العالم القديم.

لم يتمكن الصليبيون رغم قوتهم وعددهم وضعف المسلمين وتفرّقهم لم يتمكنوا من احتلال المناطق الداخلية لبلاد الشام رغم محاولاتهم المتكررة –مثل دمشق وحلب وحمص وحماة .لكنهم تحكموا في المنطقة بأسرها وأخذوا يهددون الديار المقدسة الإسلامية في الحجاز، تمثل ذلك بغارات أسطولهم في البحر الأحمر على الموانئ الحجازية .كذلك اتجهوا نحو مصر وحاولوا مراراً احتلالها ومع أنهم باءوا بالفشل إلا أنهم أرغموها على فتح أبوابها التجارية واستخدام موانئها وفرضهم للجزية والأتاوة.

أمام هذا الخطر الداهم وأمام الأعمال البربرية التي ارتكبتها قوات الصليبين استيقظ الوطن العربي بعد سبات عميق وطويل واستهوت الشباب الإسلامي آنذاك صفات الفروسية الشجاعة لدى فرسان الفرنج لكنها فروسية من نوع آخر أكثر أصالة من تلك المقلدة، اعتمدت روح الفروسية الإسلامية على عشرة خصال هي :التقوى، والشجاعة، ورقة الشمائل، والصبر، ومراعاة الجوار، والمروءة، والكرم، وحسن الضيافة، ومساعدة النساء، والوفاء بالعهد.

وبهذا النوع من الفروسية أخذ الوطن العربي يستعد لتطهير أجزائه المغتصبة من الظالمين والتصدي لأي حملات صليبية قد ترسلها أوروبا.

اليقظة:

في عام 1127ظهر عماد الدين زنكي حاكم الموصل وأخذ يدعو إلى توحيد كلمة المسلمين ضد أعدائهم، وقد استولى على حلب وحمص وحماة وحران وضمها إلى ملكه .وهاجم بعد ذلك كونتية (إمارة الرها) واستردها إلى حياض المسلمين.

قاد المسيرة بعده ابنه نور الدين حاكم حلب وانتزع دمشق من حاكمها السلجوقي وأغار على إمارتي طرابس وأنطاكية .في تلك الأثناء وصلت الدولة الفاطمية في مصر على مرحلة الضعف والانحلال نتيجة للانقسامات الداخلية والصراع على الحكم وتهديد الصليبيين المستمر لها .فجهز جيشاً بقيادة (أسد الدين شيركو) وسيره نحو مصر بعد تسلمه رسالة استغاثة من الخليفة الفاطمي (العاضد) على إثر قرار الصليبيين احتلال مصر عام 1168م.

اصطحب أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين –هو يوسف صلاح الدين بن نجم الدين أيوب ينتمي إلى أسرة كردية .ولد في تكريت التي كان والده حاكماً لها –وكان عمره آنذاك 31عاماً، وصلاح الدين يعتبر من أفذاذ القادة العظام في التاريخ.

تمكن شيركو وصلاح الدين من صد الغزو الصليبي عن مصر واستلم الأول منصب الوزير للخليفة (العاضد) وبعد شهرين تسلم هذا المنصب صلاح الدين بعد وفاة عمه أسد الدين

بعد أن استتبت إليه الأمور وقرر بناء دولة قوية في مصر تابعة لنور الدين في الشام لاستكمال الطوق حول المملكة الصليبية فقد حاول ملك القدس وإمبراطور بيزنطية تدمير هذه القوة قبل أن يقوى عضدها إلا أن حملتهم فشلت وتدمر أسطولها في دمياط.

التعرض الأول:

قوى موقف صلاح الدين بعد انتصاره في دمياط وأخذ يعد العدة للفتح الأكبر فقام بعدد من الحملات استهدفت تطهير المناطق التي تفصل الشام عن مصر، فحاصر قلعة الداروم –جنوبي غزة عام 1170ولم يتمكن من احتلالها فتوجه إلى ميناء العقبة ونجح في احتلاله ثم تحول إلى حصني الشوبك والكرك المنيعين والمسيطرين على الطريق الموصلة بالحجاز ومصر إلا أنه لم يتمكن من احتلالهما.

وفي عام 1171ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية وحل اسم الخليفة العباسي (المستضيء) وكان في خطب الجمعة بناء على أوامر نور الدين .في عام 1172ضم صلاح الدين بلاد النوبة لمصر بواسطة أخيه (نوران شاه) الذي ضم اليمن أيضاً بعد ذلك.

أعلن صلاح الدين استقلال مصر بعد وفاة نور الدين عام 1174م بسبب انقسام الدولة الزنكية، وقرر توحيد البلاد العربية أولاً قبل الدخول في معارك فاصلة مع الصليبيين، فتوجه إلى دمشق واحتلها ثم اتبع ذلك بحمص وحماة واستحصل على موافقة الخليفة العباسي بتمليكه الشام ومصر والنوبة وغربي الجزيرة العربية.

عاد في عام 1177إلى مصر لتهديد الصليبيين لمصر تحرك بعدها شمالاً مستهدفاً عسقلان ثم اللد والرملة ثم نابلس إلا أن الصليبيين انتصروا عليه بقيادة (بلود وين الرابع) في معركة تل الصافية انتصاراً باهراً نجا صلاح الدين منها بأعجوبة.

وفي عام 1178م خاض صلاح الدين معركة قرب بانياس انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً .كذل في عام 1179م دارت معركة أخرى بين صلاح الدين وبلودوين قرب تل القاضي –جنوب شرق مرج عيون –كان انتصار صلاح الدين سداداً لهزيمته في معركة تل الصافية سابقة الذكر.

أغار صلاح الدين بعدها على صور وصيدا وبيروت وبيسان وجنين ودمر حصن الأحزان المنيع قرب جسر بنات يعقوب على نهر الأردن كذلك أوعز لأسطوله بالإغارة على عكا .كل هذه الضربات المتلاحقة كانت تهدف إلى استنزاف جهد العدو وإدخال الرهبة إلى قلبه ليتسنى له الحشد الرئيسي للمعركة الفاصلة، وقد أثر ذلك بتوقيع (بلودوين) على معاهدة صلح عام 1180م.

تحول صلاح الدين بعدها على توحيد الجبهة الداخلية وتوحيد كلمة الأمراء تطوعا أو قصراً كما حدث لأمير حلب عندما انتزع منه ولايته عام 1183م كذلك قضى على حركات التمرد في مصر والتي قام بها مؤيدو الخلافة الفاطمية فاستقرت له بذلك الأمور وأخذ يتهيأ ليوم الفصل.

في بداية عام 1182م غادر صلاح الدين مصر ليستقر في دمشق قريباً من ساحة العمليات المنتظرة .وفي شهر تموز جدد نشاط عملياته فأرسل ابن أخيه (فرخ شاه) للإغارة على غور الأردن .ونجح هذا في الاستيلاء على بيسان ثم انضم إليه صلاح الدين وهاجما سوية حصن كوكب الهوى للسيطرة على طريق بيسان –الناصرة واشتبك جيش المسلمين بمعركة ضارية مع الفرنجة كانت الغلبة فيها للمسلمين .في نهاية تلك السنة حاصر بيروت براً وبحراً إلا أنه لم يوفق في الاستيلاء عليها.

ضم صلاح الدين في مطلع عام 1183م مدينة حلب لملكه وهكذا امتدت دولته من جبال طوروس شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً .وفي أواخر ذلك العام تعزز موقفه تماماً فكان الخليفة العباسي يؤيده وعز الدين مسعود حاكم الموصل يخافه والسطان السلجوقي يخطب وده حتى أن الإمبراطورية البيزنطية عقدت الصلح معه .هكذا أصبحت الأمور تستتب له والظروف تهيء له القيام بدوره التاريخي العظيم.

في خضم هذه الأحداث كان لا يزال هنالك جيب للأعداء شرس يسيطر على الطريق التي تربط بلاد الشام بالحجاز ومصر، ذلك هو حصن الكرك المنيع وأميره

(رينودي شاتيون) الذي يسميه العرب أرناط الذي كان شوكه في حلق صلاح الدين إذ جهز هذا الدخيل أسطولاً بعد أن استولى على العقبة وبدأ يهاجم الشواطئ الحجازية مستهدفاً الاستيلاء على المدينة المنورة مثوى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلا أنّ الملك العادل حاكم مصر وشقيق صلاح الدين فوت عليه الفرصة ورد كيده لنحره بهزيمته في معركة بحرية في البحر الأحمر .ولقد حاول صلاح الدين الاستيلاء على حصن الكرك مرتين إلا أنه لم يوفق في ذلك[1].

في سنة 1186م وافق أتابك الموصل عز الدين مسعود على انضواء تحت لواء صلاح الدين وهكذا أصبحت أقطار مصر وسوريا والعراق والحجاز يداً واحدة لتطهير أرض الإسلام من الغاصبين .في تلك السنة مات الملك (بلودوين الخامس) وبعد صراعات على السلطة عينت (سيبل) وزوجها (غي) ملكين على بيت المقدس مما أغاظ أمير طرابلس (ريموند) فأخذ هذا يتقرب من صلاح الدين.

سارع في استعدادات صلاح الدين للمعركة الفاصلة الغارة التي شنها الأمير أرناط أمير الكرك على قافلة إسلامية كانت متجهة من مصر على الشام واستولى عليها كاملة وأسر حراسها، ولم يذعن للملك (غي) بإطلاق سرح الأسرى بعد مكاتبة صلاح الدين له بهذا الخصوص .حدث ذلك في أوائل عام 1187م.

الاستعداد للمعركة:

على إثر غارة أرناط أخذ صلاح الدين يستعد للقاء الرئيس وأعلن التعبئة العامة، وأرسل إلى قادته وحكامه طالباً تجهيز وإرسال القوات اللازمة لخوض معركة الكرامة وقد عين منطقة (رأس الماء) الواقعة في شمال غربي حوران منطقة الحشد لقواته، ترك جنوداً من قواته تحت قيادة ابنه (الأفضل) وسار هو على رأس قوة إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج القادمة من الحجاز.

---

[1] نويهض/ صلاح الدين الأيوبي - سقوط القدس وتحريرها، ص172.

في 11أيار 1187م تحرك بقوته مستهدفاً الهجوم على حصن الكرك منعاً لتدخل ارناط ضد القوات القادمة للتحتشد من مصر فأحبط مسعاه وباءت بالفشل.

كان صلاح الدين حريصاً على عملياته على مستوى محدود حتى يحين موعد يوم الفصل فأوعز إلى حاكم حلب بمهادنة (بوهيموند) أمير أنطاكية، كما أنه كما سبق آمن حياد أمير طرابلس، مؤقتا على الأقل.

في ربيع 1178م قرر صلاح الدين إرسال قوة لاستطلاع قوة واستعداد الصليبيين في منطقة عكا أحد الموانئ الرئيسية على المتوسط وعين (مظفر الدين كوكبري) حاكم الرها قائداً على تلك القوة، ولكي يختبر صدق حياد (ريموند) أمير طرابس طلب منه السماح لمرور تلك القوة من أراضي الجليل فسمح هذا ممتعظا .تصدى لهذه القوة فرسان الداوية الصليبي (جيرار دي ريدفورد) بعد أن جمع معه قوة من فرسان الاسبتارية والتقى بمظهر الدين في منطقة صفورية، أسفرت المعركة –معركة صفورية عن هزيمة منكرة بقوات الفرنج ونجا جيرار بأعجوبة، على أثر هذه المعركة خشي ريموند العاقبة وقدم الولاء للملك (غي) ونقض عهده مع صلاح الدين.

تقدّم صلاح الدين

1- استعرض صلاح الدين قواته المتحشدة في منطقة حوران يوم الجمعة 26حزيران 1187وقد بلغ عدد مشاته 13ألف مقاتل وفرسانه 12ألف، وقد قسم قواته إلى ثلاثة أقسام :القلب –تحت قيادته، الميمنة تحت قيادة أبن أخيه (تقي الدين)، والميسرة بقيادة (مظفر الدين كوكبري).

2- بعد أن تأكد من إنجاز الاستعدادات تحرك بقواته فعسكر ليلة في خسفين ثم عبر نهر الأردن في 1تموز وعسكر عند ثغر (الأقحوانة) جنوبي بحيرة طبريا لمدة خمسة أيام .تحرك بعدها إلى كفر سبتة –تقع على بعد خمسة أميال غربي طبريا.

3- علم صلاح الدين بغدر ريموند فأرسل قوة لمهاجمة طبريا التي دخلتها بعد قتال ساعة من الزمن وقد احتمت زوجة ريموند مع ثلة من حرسها داخل قلعة طبريا وأرسلت للاستنجاد بزوجها.

4– كان صلاح الدين قد خطط لخوض معركته في منطقة ملائمة لإطالة خطوط قتال ومواصلات الصليبيين ولمنعهم من التعسكر بالقرب من مصادر المياه ولإخراجهم من قلاعهم وحصونهم وقتالهم في العراء لاستغلال عاملي الشجاعة والمرونة المتوفرين في قواته.

موقف الفرنجة وتحركاتهم

أ –وصلت أنباء عبور المسلمين لنهر الأردن إلى ملك وقادة الصليبيين في عكا فثارت ثائرتهم وقرروا التقدّم بقواتهم البالغة ((63ألف مقاتل بين مشاة وفرسان إلى الشرق لدحر صلاح الدين عند طبريا وكان أقلهم حماساً (ريموند) الذي فطن لاستراتيجية صلاح الدين الاستدراجية إلا أن اعتراضاته باءت بالفشل بل واتهموه قومه بالخيانة والتواطؤ مع المسلمين بل وبالجبن رغم قوة حجته وكان أشدهم انتقاداً له أرناط، وجيرارد، وشاتيلون الذين نجحوا في إحباط وجهة نظره.

ب –كانت حجة أرناط أن الفصل شديد الحرارة وقبول الدفاع مؤقتا حتى انتهائه زيادة في تصعيب الأمور على صلاح الدين وتوقعه بعجز صلاح الدين من إدامة القوة الكبيرة المنضوبة تحت لوائه .ومن أقواله في تلك المناقشات :أن طبرية مدينتي والكونتيس زوجتي وأنا على استعداد لأن أخسر طبريا ومن فيها على أن أدمر المملكة برمتها.

ج –كان هناك طريقان يؤديان إلى بحيرة طبريا من الغرب :أفضلهما هو الطريق المؤدي إلى الشمال الشرقي عبر جبال الجليل الذي ينحدر في نهايته من الشمال للجنوب نحو مدينة طبريا بميل واحد والثاني كان يمر عبر العنبرة بالقرب من معسكر صلاح الدين في كفر سبته.

د –قرر الملك اتباع الطريق الأول تحاشياً للاصطدام المباشر بالمسلمين وللوصول للمياه .وقد بـدأت حـركتهم مـن صـفورية في 3تمـوز وكـان اليـوم شـديد الحـر .قـاد المقدّمـة (ريمونـد) والملـك (غـي لازوجان) الجسم الرئيسي أما أرناط وبالين فقد عينا على حرس المؤخرة.

المعركة:

حال علم صلاح الدين بالطريق التي سلكتها قوات الصليبين تحرك بالقسم الأكبر مـن قواتـه عـبر التلال شمالاً لمسافة خمسة أميال ليحول بين العدو والماء واتخذ مواضعه قرب قرية (حطين) التي تقـع على بدء الطريق بالهبوط نحو بحيرة طبريا وحيث تتوفر المياه والمراعي، وقـد تـرك قسـماً بسـيطاً مـن قواته لإدامة الحصار على قلعة طبريا.

لم يكد جيش الفرنجة يصل لمنتصف الطريق حتى أخذ الرجال والخيول يعانون من شدة العطـش وأخذت دوريات المسلمين تهاجم مقدّمة ومؤخرة جيشهم بالسهام على شكل غارات سريعة متحاشـية الاصطدام الرئيسي بهم .وعند ظهر يـوم الخمـيس 3 تمـوز 1187وصـل جـيش الفرنجـة إلى الهضـبة الكائنة فوق حطين التي ترتفع عـن البحـر 300 مـتر وتحـوي قمتـين ارتفـاعهما 100قـدم تسـميان بقرون حطين.

ما أن شاهد الفرنجة معسكر المسلمين حتى توقفوا لتدارس أمرهم فنصح بعضـهم بـالهجوم فـوراً والوصول للبحيرة ونصح البعض الآخر بالتوقف لاستئناف القتال في اليـوم التـالي ونجـح أصـحاب الـرأي الثاني وقد أثلج ذلك صدر صلاح الدين واستبشر خيراً وأمر بحـرق الأعشـاب والأشـواك المحيطـة بالتـل لزيادة عطش الأعداء مما كان له أسوأ العواقب عليهم من عطش وهلاك.

مـا أن حـلَّ الظـلام حتـى حـرك صـلاح الـدين قواتـه للإحاطـة بالأعـداء وتطـويقهم قبـل حلـول الصباح .وما كاد صبح الجمعة 4تموز ينبلج حتى كان الطوق محكماً ومع الضوء الأول، بـدأ المسـلمون هجومهم وبدأت المعركة الرهيبة واستبسل الفرنجة إلا أنه كان استبسـال اليـائس الـذي لا أمـل لـه في النجاة.

استطاع قسم من فرسان الفرنجة بهجوم على قلب جيش صلاح الدين من دفع المسلمين إلى الوراء إلا أنه سرعان ما تقهقروا تحت ضربات الحق والإيمان فأعادوا الكرة مرات إلا أنهم كانوا ينكفئون على أعقابهم وفي كل مرة كان الأفضل بن صلاح الدين يصيح ...هزمناهم تسرعاً منه في معرفة النتائج ولكن أباه نهره وقال مشيراً إلى خيمة الملك (غي) أسكت ..لا نهزمهم إلا بسقوط خيمة الملك.

استمر القتال طيلة يوم جمعة قتالاً مريراً شرساً زاد في شدته لهيب شمس تموز الحارقة وخاصة على جند الفرنجة وما أن حلَّ الظلام حتى أوقف الطرفان القتال .وبقي صلاح الدين ليلة متفقداً جنده مواسياً جرحاه حتى بدأ صباح اليوم التالي بقتال بدأه مملوكه (منكورس) الذي قفز بجواده إلى قلب صفوف الأعداء يعمل بهم السيف وطالبا الشهادة فكتبت له كأروع ما تكتب لمقاتل مؤمن.

أسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة للفرنجة وخسائر فادحة في صفوفهم إذ قتل ما يقارب الثلاثين ألفا وأسر الباقون وكان على رأس الأسرى الملك (غي) وشقيقه (جفرى) والأمير (أرناط) صاحب الكرك والأمير (أوك) صاحب جبيل وابن أمير الإسكندرونة وأمير (مرقية) وأمير الشوبك وابن أمير طبريا وقادة فرسان الهيكل (الداوية) وفرسان الاسبتارية (الهسبتاليين).

أوتي بالملك وصحبه إلى صلاح الدين الذي أحسن استقبالهم وناول بيده للملك كأس ماء علامة على الأمان ولما شرب الملك ناول الكأس إلى أراناط، فإنتبه صلاح الدين وقال للملك إني لم أناوله الكأس، لذلك ليس له عندي أمان فأمر بقتله لغدره وظلمه وكذلك عدداً من فرسان الهيكل والاسبتارية جزاء لما اقترفوه من فظائع ضد المسلمين بذبح أطفالهم وشيوخهم تقريباً على حدِّ اعتقادهم، وعفا عن الآخرين.

بعد انتهاء المعركة قسّم صلاح الدين قواته لتحرير بقية المدن والقلاع في طول فلسطين وعرضها ومن أهم تلك الأماكن :الناصرة، قيساريا، حيفا، الفولة، جنين،

البيرة، صرفند، سبسطية، يافا صيدا، نابلس، الرملة، اللطرون، واللد محكما الخناق لاجتثاث قاعدة الوباء والطغيان في بيت المقدس الشريف.

دروس مستفادة:

تحوي معركة حطين وفترة التهيئة لها دروساً كثيرة يصعب سردها في هذا الكتاب، وفيما يلي بعض من هذه الدروس:

الحشد :كل عمل عسكري يحتاج إلى حشد أقصى ما يمكن من الطاقات المختلفة لتأمين أفضل فرص ممكنة للنجاح .تمثل الحشد في تهيئة الأمة ليوم مصيري بدأه صلاح الدين منذ استلامه مقاليد الحكم في مصر فوحد جهد البلدان التي ضمتها مملكته .كذلك تمثل في حشد القوات العسكرية الضرورية لإحراز النصر من جميع أمصار مملكته وتجمعهم كلمة الله والاستشهاد في سبيله، فلقد اشترك جند مصر مع جند الشام مع جند حلب ضد عدو غاشم أصابهم منه على اختلاف مذاهبهم ألوان شتى من الظلم والطغيان .تمثل هذا المبدأ في حصر عملياته على أقل جبهات ممكنة ومهادنة ومصالحة الدول المجاورة ليأمن خطرها وتدخلها في غير صالحة.

التعرض والمبادأة :منذ أن تقلّد صلاح الدين إمارة المسلمين وهو في صراع مستمر مع الأعداء وبغارات لا تنقطع على قلاعهم وجيوشهم أينما وجدهم من مصر جنوباً حتى طوروس شمالاً ولم يهدأ أو يوقف الجهاد إلا للتحضير لجهاد آخر مكمل حتى المعركة الحاسمة، بذلك لم يدع مجالا للأعداء للهدوء والاستعداد القادر على صده .كان هو البادئ في معظم عملياته وكان يتخذ جانب التعرض إلا إذا اضطر لسبب أو لآخر لإتخاذ الدفاع مؤقتا.

انتخاب الهدف وإدامته :كان الهدف الذي سعى إليه صلاح الدين هو طرد الغاصبين من مقدسات وبلاد المسلمين المحتلة وما عملياته الثانوية التي سبقت معركة حطين إلا معارك قادته في النهاية إلى تحقيق هدفه الأساسي الذي لم يحد عنه.

وحدة القيادة :كان موقف المسلمين موحداً يـأتمرون بـأمره قائـد واحـد ينفـذون مـا يـأمرهم بـه واثقين به بينما كـان الفرنجـة شـيعاً وأحزابـاً وخاصـة في المراحـل الأخـيرة مـن التهيـؤ للقتـال إذ كـانوا ينقسمون على أنفسـهم حتـى في الأمـور التكتيكيـة عـلى مسـتوى المعركـة مـما أوقعهـم في موقـف لا يحسدون عليه.

الإدارة والتزويد :كانت المياه والأرزاق ومـا زالـت مـن أهـم المـواد التموينيـة للجنـدي في سـاحة المعركة ولقد أمن صلاح الدين هاتين المادتين لجنده وحرم عدوه منهما باختياره ذلك الموقـع الحسـاس لخوض معركته الرئيسية كما أن تلك المنطقة كانت تتوفر بها الأعشاب الجافة لإطعام الخيول والدواب.

معركة عين جالوت

لدراسة أية معركة لا بد من التطرّق إلى الموقف العام السائد الذي سبقها كما أن استعراض التحضيرات للمعركة والتي تشكل الجهد الأكبر المبذل أمر ضروري لاستخلاص الدروس والعبر.

على أثر وفاة سلطان مصر الملك الصالح ومقتل ولده الملك المعظم نصبت أرملة الملك الصالح (شجرة الدر) على عرش مصر، أول وآخر ملكية إسلامية اعتلت عرش مصر .عين الأمير عز الدين أبيك كبير المماليك البحرية نائباً للسلطنة لمساعدة شجرة الدر .ورغم حزم ومقدرة شجرة الدر إلا أن جلوسها على العرش كامرأة لم يرق لمعظم الأمراء الذين رفضوا أن يبايعونها، مما أجبرها على التزوج بالأمير عز الدين الذي نصب ملكاً باسم الملك المعز .كان ذلك في أواخر ربيع الثاني عام 648هـ 1250م).

اغتالت شجرة الدر زوجها على أثر عزمِهِ الزواج بعد سبع سنوات من زوجهما، وتولى الملك المنصور 15 سنة الملك بعده.

في تلك الأثناء كان العالم الإسلامي مهددا بخطرين ماحقين خطر التهديد الأوروبي (الصليبي) وخطر المغول التي ظهرت قوتهم الكاسحة في أواسط آسيا والتي تكونت من قبائل وثنية بربرية اتخذت من تدمير الحضارات وتخريب المدن وقتل البشر صنعة لها.

كان المغول يستهدفون أوروبا في حملاتهم المسعورة وهنا بذلت أوروبا وعلى رأسها البابا (اينوسنت الرابع) جهودها المضنية لتوجيه الزحف المغولي إلى بلاد العرب والمسلمين تفادياً لتلك الموجات المتوحشة المتوقعة .ففي عام 1245 ميلادية أرسل البابا بعثة إلى (قراقورم) عاصمة دولة التتار لمباحثتهم في هذا الشأن في عام 1248 وعندما كانت الحملة الصليبية

بقيادة لويس التاسع تتحشد في قبرص تمهيداً لغزو مصر، جاءت بعثة تتارية من قبل خاقان التتار (جغطاي) للاتفاق على الخطوط النهائية لخطة غزو العالم العربي في آن واحد، وذلك لتشتيت جهد العالم الإسلامي وعزل مصر عن الجهد المشترك.

في عام 1252م وبعد فشل لويس التاسع وهزيمته المنكرة في دمياط جدد الصليبيين محاولاتهم في غزو وتدمير العالم الإسلامي بواسطة قوة التتار -القوة الجديدة المدمرة-، إذ خرجت بعثة فرنسية من حصن عكا برئاسة رجل دين هو (جليوم ردبروك) إلى التتار لمفاوضة الخان (منكوقا آن) .بذلت البعثات المتكررة جهوداً مضنية، حتى تكللت مساعيها الشيطانية بالنجاح ومساعدة الأقلية المسيحية (النسطورية) المغولية وإحدى زوجات (هولاكو) المسماة (دوقوز خاتون) وكان الوفد الأخير برئاسة الأمير الصليبي (هيتوم) أمير ارمينيا .كذلك نجح الوفد في تعيين القائد التتري (كتبغا) الذي اعتنق المسيحية على مذهب النسطوريين

أمام هذه الأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية ولحداثة سن وضعف الملك المنصور وبعد سنتين من حكمة أي في عام 1259م أقر أهل الرأي والقيادة في مصر تسليم زمام الملك وقيادة الأمة إلى الأمير قطز باسم الملك المظفر -هو سيف الدين قطز المعزى.

استهدف الملك المظفر قطز منذ توليه السلطة حرب التتار الذين بدأوا غزوهم للبلاد الإسلامية لإنقاذ مصر والبلاد العربية من خطرهم، وهذه مسؤولية تاريخية تقبلها الملك المظفر والأمة في أشد وأحلك ساعات تاريخها .بدأ أعماله بالقضاء على الارتباك الداخلي والمنافسات على السلطة لتأسيس القاعدة المتينة القادرة على صد الغزو المدمر -الذي اعتبر من أشد غزوات الأمم فظاعة وتنكيلاً.

الغزو المغولي:

بدأ الزحف المغولي بقيادة (هولاكو) فقضى على الدولة الخوارزمية في بلاد الفرس، واتجه إلى بغداد ودخلها في 7صفر سنة 656هـ (13شباط 1258م) .وقد نفذت قوات المغول مجزرة بشرية لا تزال على مر الأجيال مضرب الأمثال في بشاعتها وفظاعتها على امتداد أربعين يوماً متواصلة، قتلوا مئات الألوف ودمروا مكاتبها

ونهبوا خزائنها ونفائسها –قدر عدد القتلى من أهل بغداد بـ(800) ألف بما فـيهم الخليفـة العبـاسي وأهل بيته.

لما فرغ هولاكو من تدمير ونهب بغداد توجه قاصداً حلب وكان حاكمها آنذاك الملك الناصر .وقـد حملت الأنباء هول الكارثة ووحشية التتـار مـما جعـل المـوسرين أمـامهم يفـرون بـأموالهم ومتـاعهم النفيس، وقد أرسل الملك الناصر أمواله ونساءه إلى حصن الكرك.

عندما اقتربت جحافل هولاكو من حلب ظهرت تيـارات انهزاميـة في صـفوف جنـد الملـك النـاصر رهبة من بطش المغول ودعوا إلى الدخول في طاعة هولاكو، إلا أن هناك عدد كبير رفـض هـذا الموقـف المتخاذل وعلى رأس هؤلاء كان الأمير ركن الدين (بيبرس) ولما لم يـنجح هـؤلاء في شـحد الهمـم غـادروا برئاسة بيبرس إلى مصر لتوحيد الجهد في محاربة التتار.

أرسل الملك الناصر وفداً يطلب معونة مصر، فعقد اجتماع لبحث الموقف وكان الشيخ الجليل (عز الدين بن عبد السلام) حاضراً الذي كان محول الحديث ومما قاله الشيخ إذا طرق العـدو بـلاد الإسـلام وجب على العالم الإسلامي قتاله، وجاز لأمرائه أن يأخذوا من الرعية مـا يسـتعينون بـه عـلى جهـادهم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، ويبيعوا ما لهم من الحـوائص (التحـف) المذهبـة والآلات النفيسـة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة، أما أخذ الأموال من العامة مع بقـاء مـا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا.

تقـدم التتـار إلى بـلاد الجزيـرة (جزيـرة ابـن عمـر) في شـمال سـوريا واسـتولوا عـلى (حـران) و (الرها) و(ديار بكر) وكان ذلك عام 1259م، ثم عبروا الفرات ونزلوا على حلب عام 1260م واستولوا عليها وأحرقوا المساجد وجرت الدماء في الشوارع لكثرة من قتـل فيهـا .قبـل وصـول التتـار كـان الملـك الناصر قد رحل إلى دمشق، ولما حل بحلب ما حل رحل إلى غزة وفي نيته الالتجاء إلى مصر، إلا أنه تردد خوفاً من الملك المظفر قطز ففضل العودة والاستسلام للتتار بعد أن ترك دمشـق لتسـقط بيـد الأعـداء خالية من القوات المقاتلة، وكانت معظم القوات التي معه ارتحلت لمصر استعداداً ليوم الثأر مع جنـد مصر.

استمر التتار في تقدمهم فوصلوا إلى نابلس ثم إلى الكرك وبيت المقدس ثـم إلى غـزة دون مقاومـة تذكر حتى أصبحوا على أبواب مصر يهددونها .إلا أن هولاكو غادر سـوريا فجـأة بعـد أن تسـلم أخبـار وفاة أخيه الأكبر (منكوقا آن) في الصين ويتنازع أخويه الآخـرين (قـوبيلاي) و(أريـق بوكـا) عـلى عـرش التتار.

لقد اتصفت عمليات قتال التتار بالسرعة الخاطفـة (الحـرب الصـاعقة) التـي كانـت تعتمـد عـلى سرعة الحركة ومرونة التجهيز والتنظيم كـذلك رافـق حملاتهـم حـرب أعصـاب يشـنونها عـلى الأقـاليم الواقعة في طريقهم فتمتلئ القلوب هلعاً وبالتالي تفتر مقاومتهم فيتغلب التتار عليهم بسرعة.

الموقف في مصر:

قبل مغادرة هولاكو سوريا أرسل رسولاً مـن رجالـه يرافقـه أربعـون رجـلاً لإيصـال رسـالة تهديـد ووعيد إلى الملك (المظفر قطز) وكانت لهجة الرسالة قاسية جداً فلما مثل الوفد بين يدي الملك وهيئتـه الاستشارية وتليت الرسالة أمر الملك بإعداد الرسل توسيطاً (أي بضربهم بالسيف مـن الوسـط فنقسـم جسـم الرجـل إلى قسـمين) وعلقـوا عـلى أبـواب القـاهرة، و بـذلك يكـون قـد خـرق التقاليـد المرعيـة والمتعارف عليها.

لقد فعل الملك قطز ذلك لأنه كان قد عقد العزم هو ورجاله المقربون على حرب التتار وكان قراره ذلك هو لانتزاع آخر أمـل مـن نفـوس المـترددين والانهـزاميين في احـتمال رضـوخ الملـك إلى تهديـدات هولاكو وقد تم الإعدام علنا وأمام جنده بالذات لتحقيق نفس الغاية التي رمى إليها.

بدأ الملك المظفر بعد ذلك بتهيئة الأمـة للقتـال وتجنيـد طاقاتهـا وإمكاناتهـا لمواجهـة غـزاة ديـار المسلمين، فأخذ يستحث الأمـراء والقـادة عـلى تقـديم مـا لـديهم والأنضـواء تحـت لـواء الجهـاد مـرة بالترغيب وأخرى بالترهيب وثالثة بالإحراج وهكذا استطاع حشد قوة لا يستهان بها.

نتيجة للحرب النفسية التي كان التتار ينشرونها أمامهم أخذ بعض الأمراء في التردد إلا أن موقف الملك المظفر وشحذه الهمم حالت دون نجاح المتخاذلين ومما قاله لهم يا أمراء المسلمين ..لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة (بفتح الغين) كارهين، وأنا متوجه، فمن أختار الجهاد فليصحبني، ومن لم يختر فليرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين.

لقد كان موقف الأمراء المتخاذلين مبنياً على الأهوال والحقائق التي سمعوها عن المغول فمنذ بدء غزوهم للمماليك عام 1219وهم لا يلاقوا جيشاً إلا وفتكوا به ولم يدخلوا مدينة إلا وعاثوا فيها سلباً وتدميراً وحرقاً وكانوا يقتلون الأسرى من الرجال ويسبون النساء وينهبون الأموال .كل ذلك أثر على معنويات أهل مصر وقاطنيها لدرجة أن جماعات من المغاربة هربوا إلى المغرب وآخرون إلى اليمن والحجاز وبقي الباقون في وجل عظيم وخوف شديد، فكانت معنوياتهم في الحضيض ولذلك فإن موقف الملك كان حرجاً للغاية.

كان المماليك هم فرسان الإسلام المحترفين في ذلك الوقت ولفسح المجال أمامهم للتدرب وإتقان عملهم كان الشعب يبذل لهم الكثير من الامتيازات والعديد من الاقتطاعات، لكن النفير العام الذي أطلقه الملك المظفر للغزو في سبيل الله ثم الوطن جمع عناصر وأجناساً كثيرة ضمت العرب والعجم من الأمم الإسلامية.

وفي مجال الحشد المالي لأداة الحملة يذكر المؤرخ (ابن اياس) أن الملك المظفر أخذ في أسباب جمع المال، فأخذ من أهل مصر عن كل رأس من الناس ذكر وأنثى ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية (غير المجندين) والتي كانت تشكل الطبقة الثرية الثلث من أموالهم، وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر، وهكذا هيأ الملك قطز أسباب النصر لمعركته المصيرية.

خرج الملك المظفر قطز بجنده بعد أن استكمل حشده إلى الريدانية ومنها إلى معسكر الصالحية (شرقي الدلتا) وكان ذلك سنة 658هـ (1260م)، وكان يصحبه

(الملك المنصور) صاحب حماة الذي لجأ بجنده إلى مصر وكذلك أخوه (الأفضل علي) .ومن الصالحية تحرك الجيش صوب غزة التي كان التتار قد احتلوها .وقد ضرب الملك المظفر المثل لجنده بالتقشف وشظف العيش أيام القتال والشدائد وليتساوى معهم كما علمنا رسولنا الأعظم عليه صلوات الله.وقد عين الأمير بيبرس قائداً لمقدّمة الجيش وكانت من المصريين.

كانت جموع التتار تحتل غزة بقيادة (بيدر) ولما علم هذا بتقدّم الجيش الإسلامي أخبره قائده العام (كتبغانوين) وهو تركي الجنس كان قد تنصّر على مذهب النسطوريين وعينه هولاكو قائداً عاماً ونائباً له عملاً بنصيحة الصليبيين حلفائه !!والذين كانون لا يزالون يحتلون عدداً من الموانئ على ساحل المتوسط.كان (كتبغا) حينذاك في سهل القاع بالقرب من بعلبك، وعند تسلمه رسالة (بيدر) أمره بالتثبت في غزة بعد أن انقسم رأي مستشاريه بين ملاقاة المسلمين في فلسطين وبين التراجع حتى وصول مدد كاف من هولاكو، وكان هذا أول الوهن في صفوفهم :اختلاف الآراء يؤدي إلى الضعف وتفرق الصفوف.

كان اللقاء الأول في غزة التي سرعان ما تحررت وتنفست الصعداء ورحل عنهم الأعداء شمالاً ليعيدوا تنظيمهم استعداداً للمعركة الرئيسية، استمر الجيش الإسلامي يتقدمه بيبرس متخذاً طريق الساحل حتى وصلوا عكا حيث التقوا ببقايا الجند الصليبين الذين هالهم حجم الجيش الزاحف فعرضوا المساعدة على قطز بالانضمام إليه !!إلا أنه أبى وطلب حيادهم إن كانوا صادقين.

المعركة

التقى الجيشان بالقرب من قرية (عين جالوت) تسمى (جالود) اليوم تقع بالقرب من الناصرة واصطف الجيشان متقابلين جيش ملأ الدنيا رعباً لم يهزم بعد، أسطورة من الأساطير لكنه جيش وثني دخيل، وجيش يدافع عن تراب وطنه ومقدسات دينية يتأجج حماساً للمعركة ضد تلك الأسطورة مرحباً بقرب لقاء ربه

شهيداً أو مكللاً بأكاليل العزة والكرامة .كان ذلك في 25 رمضان المباك سنة 658هـ الموافق 6 أيلـول 1260م.

كان التتار يحتلون تلالا مرتفعة تشرف على سهل عين جالون فانقضوا على جيش المسلمين بهجـوم سريع وخاطف كعادتهم، وقد مكنتهم هجمتهم تلـك مـن اخـتراق مـيسرة جـيش المسـلمين وتكبـدت خسائر كبيرة إلا أن هجوم قلب المسلمين المضاد بقيادة قطز المباشرة وصـياحه وا إسـلاماه، وا إسـلاماه بعد أن ألقى بخوذته إلى الأرض واقتحم بنفسه صفوف الأعداء حتى رد كيد الكفر إلى نحره.

كانت قوات القلب مؤلفة من المتطوعين المجاهدين، أتباع الطرق الصوفية وغيرهم ممـن خرجـوا يطلبون الشهادة دفاعاً عن الإسلام بإيمان شأنهم في كل زمان ومكان، وما زال القتال بين كر وفـر وقطـز يقاتل ويشجع ويوجه المعركة حتى قتل جواده بسهم صبي مغولي كان قد استبقاه قطز من بين حـرس الرسول الذين قتلوا في القاهرة، واستمر قطز يقاتل راجلاً وممتنعا عن أخذ جواد غيره.

اشتد الموقف على التتار فلجأوا إلى التل لحمايتهم فشن المسلمين عليهم موجه هجـوم ثانيـة قـام بها هذه المرة القوة النظامية المؤلفة من المماليك التي كان قد أبقاها قطز للملـمات، فمزقـت شـملهم وأبادت منهم خلقاً كثيراً وفر الباقون باتجاه بيسان، عندها ترجل السـلطان (قطـز) قبّـل الأرض وصـلى ركعتين شكراً لله تعالى القدير الذي أعانه على هزيمة الأعداء .تماماً كما فعل صلاح الـدين بعـد هزيمتـه للصليبيين في حطين .إنهما من تلاميذ محمد صلى اللـه عليه وسلم.

استمر الجيش الإسلامي بمطاردته لفلول المغول الذين تجمعوا في بيسان لخـوض معركـة ثانيـة إلا أن الدائرة دارت عليهم أيضاً ولم ينج منهم إلا القليل.

جيء بقائد التتار (كتبغا) مكبلاً بين يدي السلطان .في حـين اسـتمر بيـبرس مـع ثلـة من شـجعان المسـلمين يطـاردون مـا تبقـى مـن التتـار في الوهـاد والبـوادي حتـى قضى على معظمهم .أخـذ كتبغـا يهـدد قطـز بانتقـام هولاكـو المنتظـر فـما كـان مـن الأمـير

جمال الدين بعد أن نفذ صبره من وقاحة ذلك المشرك إلا أن هوى بضربة سيف فصلت رأسه عن جسده كي يطاف به في مختلف أنحاء البلاد.

وهكذا مرة أخرى ينكفئ طامع جديد في الديار العربية الإسلامية على عقبيه مهزوماً مدحوراً وتبقى هذه البلاد تنعم وستظل بعلم الإسلام الخفاق وتظل في حياض الإسلام مهما تكالبت جند الشيطان وأغراه الفوز المؤقت.

دروس مستفادة:

أسباب النصر :معظم الحسابات ووسائل التقييم العسكري منطقياً تؤدي إلى ترجيح كفة التتار على العرب والمسلمين في معركة عين جالوت للأسباب التالية:

1- كفاءة القادة التتار .تأتت كفاءتهم من تجارب القتال الواسعة بمقارنتهم مع تجارب القادة المسلمين آنذاك.

2- المقدرة القتالية .كان التتار يتمتعون بمقدرة قتالية فائقة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي لطبيعة تكونهم الجسماني والبيئي.

3- القوة المغولية أتت وهي في عنفوان مجدها قوة كاسحة مدمرة انطلقت بشكل خاطف وسريع تدمر ما في طريقها.

4- كانت القوة المغولية تتمتع بروح معنوية عالية نظراً للانتصارات السريعة المهلكة حيث لم يهزم جيشهم في أي معركة خاضها حتى ذلك الوقت .وبالمقابل ونتيجة لتلك الانتصارات وعنف بطش تلك القوة ولحرب الأعصاب التي نشرتها أمامها كانت القوة الإسلامية ذات معنويات مدنية بسبب الخوف من تلك القوة الجارفة، إذا استثنينا عدداً من القادة المسلمين آنذاك.

5- التفوّق العددي والنوعي لجيش التتار .فقد كانت جحافلهم تفوق قوة المسلمين عدداً كما أن مستواهم التدريبي والمتأتي معظمه من التجارب العملية القتالية الطويلة، يفوق ما كان لدى المسلمين لعدم توفر الوقت الكافي.

6- وجود التهديد الصليبي المستمر وعدم أمان خطوط مواصلات المسلمين لسيطرة الصليبيين على الساحل الفلسطيني حتى ذلك الوقت.

7- سيطرة التتار على الأرض في منطقة المعركة قبل وصول المسلمين إليها وهذه ميّزة تكتيكية في صالح التتار، إذ تعتبر الأرض من أهم العوامل المؤثرة على العمليات العسكرية

الأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين:

أ –الروح المعنوية :بالرغم من تأثير الخوف على قلوب معظم المقاتلين إلا أن عدداً من العوامل المؤثرة التي رفعت من مستوى الروح المعنوية لدى الجيش الإسلامي وهي:

1- الإيمان :كان المسلمون ذوي عقيدة دينية قوية طالما كانت هي السبب الرئيسي في انتصارهم ولإيمانهم أيضاً بشرعية قتالهم دفاعاً عن الدين والوطن والعرض أي أنها كانت معركة مصيرية بالنسبة إليهم بينما كان المغول من ناحية أخرى وثنيين وجيش غازي لم يكن له أسباب للقتال سوى القتل والنهب والطمع بأمور دنيوية سرعان ما تتهاوى هذه أمام العقيدة الراسخة، ودليل ذلك بلاء المتصوفين البلاء الحسن في القتال أثناء المعركة.

2- وحدة الكلمة والعمل :توحدت الجهود العسكرية لمصر وبلاد الشام تحت قيادة واحدة تأتمر بأمرها وتطيعها نحو تحقيق هدف مشترك ضد عدو مشترك ينوي القضاء على الجميع

3- القيادة الجيدة :اتصف الملك المظفر بصفات قيادية جيدة أهمها المقدرة والشجاعة والإقدام والحماس والعدل وقد تجلى عدله بتطبيق ما أشار عليه علماء المسلمين وعلى رأسهم الشيخ العز بن عبد السلام لجميع الأموال من الجميع بعدل وبمقدار يتلاءم ومقدرات الناس ودخلهم، ومن صفاته الأخرى الصدق والأمانة وعزة النفس وكرم الأخلاق، رحمه الله

4- التعرض :تكسب المعارك دوماً بالعمليات الهجومية وما الدفاع إلا مرحلة مؤقتة للاستزادة من القوة أو لمقابلة عدو متفوّق لاستنزاف قواه بالاستفادة من حماية الأرض للمدافعين .لم يبق قطز مدافعاً ضد تقدّم التتار إليه بل خرج إليهم لقتالهم بعيداً عن الأراضي المصرية ليواجه العدو الند للند وكذلك استجابه

لاستغاثة أمراء وشعوب بلاد الشام به .أما مقدرته التكتيكية فقد تجلت في إبقاء صفوة فرسانه من المماليك في الاحتياط وإخفائه لهم بين التلال حتى أزفت الساعة المثلى لزجهم في القتال.

5- التعاون :كان للعون الامدادي الذي قدمته شعوب المنطقة لجيش المسلمين الفضل الأكبر في إدامة قوتهم إدارياً ومواداً مما خفف العبء الإداري كثيراً ولم يكن اعتماد المسلمين الرئيسي على قاعدتهم البعيدة مصر.

فتح القسطنطينية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) رواه الإمام أحمد في مسنده.

السلطان محمد الفاتح

هو السلطان محمد الثاني 431هـ 1481م، يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات، حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين .تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في 16محرم عام 855هـ الموافق 18شباط عام 1451م، وكان عمره آنذاك 22 سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية .وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف .وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر .وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصيراً أو إهمال وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الأمام وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإلاح

الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عـدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطوريـة البيزنطيـة بسـبب المنازعـات مـع الـدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخليـة التـي عمـت جميـع مناطقهـا ومـدنها ولم يكتـف السلطان محمد بذلك بل إنه عمـل بجـد مـن أجـل أن يتـوج انتصـاراته بفـتح القسـطنطينية عاصـمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلـة من الزمن، والتي طالمـا اعتـزت بهـا الإمبراطوريـة البيزنطيـة بصـورة خاصـة والمسـيحية بصـورة عامـة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية.

أولاً :فتح القسطنطينية

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام 330م على يد الإمبراطور البيزنطـي قسطنيطن الأول، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها :لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانـت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها، ومنـذ تأسيسـها فقـد اتخـذها البيزنطيـون عاصـمة لهـم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولـة البيزنطيـة كـان لهـذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولـذلك فقـد بشر الرسـول صـلى اللـــه عليـه وسـلم أصـحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك :ما حدث أثناء غزوة الخندق، ولهذا فقـد تنـافس الخلفـاء المسـلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسـول صـلى اللـــه عليـه وسلم :لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش).

لذلك فقد امتدت إليها يد القـوات المسـلمة المجاهـدة منـذ أيـام معاويـة بـن أبي سـفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها سنة 44 هـ ولم ينجح هذه الحملـة، وقـد تكـررت حمـلات أخـرى في عهـده حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح وتعد هذه الحملة أقوى الحمـلات الأمويـة عليهـا، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ.

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد سنة 190هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى .كما أن زعيمها ألب أرسلان 465-455هـ1072-1063/م، استطاع أن يهزم إمبراطور الروم ديمونوس في موقعه ملاذ كرد عام 464هـ1070/م ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من إمبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غرباً وإضعاف الإمبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم، وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في ايام السلطان بايزيد الصاعقة الذي تمكنت قواته من محاصراتها بقوة سنة 796هـ 1393-م، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي على القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فساداً، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار على القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد الصاعقة ثم مات بعد ذلك في الأٍسر سنة 1402م وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي ايام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة 824هـ—863–هـ—1451–1421/م جرت عدة محاولت لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في اثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان وبهذه الطريقة نجح في إشغاله في هدفه الذي حرصه عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلى في زمن ابنه محمد الفتاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على إطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي فمنذ أن ولى السلطنة العثمانية سنة 855هـ الموافق 1451م كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقوى والورع، ومحباً للعلم والعلماء ومشجعاً على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الراشدة التي تلقها منذ الصغر، بتوجيهات من والده، وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم، ممن أشرفوا على رعايته.

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولتهم ومن أخصهم العالم الرباني أحمد بن إسماعيل الكوراني مشهوداً له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه في عهد السلطان مراد الثاني والد الفاتح .وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني –الفاتح–، أميراً في بلدة مغنيسيا وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئاً، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، فطلب السلطان المذكور، رجلاً له مهابة وحدّة، فذكروا له المولى الكوراني، فجعله معلماً لولده وأعطاه قضيباً يضربه بذلك إذا خالف أمره .فذهب

إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال :أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذك المجلس ضرباً شديداً، حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة.

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسم، ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده .من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، مقيد بالأوامر والنواهي معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين.

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما :

1- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

2- الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي :(لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكور).

ثانياً :الإعداد للفتح:

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول صلى الله

عليه وسلم على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجـيش المقصـود بـذلك، مـما أعطاهم قوة معنية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنـود أثـر كبـير في تقويـة عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر اللـه.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة روملي حصاراً في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضـيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسـيوي، وقـد حـاول الإمبراطـور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهـد بـه إلا أن الفـاتح أصر عـلى البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى 82متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى 660م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة.

اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة:

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التـي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيـث أحضر مهندسـاً مجريـاً يـدعى أوربـان كـان بارعـاً في صـناعة المـدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشريـة، وقـد تمكـن هـذا المهنـدس مـن تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السـلطاني المشـهور، والـذي ذكـر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القويـة لتحريكـه، وقـد أشرف السـلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

الاهتمام بالأسطول:

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفـاتح مـن عنايـة خاصـة بالأسـطول العـثماني حيث عمل على تقويتـه وتزويـده بالسـفن المختلفـة ليكـون مـؤهلاً للقيـام بـدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينـة البحريـة التـي لا يكمـل حصـارها دون وجـود

قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أن السفن التي أعـدت لهـذا الأمـر بلغـت أكثر مـن أربعمئة سفينة.

عقد معاهدات:

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع المجد والبندقية وهما من الإمـارات الأوروبيـة المجـاورة، ولكـن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قـوات مـن تلـك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسـطنطينية مشـاركة لبنـي عقيـدتهم مـن النصـارى متناسـين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدو فيها للفتح، استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشـوة بعـض مستشاريه ليؤثروا على قراره ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنـه هـذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شـدة عزيمـة السـلطان عـلى تنفيـذ هدفـه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبيـة وعـلى رأسـها البابـا زعـيم المذهب الكاثوليكي، في الوقـت الـذي كانـت فيـه كنـائس الدولـة البيزنطيـة وعـلى رأسـها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد وقد اضـطر الإمبراطـور لمجاملـة البابـا بـأن يتقـرب إليـه ويظهـر لـه اسـتعداده للعمـل عـلى توحيـد الكنيسـة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة لـه، في الوقـت الـذي لم يكـن الأرثـوذكس يرغبـون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثـوذكس في المدينـة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطـوري الكـاثوليكي المشـترك، حتـى قـال

بعض زعماء الأرثوذكس :إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية.

ثانياً :الهجوم

كان القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه 60قدماً ويرتفع السور الداخلي منها 40قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى 60قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة و القسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 26ربيع الأول 857هـ الموافق 6نيسان 1453م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر

بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بـادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهـدين معهـم مـما أثـر في رفـع معنويـاتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسـوار الخارجيـة للمدينـة، مشـكلاً ثلاثـة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السـلطاني العمـلاق الذي أقيم أمام باب طوب قابي، كما وضـع فرقـاً للمراقبـة في مختلفـة المواقـع المرتفعـة والقريبـة مـن المدينة، وفي نفـس الوقـت انـتشرت السـفن العثمانيـة في الميـاه المحيطـة بالمدينـة، إلا أنهـا لم تسـتطع الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخول بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الأسـطول العـثماني أن يسـتولي عـلى جـزر الأمـراء في بحـر مرمرة.

وحاول البيزنطيون أن يبـذلوا قصـارى جهـدهم للـدفاع عـن القسـطنطينية ووزعـوا الجنـود عـلى الأسوار، واحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينـة، ولم يخلـوا الأمـر مـن وقـوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت أبـواب الشـهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصـوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين وقـد تمكنـت مـن تحطـيم بعـض الأسـوار حـول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية مـن أوروبـا ووصـلت إمـدادات مـن جنـوة مكونـة مـن خمسة سفن وكان يقودها القائد الجنوي جوستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع مـن دول

أوروبية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جستيان قائداً للقوات المدافعة عن المدينة.

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنيطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف.

ثالثاً :مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنيطن صموداً بطولياً في الدفاع وحاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالإنسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة :فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً.

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزطنية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر

جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على المـوت دون خـوف في أعقـاب كـل قصف مدفعي، وفي يوم 18أبريل تمكنت المدافع العثمانية مـن فـتح ثغـرة في الأسـوار البيزنطيـة عنـد وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محـاولين اقتحـام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكـن المـدافعين عـن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغـرة والأسـوار، واشـتد القتـال بـين الطـرفين، وكانـت الثغرة ضيقة وكثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكـان وشـدة مقاتلـة الأعداء وحلول الظلام أصـدر الفـاتح أوامـره للمهـاجمين بالانسـحاب بعـد أن ثـاروا الرعـب في قلـوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسـلة الحـاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركـزة خلـف السلسـلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، أستطاعوا جميعاً من صد السفن الإسـلامية وتـدمير بعضـها، فاضطر بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

رابعاً :عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحريـة العثمانيـة وبعـض السـفن الأوروبيـة التـي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، وأشرف الفـاتح بنفسـه عـلى المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له :إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً، لكن السفن الأوروبيـة نجحـت في الوصـول إلى هـدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك وبالتـالي غضـب السـلطان محمـد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول بعد ما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمـد الفـاتح قائـد الأسطول بالطه أوغلي وعنفه واتهمه بـالجبن، وتـأثر بالطـة أوغـلي لهـذا وقـال :إني اسـتقبل المـوت بجنـان

ثابت، ولكني يؤلمين أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة .لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة.

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا، لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبطله أوغلي باعلى صوته :يا قبطان !يا قبطانّ ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثروا على السفن تأثيراً ليناً.

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثماني دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير خليل باشا اقتناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، خصوصاً وأن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها.

خامساً :عبقرية حربية فذة:

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي (غلطة) خوفاً على سفنه من الجنوبيين، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن.

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته.

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات، تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة .لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم .لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرهم إثارة ودهشة .ويرجع الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همه السلطان وذكاءه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوفر الأيدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم 22نيسان على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عبر أحد

المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذه العمل فقال :ما رأينـا ولا سـمعنا مـن قبـل بمثـل هـذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقـد فـاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر.

ظهـر اليـأس في أهـل القسـطنطينية وكـثرت الإشـاعات والتنبـؤات بيـنهم، وانـتشرت شـائعة تقول :ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة وكان لوجـود السـفن الإسـلامية في القـرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الـذين اضـطروا لسـحب قـوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى.

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القـرن الـذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفـاع المدينـة وأسـوارها بالمـدافع، وحـاولوا تسـلق أسـوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحـاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل لـيلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس.

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة اللبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجـاورة مـما عرقـل حركـة سـفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً.

سادساً :اجتماع بين الملك قسطنيطن ومعاونيه:

عقــد الملــك قســطنطين ومعاونيــه ومستشــاريه ورجــال النصرانيــة في المدينــة اجتماعاً،فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجـدات مـن الأمـم المسيحية، والـدول الأوروبيـة، ولعـل تـأتي الجيـوش النصرانيـة، فيضـطر محمـد الفـاتح

لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر على أن يقاوم إلى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبداً واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها.

سابعاً :الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الأسوار وجعله مركزاً وعنيفاً، وضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على السوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطويلة بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني، وكان أكثر ما يرعب جنود الإمبراطور قسطنطين وهي تشق عنان السماء وتقول :الله أكبر الله أكبر فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الأخرى وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهودة تثور لأي سبب، وأصبح كل واجد من الجنود ينظر إلى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة

والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طريق النجاة والإفلات بأرواحهم ما يتوقونه من العثمانيين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

واضطر الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمر ثاني، اقترح فيه أحد القادة مباغته العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم أن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم إلى مكان القتال، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون.

وكان السلطان محمد –رحمه الله –يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو.

ففي المراحل المتقدّمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصولا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا.

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين أكرى فبو وشاطئ القرن الذهبي وكانت

مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون إن هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم إن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملئون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون :هذا تركي، ...، هذا تركي ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها أنها تطاردهم، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعيني رأسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم سكارى وما هم بسكارى، فريق يجري، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فإن هذه الأنفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحتراقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين .

مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صعنوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاث أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنه النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون النبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتال شديد واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة

حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب.

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع :غداً نصنع أربعاً أخرى.

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين .فعقد زعماء المدينة اجتماعاً 24آيار داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الإمبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم 16جمادى الأولى الموافق 25آيار، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء بزعمهم، وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك شؤم ونذير بالخطر، وتأثر سكان المدينة خصوصاً المدافعين عنها، وحدث في اليوم التالي 26آيار هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة يا صوفيا، فتشاءم القسيس، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتى أغمى عليه.

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض، التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة وارده في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد

ثامناً :المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاءون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جميع المستشارين وعرض عليهم الأمل، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها :إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال :حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكن لي فيها قبر.

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع.

تاسعاً :السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماع لمجلس الشورى:

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلال بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعاه إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، إلى غير

ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطئة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها، كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى زوغنوش باشا وهو من أصل ألباني كان نصرانياً فأسلم حيث هوّن شأن القوات الأوروبية على السلطان.

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت :ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة ارناؤوطية :حاش وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع، وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال :إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران .إن جيش الإسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولى تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما لدول الغربية هذه؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بيناها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منه مكتوفي الأيدي بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطنة، أما وقد سألتني رأي فلأعلنها كلمة صريحة، يجب أن يتكون قلوبنا كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة .لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئاً غير هذا...

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هـذا القـول، والتفـت إلى القائـد طرخـان يسأله رأيه فأجاب على الفور :إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه يا سـلطاني .ثـم سـأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما .وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابـا أنهـما عـلى رأي زوغنوش باشا وقالا :يجب الاستمرار في الحرب، وبالغاية الصمودية سيكون لنا النصر والظفر.

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين وابتهج السـلطان الفـاتح واسـتبشر بـدعاء الشـيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول :من كان من أجدادي في مثل قوتي.

لقد أيد العلماء الرأي القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجـتماع بتعلـيمات مـن السـلطان أن لهجـوم العـام والتعلـيمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك.

عاشراً :محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

في يوم الأحد 18جمادي الأولى 27من آيار وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهـير النفوس والتقرب إلى اللـه تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بـين يديـه، لعـل اللـــه أن يسر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين، كما قام الفاتح بنفسه ذلـك اليـوم بتفقـد أسـوار المدينـة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يـتم فيها تركيز القصف العـثماني، تفقـد فيهـا أحـوالهم وحـثهم عـلى الجـد والتضـحية في قتـال الأعـداء، كـما بعث إلى آل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكداً عليهم عدم التدخل فيهـا سـيحدث ضـامناً لهـم الوفـاء بعهده معهم، وإنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جـراء مـا يحـدث .وفي مسـاء اليـوم نفسـه أوقـد العثمانيون نـاراً كثيفـة حـول معسـكرهم وتعالـت صـيحاتهم وأصـواتهم بالتهليـل والتكبـير، حتـى خيـل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيـين، فـإذا بهـم يكتشـفون أن العثمانيـين يحتفلـون بـالنصر مقـدماً، مـما أوقـع الرعـب في قلـوب الـروم، وفي اليـوم التـالي 28آيـار كانـت الاسـتعدادات العثمانيـة

على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقف العسكرية المختلفة متفقداً وموجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد.

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندي ينصب رأيه الإسلام على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة.

وكان علما المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهادة السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين :لقد نزل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية :إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون...

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجوا المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، حديث أكد عليهم

بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم، ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهداً مؤثراً وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد، فقال من حضره، لو أن شخصاً قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر.

وتوجه قسطنطين نحو صورة يزعمون أنها صورة المسيح معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظوا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري .وقبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذاً خفيفاً كانما كانت ترش الأرض رشاً فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال :لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة.

الحادي عشر :فتح من الله ونصر قريب:

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء 20جمادى الأولى سنة 857هـ الموافق 29آيار 1435م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار، وخاف البيزنطيون خوفاً عظيماً، وشرعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائي متزامناً برياً وبحرياً في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة، وكان الهجوم موزعاً على كثير من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى

بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة لاقتحام، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه أصدر أمراً إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا، قد أرهقوا، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال، كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع بزوغ ذروة الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية.

مما زاد في حماس بقية الجيش للإقحام كما فتّوا في عضد الأعداء، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة، مما أثر في بقية المدافعين، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فاراً من أرض المعركة، وقد بذل الإمبراطور جهوداً كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة.

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول :الحمد الله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر.

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء 20جمادى الأولى 857هـ الموافق 29من آيار 1453م، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون :ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال :لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليم وسلم

وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بـالرفق بالنـاس والإحسـان إلـيهم، ثـم ترجـل عـن فرسـه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى.

الثاني عشر :معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:

توجه محمد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير مـن النـاس ومعهـم القسـس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة النـاس وطمأنـتهم والعـودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئـين في سراديـب الكنيسـة فلـما رأوا تسـامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعـد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعـة قادمـة، وقـد أخـذ العـمال يعـدون لهـذا الأمـر، فـأزالوا الصـلبان والتماثيل وطموسا الصور بطبقة من الجـير وعملـوا منـبراً للخطيـب، وقـد يجـوز تحويـل الكنيسـة إلى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسـائهم الـدينين الـذين لهـم حق الحكم في القضايا المدنية، كـما أعطـى هـذا الحـق لرجـال الكنيسـة في الأقـاليم الأخـرى ولكنـه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع.

لقد حاول المؤرخ الإنجليزي إدوارد شيبردكريسي في كتابه تاريخ العثمانيين الأتراك أن يشوه صـوره الفاتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منـه وبغضـاً للفـتح الإسلامي المجيد وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام 1980م في حـمأة الحقـدة الصـليبي ضـد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمد قام باسـترقاق غالبيـة نصـارى القسـطنطينية، وسـاقهم إلى أسـواق الرقيق في مدينة أدرانة حيث تم بيعهم هناك.

إن الحقيقــة التاريخيــة الناصــعة تقــول أن الســلطان محمــد الفــاتح عامــل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنـوده بحسـن معاملـة الأسرى والرفـق بهـم،

وأفتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفه وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس برطيركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقرّ السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريقهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

كان العثمانيون حريصون على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم.

إن مِلّل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملّة من هذه المِلل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها.

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع إلتزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم.

الفاتح المعنوي للقسطنطينية الشيخ آق شمس الدين:

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيهنا وأصبح علم من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.

وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق، كان مولوده في دمشق عام 792ه، 1389م حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في أنقرة وتوفي عام 1459هـ.

درّس الشيخ آق شمس الدين الأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي :لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش.

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجّهه شيخه فوراً إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً .ودارت الحرب العنيفة 54يوماً.

وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنية اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له :إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ –يقصدون آق شمس الدين –فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن عون من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح ...فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ :لا بد من أن يمنّ الله بالفتح.

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها :هو المعزّ الناصر ...إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة .إن القضية الثابتة هي :إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله ..ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هي إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل.

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود .وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال :علمني يا سيدي دعاء أدعو الله به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام.

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقال كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب.

وعاد السلطان محمد الفاتح عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية.

ففرح السلطان بذلك وقال ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهـر فضـله وأنـه حـدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه.

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقـوة وحـماس، تقـدم الشـيخ إلى السـلطان الفـاتح ليذكره بشريعة اللـه في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة لكما هي الشريعة الإسلامية.

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنـود الفـتح بالهـدايا والعطايـا وعمـل لهـم مأدبـة حافلـة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السـلطان يقـوم بخدمـة جنـوده بنفسـه متمثلاً بالقول السـائد سـيد القـوم خـادمهم .ثـم نهـض ذلـك الشـيخ العـالم الـورع آق شـمس الـدين وخطـبهم، فقـال :يـا جنـود الإسـلام .اعلمـوا واذكـروا أن النبـي صـلى اللـــه عليـه وسـلم قـال في شأنكم :لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجـيش، ونسـأل اللـه سـبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا .ألا لا تسرفوا في ما أصبتم من أموال الغنيمـة ولا تبـذروا وانفقوهـا في الـبر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبـوه .ثـم التفـت إلى الفـاتح وقـال لـه :يـا سلطاني، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن عـلى الـدوام مجاهـداً في سـبيل اللـــه .ثـم صـاح مكـبراً باللـه في صوت جهوري جليد.

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فـتح القسـطنطينية إلى قـبر الصـحابي الجليـل أبي أيـوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية.

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقي خطبة الجمعة في مسجد أيا صوفيا.

الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحـب شـيخه شـمس الـدين حبـاً عظـيماً، وكانـت لـه مكانة كبـيرة في نفسـه وقـد بـين السـلطان لمـن حولـه –بعـد الفـتح :–إنـك ترونـي

فرحاً .فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شـيخ عزيـز الجانـب، في عهـدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الشيخ عن تهيبه لشيخه في حديث له مـع وزيـره محمـود باشـا .قـال السـلطان الفـاتح :إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري .إنني أشعر وأنا بجانبه بالإجلال والرهبة.

ذكر صاحب البدر الطالع أن .. :ثم بعد يـوم جـاء السـلطان إلى خيمـة صـاحب الترجمـة –أي آق شمس الدين –وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له جئتك لحاجـة قـال :ومـا هـي؟ قال :أن أدخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول :لا .فغضب السلطان وقـال أنـه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ فقـال الشـيخ :إنـك إذا دخلـت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت اللـــه علينـا ذلـك والغـرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثـم أرسـل إليـه ألـف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه :ما قام الشـيخ لي .فقـال لـه :لعلـه شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسـلاطين العظـام فـأراد بـذلك أن يـدفع عنك بعض الزهو...

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص عـلى تربيـة محمـد الفـاتح عـلى معـاني الإيمـان الإسـلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحراً في علوم الدين والتزكية فقط بـل كـان علـماً في النبـات والطـب والصيدلة، وكان مشهوراً في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعـلاج مـن الأمراض .وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول :إن النبات ليحدث آق شمس الدين.

وقال الشوكاني عنه ... :وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان فإنه اشـتهر أن الشـجرة كانـت تناديه وتقول :أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله..

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان مادة الحياة قال فيه :من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى .هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة .لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية.

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي .وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد .وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيمائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما :مادة الحياة، وكتاب الطب، وهما باللغة التركية والعثمانية .وللشيخ باللغة العربية سبع كتب، هي :حل المشكلات، الرسالة النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي.

وفاته:

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحسس بالحاجة على ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه في استنبول ومات عام 863هـ/1459م، فعليه من الله الرحمة والمغفرة و الرضوان.

وهكذا سنة الله في خلقه لا يخرج قائد رباني، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في تعليمة وتربيته وترشيده والأمثلة في ذلك كثيرة وهذا دور عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في دولة المرابطين، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح في الدولة العثمانية فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم في المصلحين.

اثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا ولـذلك فـإن سـقوطها يعني فتح الإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذي قبل، ويعتبر فتح القسطنطينية مـن أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخـون الأوروبيـون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلـف الأمـور في المدينـة، وإعـادة تحصـينها، واتخـذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب إسلام بول أي مدينة الإسلام.

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصـارى شـعور بـالفزع والألم والخـزي، وتجسـم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من استنبول، وبذلك الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين، وعقد الأمـراء والملـوك اجتماعـات طويلـة ومسـتمرة وتنادى النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات وكان البابا نيقولا الخامس أشد النـاس تـأثراً بنبـأ سـقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الإيطاليـة وتشـجيعها عـلى قتـال المسـلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشـترك .وأوشـك هـذا الحلـف أن يـتم إلا أن المـوت عاجـل البابـا بسـبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمداً في 25آذار سنة 1455م.

وتحمس الأمـير فيليـب الطيـب دوق بورجونـديا والتهـب حماسـاً وحميـة واسـتنفر ملـوك النصارى إلى قتال المسلمين وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تـدفعهم لغـزو بلادهـم، وتزعمـت البابويـة في روما حروب النصارى ضد المسلمين وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ ما رآه مناسباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجـاورون

السلطان محمد أو يتاخمون حدوده ففي أماسيا، وبلاد المورة، طرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقي، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم .

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنوداً واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد انهكت حرب المائة عام انكلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً في المال، فكانت تهتم بعلاقتها مع الدولة العثمانية.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا وأصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين راعية لمصالحها وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا إلى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والإفلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل .وقد تم ذلك في فترة قصيرة، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم، وأخذهم اخذاً عظيماً.

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين :حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصراني ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عن خطاياه إن هو اعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة .ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه

الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادهـا هونيـاد المجري.

وأما آثار هذا الفتح المبين في المشرق الإسلامي –فنقول لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وأفريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأجيال، ولقد تطلعت لـه طـويلاً وهاقـد تحقـق وأرسل السلطان محمد الفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية في مصر والحجـاز وبـلاد فـارس والهنـد وغيرها يخبرهم بهذا النصر الإسلامي العظيم –وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمـت صـلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط والأعلام والأقمشـة المزركشـة بألوانهـا المختلفة.

يقول ابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في هذه الواقعة :فلـما بلـغ ذلـك، ووصـل وفـد الفـاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عيّن برسباي أمـير آخـور ثـاني رسـولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح.

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القـاهرة عنـدما وصـل إليهـا وفد الفاتح ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال :قلـت والـلـه الحمـد والمنـة عـلى هـذا الفـتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسـطنبول وطلـع بهـما إلى السـلطان سـلطان مصر إينال وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة باسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتار القاصـد المـذكور ورفقتـه بشـوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل..

وهــذا الــذي ذكــره ابــن تغــري بــردي مــن وصــف احتفــال النــاس وأفــراحهم مــن القــاهرة بفـتح القسـطنطينية مـا هـو إلا صـورة لنظـائر لهـا قامـت في الـبلاد الإسلامية الأخـرى .وقـد بعـث

السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته.

المؤلف:

ولازمني نقاش مع احد جيراني الأفاضل وهو رجل خبرة عسكرية طويلة وأنا احترمهُ واقدرُه حيث قلت له أن السلطان محمد الفاتح قد أخطأ حين بنى مسجد أبا صوفيا مكان الكنيسة فرد عليَّ قائلاً :لقد قرأت سيرة محمد الفاتح جيداً، وهو يدرك أن عمراً لم يفعل ذلك، ولم يفعل أحد من المسلمين ذلك، لكنه رأى أن الكنيسة رمز عزتهم وهي مركز مؤامراتهم على الاسلام وهي مكان ينطلق منه لحرب دين الله، فما كان منه إلا أن بنى هذا المسجد حتى لا يعود للكنيسة ذكرى.

المصادر والمراجع

1. ابن هشام، السيرة النبوية، القاهرة، 1955.
2. ابو غنيمة، زياد، زيادة السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، ط2، عمان ـ، دار عمار، 1989.
3. أبو نوار، معن، معركة الكرامة، ط3، عمان، 1970.
4. أكرم، الجنرال، سيف الـلـه خالد بن الوليد /ترجمة صبحي الحاجي، ط7، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1994.
5. الأزدي، تاريخ فتوح الشام /تحقيق عبد المنعم عبد الـلـه عامر، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1970.
6. الأشقر، عمر سليمان، العقيدة في الـلـه، ط5، الكويت، مكتبة الفلاح، 1984.
7. بقرادوني، كريم، لعنة وطن، من حرب لبنان إلى حرب الخليج، بيروت، عبر الشرق للمنشورات، 1991.
8. بلقريز، عبد الإله، المشروع الممتنع، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2004.
9. البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، 1959.
10. الحاج عزيز، القضية الكردية في العراق، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994
11. الحسيني محمد أمين، حقائق عن قضية فلسطين، ط2، القاهرة، مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين.
12. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، طهران، 1965.
13. الدنيوري، الأخبار الطوال ، القاهرة، 1960.
14. الرشواني، منار محمد، الغـزو الأمـريكي للعـراق، الـدوافع والأبعـاد، لبنـان، مركـز الدراسـات الوحـدة العربيـة، 20047.
15. السويدان، طارق، فلسطين التاريخ المصدر، ط2، الكويت، مؤسسة الإبداع الفكري، 2004
16. شريف، حسين، الحرب والسلام، 1996؟
17. شفيق، منير، أوسلو (2، (1المسار والمآل، لندن، فلطسين المسلمة، 1997.
18. صالح، محسن محمد، القضية الفلسطينية خلفياتها وتطوراتها حتى 2001.
19. الأصفهاني، الأغاني، القاهرة، 1905.

20. الطبري :محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك /تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1969.

21. كمال، أحمد عادل، الطريق إلى دمشق، بيروت، دار النفائس، 1980.

22. المسعودي، مروج الذهب ، القاهرة، 1958.

23. محسن، إبراهيم قضايا نظرية وسياسية بعد الحرب، بيروت، منشورات بيروت المساء، 1984.

24. تويهض، وليد، صلاح الدين الأيوبي، سقوط القدس وتحريرها، 1997.

25. الواقدي، المغازي، القاهرة، 1948.

26. الواقدي، فتوح الشام، القاهرة، 1954.









دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - الأشرفية
تلفاكس ٤٧٧٨٧٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢
ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن
E-mail: dar_yafa@yahoo.com